الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر



الشاعر علي محمود طه (اقرأ المقال عنه ص ١٥)

تصدر عن دار العلم للملايين - بيروت

كانون الثاني ١٩٥٣ العدد الأول . السنة الأولى

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

تصدر عن دار العلم للملايين - بيروت

AL-ĀDĀB : Revue mensuelle culturelle
Beyrouth - Liban. B.P. 1085

المدير المسؤول : بهيج عثمان

رئيس التحرير : الدكتور سهيل ادريس

في هذا المنعطف الخطير من منعطفات التاريخ العربي الحديث ، ينمو شعور اوساط الشباب العربي المثقف بالحاجة الى مجلة ادبية تحمل رسالة واعية حقاً .

وصدور « الآداب » منبثق عن وعي هذه الحاجة الحيوية . اما تلك الرسالة التي تحملها ، فتقوم على الاسس الكبرى التالية :

تؤمن المجلة بأنّ الادب نشاط فكري يستهدف غاية عظيمة : هي غاية الأدب الفعّال الذي يتصادى ويتعاطى مع المجتمع ، اذ يؤثّر فيه بقدر ما يتأثّر به . والوضع الحالي للبلاد العربية يفرض على كل وطنيّ ان يجنّد جهوده للعمل ، في ميدانه الخاص ، من أجل تحرير البلاد ورفع مستواها السياسي والاجتماعي والفكري . ولكي يكون الأدب صادقاً ، فينبغي له ألاّ يكون بمعزلٍ عن المجتمع الذي يعيش فيه .

رسالة الآداب

وهدف المجلة الرئيسي ان تكون ميداناً لفئة أهل القلم الواعين الذين يعيشون تجربة عصرهم ، ويُعدّون شاهداً على هذا العصر : ففيما هم يعكسون حاجات المجتمع العربي ، ويعبّرون عن شواغله ، يشقّون الطريق أمام المصلحين ، لمعالجة الاوضاع بجميع الوسائل المجدية . وعلى هذا ، فانّ الادب الذي تدعو اليه المجلة وتشجّعه ، هو ادب « الالتزام » الذي ينبع من المجتمع العربيّ ويصبّ فيه .

والمجلة ، اذ تدعو الى هذا الأدب الفعّال ، تحمل رسالة قوميةً مثلى . فتلك الفئة الواعية من الادباء الذين يستوحون أدبهم من مجتمعهم يستطيعون على الأيام ان يخلقوا جيلاً واعياً من القراء يتحسسون بدورهم واقع مجتمعهم ، ويكوّنون نواة الوطنيين الصالحين . وهكذا تشارك المجلة ، بواسطة كتّابها وقرائها ، في العمل القومي العظيم ، الذي هو الواجب الأكبر على كلّ وطنيّ .

على انّ مفهوم هذا الأدب القوميّ سيكون من السعَة والشمول حتى ليتّصل اتصالاً مباشراً بالأدب الانساني العام ، ما دام

يعمل على رد الاعتبار الانساني لكل وطني ، وعلى الدعوة الى توفير العدالة الاجتماعية له ، وتحريره من العبوديات المادّية والفكرية ، وهذه غاية الانسانية البعيدة . وهكذا تُسْهِم المجلة في خلق الادب الانساني الذي يتسع ويتناول القضية الحضارية كاملة ، وهذا الادب الانساني هو المرحلة الاخيرة التي تنشدها الآداب العالمية في تطوّرها .

وفي المنهج العامّ للمجلة ان تعمل على إخراج كثير من الاقلام المبدعة التي تؤثر الصمت والاختفاء على الظهور في نشرات هزيلة لا تعطي فكرة جيّدة عن الادب العربي الحديث . والمجلة اذ تخرج هذه الاقلام من عزلتها ، تتيح لاصحابها ان يستعيدوا ثقتهم بأنفسهم ، فيحاولوا الابداع ويغنوا الادب العربي بنتاج جديد .

وفي هذا النطاق كذلك ، ستعمل المجلة على ابراز حيوية الادب العربي الحديث وخصبه وغناه ، اذ ستشجّع الالوان المحلية والطابع الخاصّ لكل أدب . وستضمّ صفحاتها نتاج أقلام تعتقد أنها تعبّر بصدق وإخلاص عن خصائص الادب في بلادها .

ومن أهداف المجلة ان تثير من القضايا الفكرية ما يحيي الحركة الادبية الهامدة في البلاد العربية ويفسح المجال واسعاً للمناقشات والمطارحات والمعارك القلمية . ولا بدّ من ان يكون لهذه الحركة أثرٌ بعيد في الاقبال على الكتابة والقراءة كلتيهما . وهذا النشاط جميعه جديرٌ به ان يعطي الاجنبي فكرة صحيحة عن الادب العربي الحديث ومشاركته في الحركة الادبية العالمية . والواقع ان النتاج العربي المعاصر يكاد يكون مجهولاً في الاوساط الاجنبية ؛ ومردّ ذلك قبل كل شيء إلى فقدان مجلة ادبية راقية تستعرض النشاط الفكري في البلاد العربية وتفسح المجال للاقلام القوية .

وكما ستحاول « الآداب » ان تعطي الاوساط الادبية الاجنبية صورة صادقة عن نشاط العرب الفكري ، فهي ستهتمّ اهتماماً شديداً بالآداب الأجنبية ، فتعطي القارىء العربي صورة واضحة عن أحدث النتاج الغربيّ ، عرضاً ودرساً ونقداً ، وبذلك توفر لقارئها ثقافة عامة مديدة الآفاق ، ثم انها ستتيح للادباء والمفكرين العرب ان يتفاعل نتاجهم بالنتاج الغربي ، فيكتسب قوةً وعمقاً ، فيما هو يحتفظ بطابعه وخصائصه الذاتية .

وستعنى المجلة عناية خاصّة بالنقد الأدبي وبالقصة ، فتحاول في الباب الأول ان تقوّم الآثار الادبية ، القديم منها والجديد ، تقويماً موضوعياً مجرّداً يضع كل كتاب في موضعه الصحيح ، دون ما اعتبار لأحكام سابقة لم تمْلها غالباً إلا رغبة متغرّضة في التقريظ او في التجريح . وسوف تشجّع في هذا الباب أيضاً جميع الوان النقد الذاتي . اما في باب القصة فستفسح المجال واسعاً للجيل الجديد من ادباء الشباب الذين يستلهمون واقع مجتمعهم ويصوّرون عصرهم خير تصوير .

•

بهذا كله ، سيتاح « للآداب » ان تكون مرجعاً مهماً من مراجع الادب العربي الحديث يستشيره كلُّ من رغب في الاطلاع على النشاط الفكري العربي ، ولا سيما المستشرقون الذين لاتنقطع شكواهم من فقدان المراجع التي تمكّنهم من دراسة الادب العربي المعاصر . وسوف تنشر المجلة في كل عدد من أعدادها دراسات واسعة عن الاتجاهات الحديثة في ادب الكتّاب العرب ، في جميع الوان نتاجهم ، وستعهد بهذه الدراسات الى متخصّصين ينتمون الى مختلف البلاد العربية .

بتلك الرسالة ، وبهذا المنهج ، تتقدّم « الآداب » الى قرائها ، آملة ان تجد عندهم التشجيع الذي يمكّنها من متابعة حمل رسالتها وتحقيق منهجها .

سهيل ادريس

مجد القلم
إلى الادباء الناشئين
بقلم ميخائيل نعيمه

تأتيني من حين الى حين رسائل من أدباء ناشئين يطلبون إليّ فيها أن أرشدهم الى السبل الكفيلة بان تجعل منهم كتّاباً وشعراء ذوي مكانة في دولة الأدب. ويا ليته كان في مستوصفي او مستوصف سواي « روشتة » اذا استعملها الراغب في الأدب أصبح أديباً ، إذن لكنّا « نصنع » الأدباء بمثل السهولة التي بها نصنع الزبيب من العنب والخبز من القمح . إلا ان الادباء يُخلقون ولا يُصنعون . والفرق بين الاديب المخلوق والاديب المصنوع كالفرق بين العين الطبيعية والعين من زجاج .

من كان مُعَدّاً للأدب كان في غنىً عمّن يدلّه على طريقه . ففي داخله ومن خارجه حوافز لا تتركه يستريح حتى يتم التزاوجُ مابين عقله وقلبه وذوقه وبين القلم والمداد والقرطاس . وهو، عن وعي وعن غير وعي ، لا ينفكّ يلتهم التهاماً كلّ ما يتّصل به من آثار أدبية . ثم لا ينفك يسوّد الاوراق بما يتولد في نفسه من أحاسيس وأفكار وانطباعات . إن اغمض عينيه في الليل فعلى كاتب او مقال . وإن فتحهما في الصباح فعلى شاعر او قصيدة . فكأن كل ما فيه وكل ما حواليه يدفع به دائماً أبداً الى تحقيق حلمه بان يدرك اليوم الذي فيه ينطبع اسمه على شفاهٍ كثيرة وتغدو مؤلفاته نجعة لجيش من القراء والاقلام .

لكل ذي مهنة او حرفة عُدّة . وعدّة الاديب لغة وفكر وخيال وذوق ووجدان وإرادة . وهذه كلّها قابلة للتنمية وللصقل . وخير الوسائل لتنميتها وصقلها هو احتكاكها المستمر بما سبقها وما عاصرها من نوعها . ثم توجيهها التوجيه المستقل في الطريق الذي تفرضه على الكاتب حياته الباطنية والخارجية . لذلك كان لا بد لكم من المطالعة ، ومن فكر سريع الالتقاط ، وخيال مسبل الجناح ، وذوق مرهف الحدّين ، ووجدان صادق الميزان ، وإرادة صلبة العود . وكان لا بدّ لكم ، فوق ذلك كلّه ، من معدة ادبية تهضم ما تلتقطونه هنا وهناك فتحوّله غذاءً طيبا لكم وللذين يقرأون ما تكتبون . وإلا كنتم كالاسفنجة إذا غمستموها في سائل من السوائل ثم عصرتموها ردّت اليكم ما امتصته عيناً بعين ودون زيادة او نقصان . وكنتم إذ ذاك أصداء فارغة لا أصواتاً حيّة .

وإن تسألوني ماذا يحسن بكم أن تطالعوه أجبكم : إن ذلك يتوقف الى حدّ بعيد على ميولكم وأذواقكم وعلى مقدار جوعكم الى المعرفة التي بدونها لا قيام لايّ ادب . فقد يكتفي الواحد منكم بمطالعة بعض الآثار الادبية المشهورة . وقد يتعداها الآخر الى النجوم والحيوان والنبات وطبقات الارض والفنون والاديان والتاريخ والفلسفة بانواعها ، حتى الى الروايات البوليسية والمقالات التافهة التي تحفل بها حقول الصحافة الرخيصة . فالأمر الذي لا شك فيه هو انكم كلما اتسع اطلاعكم على مجاري الحياة البشرية ، قديمها وحديثها ، بعيدها وقريبها ، جليلها وحقيرها ، اتّسع مجالكم للتأمل والتفكير وللعرض والتصوير . فما انسدّت في وجوهكم الطرق الى مواضيع جديدة تعالجونها باساليب جديدة .

تحاشوا اللف والدوران ، فليس اكره من جثة فيلٍ او حوتٍ تحيا بقلب ضبّ أو بقلب ضفدع . وتحاشوا النوح والبكاء ، والتشكي من الدهر ، واستجداء رحمة القارىء وشفقته . فهذه كلها من دلائل الهزيمة . والهزيمة عار وأيّ عار على الذين سلحتهم الحياة بالفكر والحس والخيال والارادة . ومن ثم فالناس يحبون السير في ركاب الظافرين ويكرهون مماشاة المنهزمين .

اما العار الاكبر والأفظع فهو تقليدكم الاعمى للغير او سرقة بضاعة الغير . فالتقليد هو الشهادة بافلاس المقلّد . وسارق أدب الأحياء والاموات كمن يأكل لحم اخيه نيئاً ، أو كمن ينهش جيفةً في قبر .

اما الشهرة فاياكم ان تبتغوها في ذاتها . فما هي غير ظلّ قامتكم الأدبية . إن امتدت تلك القامة امتدّ . وإن تقلّصت تقلّص . فظل السروة الساحقة غير ظلّ العلّيقة اللاصقة بالتراب . وأما الغرور فاقتلعوا جذوره من صدوركم . فهو اشد فتكاً بكم من السوس بالخشب .

والغرور هو غير الايمان بالنفس . ذلك بالوعة وقاذورة . وهذا ميناء ومرساة . وما لم يكن من ايمانكم بانفسكم ميناء ومرساة كنتم حيرةً في حيرة وكان ادبكم رغوةً في رغوة .

قبل ان تهتموا بما يقوله الناس فيكم اهتموا بما يقوله وجدانكم لوجدانكم . أخلصوا لأنفسكم ولأدبكم اولاً وإذ ذاك فصدوركم لن تضيق بذمٍّ ولن تنتفخ بمدح . فان كنتم اكبر من ناقديكم فما همكم اذمّوكم ام مدحوكم ؟ وان كنتم في مستواهم فيجمل بكم ان نصغوا الى ما يقولونه فيكم . وان كنتم دونهم فجدير بكم ان تتعلموا منهم .

تنافسوا ولا تتحاسدوا . وإياكم ان تتشاتموا . فعداوة الكار إن هي اغتفرت لاسكاف أو نجار او غيرهما من صانعي السلع وبائعيها فهي لا تُغتفر للعاملين على السمو بالانسان في معارج الفهم والحرية .

ما دمتم واثقين من ان لكم رسالة تؤدونها فلا تقنطوا من تأديتها وإن أغلقت في وجوهكم ابواب الصحف ودور النشر . ثابروا على العمل وانا الكفيل بانكم ستشقون لرسالتكم طريقاً في النهاية . فالناس في جوع وعطش دائمين الى القول الحق والقول الجميل . ولا تنسوا ان الذين تبصرونهم اليوم في القمّة كانوا بالأمس في الأغوار وفي السفوح .

خذوا مواضيعكم من انفسكم ومن الناس والاكوان حواليكم . ولا تمسحوا اقلامكم منها إلا من بعد ان تبدو لكم صريحة المعالم مشرعة الأبواب كي يسهل تناولها حتى على الذين هم دونكم مقدرةً ومهارة في الغوص الى الأعماق. وليكن اجركم الأول والأعظم تلك البهجة التي يشيعها في الروح شعوركم بانكم قد خلقتم مخلوقاً جديداً وجميلاً ، أكان ذلك المخلوق مقالاً أم قصيدة ، أم قصة ، أم رواية ، أم كلاماً لا ينساق إلى التبويب ولكنه يترك فيكم وفي القارىء نشوة وعبرة .

الكتابة عمل مرهق كسائر الأعمال البنّاءة . إلا انه عمل لذته لا تفوقها لذة . وهي لذة قلما يتذوقها الكسالى وفاترو الهمة . فان شئتم بلوغ القمم الأدبية حيث « الخالدون » فعليكم ان لا تشركوا في محبتكم للقلم محبة اي سلطان سواه ، وان تنبذوا الكثير من ملذات العالم وامجاده. وانتم متى ادركتم اي مجدٍ هو مجد القلم هانت لديكم من اجله كل امجاد الأرض، وصنتم اقلامكم عن التملق والتسفل والتبذل . فما سخرتموها لمال او لسلطان ، ولا لأية منفعة عابرة مهما يكن نوعها . وما دامت اقلامكم عزيزة فانتم أعزاء .

ميخائيل نعيمه

الآداب

بيانات ادارية

- يبدأ الاشتراك السنوي من اول كانون الثاني (يناير) .
- تدفع قيمة الاشتراك مقدماً .

الاشتراك في الآداب :

- في سورية ولبنان ١٢ ليرة .
- في الخارج جنيه استرليني ونصف ، او خمسة دولارات.
- في الولايات المتحدة عشرة دولارات ؛ في الارجنتين ١٠٠ ريال .

الادارة : بيروت — شارع سورية ، دار العلم للملايين

تلفون الادارة ٢٣/٠١ — منزل المدير ٣٠/٠١

توجه المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الآداب — صندق البريد ١٠٨٥ بيروت

خواطر .. عند دقات ساعة !

بقلم الدكتور احمد زكي

كانت الساعة ساعة حائط .

ودقت الخامسة .

فسألني الطفل الصغير ، وكان في السادسة من عمره : كم الساعة ؟ قلت امتحاناً له ومعاكسة : الساعة العاشرة . فظهرت عليه الريبة ، وقال : ولكنها دقت خمس دقات . فضحكت وقلت : إذن فهي الخامسة . قال : وبكره تبقى الساعة كام ؟

انا ، في ألفتي بالساعة ، نسيتُ ما في الطفل من جهل بها واستغراب لها . وفي علمي بالزمان غفلت عن جهل في الطفل بالزمان ، وجهل كان بي يوم كنت طفلا . وخطر على بالي سؤال : أينا كان أسعد حالاً ، انا الطفل في جهلي أسأل «وبكره تبقى الساعة كام » ، ام انا الرجل الناضج أعرف الساعة ، واعرف الدقيقة ، واعرف الثانية ، والثالثة والرابعة ، واعرف ان الزمن جزّأوه حتى تقسّمت الثانية الى الف جزء ، ثم تقسّم الجزء من هذه الى ألف اخرى . وقاسوها . واعرف ان الزمن كما حسبوه صغيراً ، حسبوه كبيراً ، وكبر حتى استعصى ان يكون مقياسه السنين والقرون .

وذهب عني الطفل ، فأخذت انظر الى الساعة ، ارمقها ، وقد هدأ الليل واشتد سكونه ، فخلا الجو للساعة تعلن فيه دقاتها متلاحقة راتبة . وكنت اسمعها كما اسمع دقات قلبي عندما افرغ في هدوء فراشي وقد اشرفت على النوم . وكنت إخالها تعدّ برهات الزمان وهي تفلت مني برهةً من بعد برهة .

واول خاطر جاءني في صورة سؤال : ما الزمن ؟

ان الزمن كالحياة ، شيء نحسه ، ولا نعرفه . وكم من اشياء هذه الحياة ما نحس ولا نعرف . ومن هذه الاشياء « أنا ». من « انا » ؟ ومن « انت » ؟ قد تحاول انِ تجيب فتذكر لي اني وانك هذه الرجل التي تسعى ، وهذا القدم الذي يدب ، وهذا الجذع وهذه الاطراف وهذا الرأس . ونعم ، هذه انت وانا ، ولكنها ليست كنهي وليست كنهك ، انها عنواني وعنوانك . انها كأرقام البيوت ، يُستدل بها عليها . والبيوت غير ارقامها . وما الاجسام إلا اوعية تحتوينا . إنّ « انا » وقعت من فهمي في موضع من الالفة لا يحتاج الى تعريف ، بل لا يمكن معه تعريف . إنّ « انا » من القرب مني بحيث لا اراها ، لانها واقعة مِني وراء عيني . وهي اقرب شيء الى نفسي ، فهي اكثر الاشياء انبهاماً في ذهني . وكذلك الزمن .

☆

والزمن اكثر الاشياء ، من بين اصابعي واصابعك ، هربا . انك قد تشير الى كتاب فتقول هذا كتاب . ولكنك لا تستطيع ان تشير الى برهة من الزمان صغيرة ، فتقول هذه البرهة . لانك لا تكاد تنطق ، تتحدث عن البرهة ، حتى تكون البرهة قد فاتت . وقولتك « الآن » لا معنى لها ، لانك لا تفرغ من قولتها حتى تكون في « آن » غير ذلك « الآن » .

☆

وانت في جسمك ، الذي هو وعاؤك ، والذي هو عنوانك ، وليس هو كنهك ، في تغيّر دائم . ان جسمك ، ما دبّت فيه الحياة ، لا يستقرّ على حال . انه في هذه البرهة غيره في البرهة الثانية . دمك يتغير من برهة الى برهة ، وخلاياك يتغير حالها وتركيبها من برهة الى برهة ، وهضمك وإفرازك وكل دبيبة فيك ، تتغير . ومن اجل هذا كنت حيّا ، فالحياة ، كالزمن ، دائمة الدؤوب . وهي ان توقفت حلّ بها الفناء .

والفناء ، ان حلّ بالأجسام اذا هي توقّفت عن الزمن وهو يجري ، فهو كذلك يحلّ بها وهي مع الزمن جارية . انه فناء الحركة ، ان كان الاول فناء السكون . وكل متحرك الى توقف ، وانه استهلاك الحركة للاجسام . وإنها الأوعية تبلى فيبلى ما فيها ومن فيها . وهذا من بعض صفة الزمن .

ومن صفة الزمن الانذار قبل إجهاز. ومن الانذار الباطن ومنه الظاهر . ومن ظاهره ما يظهر على الوجه اذ يتجعد ويتخدد ، وما يظهر في عود الظهر فينحني ، وما يظهّر في الشعر فيبيضّ ، أو يشتعل شيباً كما يقولون ، وما من بعد اشتعالٍ الا الرماد .

والله الذي خلق الزمان خلق الانسان ، وجعله يتناسل ، ليفنى هو ، ثم ليظل يلاحق الزمن بذريته . فحيثما وُجد الزمان وُجد انسان ، وحيثما جرى الزمان جرى انسان . وقد يخيّل الي ان الانسان خالد ما خلد الزمان . ولكني اعود فأسائل نفسي : وهل يخلد الزمان ؟

*

وأقول وتقول « جرى الزمان » . وهل الزمان يجري ؟ أم يخيّل الينا انه يجري لأن الأشياء تجري فيه ؟ ان الزمان إن جرى ، فهو أخفى الاشياء جرياناً ، وان هو تحرك ، فهو أخفى الاشياء حركة .

والحق ان حركة الزمان مستمدة عندنا من حركة ما يجري فيه . فلولا الحركة ما درينا ما الزمان . ان اليوم من حركة الارض ، والسنة من حركة الشمس . ونقلنا هذه الحركة ، دائرةً كما هي في الارض ، دائرة كما يخيّل الينا انها في الشمس، نقلناها الى الفولاذ ، الى عقارب هذه الساعة التي أمامي ، على الحائط ، فكان منها معنى الساعة ، ومعنى الدقيقة ، وما دون ذلك ، وما فوق ذلك . ان الزمن، في تقسّمه ، صناعة، نحن الذين صنعناها، ونحن الذين أوجدناها وانشأناها . فمعنى الزمن مصنوع ، لمعنى له في انفسنا خبيء مطبوع .

ومن معنى الحركة التي للزمن في أذهان الناس انهم يشبهونه بالنهر الجاري . او هكذا يشبهه الشعراء . والحياة تجري فوق سطحه . وهي تصب كما يصب في المحيط الأعظم ، وفيه تمتزج الحياة وتختلط وتفنى . ولكن النهر لا يفنى ، لأنه ان كان له مصب فله منبع ، والمنبع دائم الأمداد. وهو بين منبعه ومصبه تركبه الحياة ، ولكنها حياة غير تلك الحياة التي فاضت في المحيط الأعظم ، أو لعلها منه ، كما النهر منه .

ومن الناس من ينظر الى الزمن فيجد فيه ...

ولكن معذرة . ان ساعة الحائط تدق من فوقي : واحد ، اثنين ، ثلاثة ، اربعة ، خمسة ، ستة .

ساعة كاملة قد انقضت، من الزمان، وانا افكر في الزمان. ان الزمان لأعسر من ان أتفهّمه ، أو استقصيه، في ساعة .

القاهرة — احمد زكي

تأملات في صقيع موسكو

بقلم خليل تقي الدين

ادب « اليوميات » ادب ضعيف بالاجمال في النتاج العربي الحديث ، فان الكتّاب الذين عالجوه قلة ضئيلة . ولعل الاديب اللبناني المعروف الاستاذ خليل تقي الدين وزير لبنان المفوض في الاتحاد السوفياتي والبلاد السكندينافية يحاول ان يملأ فراغاً يشكو منه ادبنا الحديث حين ينشر عما قريب كتاباً في ادب « اليوميات » بعنوان « في بلاد ستالين » . وقد بعث من ستوكهلم الى « الآداب » بفصل من هذه اليوميات الادبية الطريفة ننشره فيما يلي :

موسكو . خريف ١٩٤٦ . أحقاً هو الخريف؟ فكيف إذن يكون الشتاء ؟... برد . وريح. وصقيع . والثلج يتساقط منذ ايام بلا انقطاع . وموسكو تلبس شيئاً فشيئاً ثوبها الابيض. وهي لن تخلعه قبل عدة شهور!

كتب صاحبي من موسكو الى صديق له في لبنان عُرف بميله الى المبالغة، و « الفشر » في كل ما يرويه من حوادث يؤكد انها وقعت له ، ويُقسم على صحتها بالله وبجميع الرسل والانبياء . من ذلك انه زار مصر فلما عاد الى بلده سأله اصحابه عما اعجبه فيها فقال : منظر القاهرة من فوق الهرم الكبير . قالوا: وهل تسلقته ؟ قال : اجل ، ركبت ظهر ابي الهول فصعد بي الى قمة الهرم . وأضاف : وهذه على الاقل قصة لا يمكنكم الشك في صحتها ، وكل من زار مصر يُؤمّن على كلامي ...

اقول : كتب صاحبي من موسكو الى صديقه « الفشّار » هذا يصف له قسوة الشتاء فقال : تصور ان كل شيء هنا يتحول الى جليد في فصل الشتاء فالانهار تتجمد وتصبح طرقات معبدة تسير عليها القطر والسيارات ويلعب عليها الاولاد . والناس حين يسيرون في الشوارع لا يمشون كما تمشون انتم في مصر او في لبنان بل يتزحلقون فاذا هم زحافات بشرية . ونحن هنا لا نأكل الفاكهة بالسكين ، بل نحطمها بالفؤوس و .... امس التقيت في الطريق صديقنا احمد فسألته بصوت عال : الى اين انت ذاهب يا احمد ؟ فلم يجبني ، فأدركت ان كلماتي تجمدت في الطريق فوقفت فيما بين فمي واذنيه ...

ومنذ ذلك اليوم شفي الصديق المقيم في لبنان من داء « الفشر » وعاد لا يروي قصة صعوده الى الهرم الكبير ممتطياً ظهر ابي الهول .

واقسم إن كانت هنالك مبالغة تقرب من الحقيقة ، فهي قصة تجمّد الكلمات هذه .

شتاء العالم ان طال فثلاثة اشهر . وكم من بلاد شتاؤها شهر او شهران . اما شتاء موسكو فيمتد من اوكتوبر الى آخر نيسان .

والشتاء في سائر انحاء الدنيا مطر يعقبه صحو ، وصحو يعقبه مطر . وبين هذا وذاك شمس او ظلّ شمس . ودفء او شبه دفء . وتستطيع مع ذلك ان تنصرف الى عملك وانت واثق ان اعضاء جسدك ستظل في مكانها ، وعلى حالها . فان غادرت البيت في الصباح وفي يديك عشرة اصابع ، وفي رجليك مثلها ، عدت اليه في المساء وتفقدت اصابع يديك ورجليك فاذا هي هي ، لم يفقد منها شيء .

واما في موسكو — حفظك الله ووقاك — فالشتاء شيء مخيف ، هائل ، جبار ، لم تسمع به اذنان ، ولم تر مثله عينان ..

يخيل اليك ان كل شيء مقلوب ، وان الطبيعة قد غضبت على بني البشر فاحالت الضياء ظلاماً والارض مقبرة فاغرة فاها عند كل منعطف وفي كل طريق.

النهار يطلع قبيل الظهر بساعة. ولكن اي نهار ؟ انه شبه ضياء شاحب ، اغبر ثقيل يصدم النظر ويتعبه . السماء لاصقة بالارض فعيناك لا تريان الا ضباباً كثيفاً وغيوماً فوق غيوم. حتى اذا مرت ساعات ثلاث خيم الليل ، أو قل ان الليل الاغبر قد عقبه الليل الاسود . ولا فرق بين هذا وذاك ! وتصور انك تعيش في هذا الجو سبعة اشهر من كل عام طوال بضع سنوات من عمرك وان خيالك يسرح بك كل ساعة وينقلك الى القاهرة او بيروت او دمشق حيث الشمس وحيث الدفء وحيث الضياء. وتصور معي كيف تكون حياتك حين يعذبك الشوق ويلج بك الحنين !..

في اوائل الشتاء يسقط الثلج بغزارة واستمرار ، والثلج لا يسقط الا اذا ظلت درجة الحرارة متأرجحة حوالى الصفر. واما المطر فلا يسقط ابداً في الشتاء . ألم اقل لك ان كل شيء في

موسكو مقلوب ؟ فالمطر ينقطع في الشتاء ، وينهمر في الصيف . لذلك انعدمت في روسيا صناعة المظلات ومعاطف الكاوتشوك وندر استعمالها ؛ فان رأيت في شوارع موسكو رجلاً يحمل مظلة فاعلم انه قادم من لندن او باريس ، ولا يندر في هذه الحالة ان ترى روسياً في الشارع ينظر الى هذا « البورجوازي » القذر ، حامل المظلة ، ثم يشيح بوجهه عنه ويبصق !

ولا يكاد شهر اوكتوبر ينتصف حتى تبدأ عملية عجيبة لم أرَ مثلها في أي بلد آخر ، ولم أرها حتى في استوكهلم عاصمة اسوج ، وهي مع ذلك اقرب الى القطب الشمالي من موسكو . وفي وسعك ان تسمي هذه العملية حملة وطنية تشمل روسيا من أقصاها الى أقصاها ، اي تشمل مساحة من الارض تبلغ خمس رقعة العالم . ويقوم بهذه الحملة استعداداً للشتاء مائتا مليون من البشر يعيشون في روسيا .

والعمل بسيط في حد ذاته . ولكنه خطير في نتائجه ، وهو يقضي بسد جميع المنافذ والشقوق في المنازل ، والفنادق والمقاهي ، والمكاتب ، وكل مكان يسكنه الناس .

إذ ان الابواب والنوافذ والشبابيك لا تكفي للوقاية من البرد .

والتدفئة العامة ، على البخار ، والكهرباء ، والحطب ، وفي المدافىء لا ترد وحدها غائلة البرد ، ولا تقوى على تحطيم انياب هذا الوحش الضاري الذي يسمونه الصقيع .

بل يجب ان لا تدع في بيتك ثقباً ولو كخرم الابرة ينفذ منه الهواء . وإلا قضيت على نفسك وعلى اولادك بالموت .

والموت في موسكو رخيص . وشائع وسريع . ولا سيما في الشتاء .

والموت في موسكو أمر تافه . عادي لا يلفت النظر ولا يحفل به الناس لكثرة ما ألفوه ، وتعوّدوه .

يجيء العمال فيحكمون اغلاق النوافذ ثم يطلون شقوقها ، وفتحاتها ، ومكان تلاقي النوافذ بعضها ببعض بصمغ كثيف يلصقون عليه الورق حتى يسد كل منفذ . فاذا منظر الشباك قبيح كل القبح وقد علته عصائب الورق طلوعاً ونزولاً ، طولا وعرضاً ، كالضمادات لفّ بها الوجه الجريح .

والنوافذ في موسكو مزدوجة ذات زجاجين بينهما فسحة صغيرة . وهم يلصقون الورق على شقوق الزجاج الخارجي الذي يواجه الخلاء مباشرة ويتركون الزجاج الداخلي بحيث يستطاع فتحه واغلاقه .

واعظم ثلاجة في الدنيا هي هذه الفسحة بين الزجاجين ...

كانت زوجتي تنسى في النافذة احياناً زجاجة لبن او شيئاً من الفاكهة ، فننهض في الصباح فاذا الزجاجة قد تحطمت ، واذا الثمرة قد استحالت كالحجر الصلب . فكنا نعالجها بالمطرقة بدلاً من السكين ! كان اول شتاء قضيته في موسكو شتاء ١٩٤٦ — ١٩٤٧ وكان شتاء قاسياً مخيفاً هبطت فيه درجة الحرارة — وهل تسمى هذه حرارة ؟ ! — الى ٣٣ تحت الصفر ؟

وفي ٩ شباط سنة ١٩٤٧ جرت الانتخابات النيابية في طول روسيا وعرضها .

وكان علي بحكم وظيفتي ان اتجول في الشوارع واطوف بمكاتب الاقتراع لارى كيف ينتخب الشعب الروسي نوابه في ظل الشيوعية الحمراء . وتدرعت للبرد ووقفت امام المرآة فكنت اشبه بالاميرال بيرد عندما اكتشف القطب الشمالي .

في رجلي حذاء ضخم داخل خفّ « كالوش » من الكاوتشوك وتحت هذين زوجان من الكلسات الصوفية لبستها الواحد فوق الآخر . وعلى جسدي بضعة ارطال من الثياب السميكة ، ثم البدلة ثم المعطف وهو من الفراء ، ثم قبعة الفرو ايضاً وهي تغطي الرأس والاذنين والفم جميعاً ولا يبقى بارزاً من الوجه سوى العينين والانف .

والانف — لعن الله الانوف في صقيع موسكو — هو العضو الفاسد ، الخطر ، الثائر ، المعرض للتلف والهلاك .

لانك تستطيع ان تحمي من الصقيع كل اعضاء جسدك من دون هذا العضو اللعين .

فللقدمين الحذاء ، ولليدين القفازات ، وللرأس وللاذنين القبعة ، ولكن ما حيلتك بالانف ؟

وأقسم لو ان سيرانو دي برجراك قضي عليه ان يعيش في موسكو لكان قضى شهيد انفه !

وخرجت من منزلي حوالى الظهر ولم اكد افتح الباب حتى لسعني الهواء واحسست ان صفعة الصقيع قد احرقت انفي .

ويومها أدركت ان البرد يلسع كالنار . وان الحدود تتلامس كما يقول العلماء . وهكذا تلتقي الشعوب الضاربة في الهمجية ، بالشعوب التي بلغت اسمى درجات الرقي .

تلتقي على الاقل في بعض نواحي الحياة . وقد رأيت بعيني

في اسوج ، أرقى بلاد الدنيا ، رجالاً ونساء يسيرون عراة في الغـابات ، يتريضون ، ربي كما خلقتني . شأنهم في ذلك شأن الهنود الحمر في غابات البرازيل العذراء .

وركبت السيارة فسارت بي تتهادى على الجليد ذات اليمين وذات اليسار .

وفجأة رأيت احد المارة ينحني على الارض ويأخذ بيـده حفنة من الثلج ثم يصفع بها وجه رجل قبالته ، ويعاود هــذه العملية مرات ، فيدلك بالثلج وجه رفيقه ، والرجل المصفوع لا يبدو منه ما يبدو عادة ممن يهاجمهم الناس في الشارع .

فاستوقفت سائقي وسألته ما الخبر . فضحك وقال لي : يا سيدي هو أنف هذا الرجل . قلت : وما بال انفه ؟ قال : لقد رأى الصافع أنف الرجل أبيض فعلم انه مشرف عـلى السقوط فعالجه بالثلج وهو الدواء الوحيد لبعث الحرارة والدم فيه .

قلت : من الذي كان على وشك السقوط ؟

قال : الأنف الابيض وهي دلالة لا تخطىء عـلى انه بدأ يتجمد . وبعد التجمد الغرغرينا .

... ألم اقل لك انك إذا خرجت من منزلك في الصباح فانت لا تضمن ان تعود اليه في المساء وفي جسدك جميع اعضائك ؟

*

كان تطوافي في ذلك النهار عجيباً ، إذ لم تكد السيارة تسير بي في محاذاة « الموسكفا » ، وهو النهر الذي يخترق موسكو ويصب في « الفولغا »، حتى لمحتُ على صفحة النهر المتجمد بضعة رجال مقرفصين لا يأتون بحركة ، وبين الواحد والآخر بضعة أمتار . فسألت في ذلك « اناتولي » سائقي الروسي فقال :

ـ انهم صيادو السمك يا سيدي .

قلت : ننزل اليهم فنرى ما يصنعون .

ونزلت الى النهر بخطى ثابتة . وكنت قد رضتُ نفسي على السير على الماء المتجمد ، واقتربت من احدهم فرأيته قــد جلس على بقايا صفيحة قديمة أكل اطرافها الصدأ ، وهو قد ثقب جليد النهر ، وفتح فيه ثغرة بعرض الكف وأدلى فيها سلكاً دقيقاً في طرفه صنارة . واما طرفه الآخر فقد ربطه الصيـاد بعودٍ أثبته على حافتي الثغرة وجلس في مكانه ساكناً جامداً لا يأتي بحركة ، ويداه غارقتان في جيوب معطفه الضخم المصنوع من اللباد السميك .

وفهمت ان السمك الحبيس تحت الجليد اذا أحس في النهر منفذاً للنور والهواء ، تجمّع حوله فعلق بالصنارة .

ألقيت على الرجل السلام وقلت بروسية ركيكة :

ـ ماذا تفعل ايها الرفيق « تافاريش » ؟

قال ولم يرفع رأسه : ـ أصطاد السمك .

فوقفت انظر اليه ، والى أداة صيده العجيبة في هذا الاطار الغريب . وبعد هنيهة قلت :

ـ هل اصطدت شيئاً ؟

قال : كلا .

وعاد الى جموده . فعيل صبري ، واشتدّ بي البرد ، فعدت أدراجي الى السيارة، ثم لم البث ان أويت الى منزلي .

وانصرفت الى عملي فترة من الوقت ، لكن الصيـاد ظل يشغل فكري ، وكان قد مضى عـلى مروري به نحو ثلاث ساعات ، ولم أقوَ على مقاومة فضولي فخرجت من البيت ثانيـة وعدت الى حيث خلّفت صاحبي ، فاذا هو في مكانه لم يغـير جلسته في كثير أو قليل ، فكأنني خلّفت ورائي تمثـالاً من الجماد .

قلت : تفاريش ! هل اصطدت شيئاً ؟

قال : كلا .

قلت : وماذا تفعل إذن ؟

قال : اصطاد السمك .

قلت : ومتى يأتي السمك ؟

قال : سيأتي السمك !

وكرّرها مراراً : « ريبا بوديت ، ريبا بوديت » .

وأشاح بوجهه عني ، فانصرفت الى غير رجعةٍ هـذه المرة ، وأنا اعجب من رجل لا يهمه متى يأتي السمك ما دام يعتقد انه سيأتي .

استوكهولم خليل تقي الدين

ابعد من المجد!

كان رئيس التحرير قد وجّه الى الاستاذ توفيق يوسف عواد القائم باعمال المفوضية اللبنانية في طهران والاستاذ فؤاد الشايب المدير العام للدعاية والنشر في سوريا رسالتين بغريهما فيهما بالعودة الى ميدان الأدب الرفيع، وهما من فرسانه المجلّين، بعد ان هجراه فترةً هي في حساب المعجبين بهما طويلة.

ويُسعد «الآداب» ان يكون لصوتها صدىً بعيد الغور في نفسيْ الاديبين الصامتين، ويسُرها ان تنشر فيما يلي جوابيهما، وهما فلذتان حيّتان من روائع «أدب الرسائل». وسوف نقدم الى القراء في العدد القادم اولى ثمرات الاستاذ عواد الجديدة، فيما نحن نزجي الى الاستاذ الشايب رغبة مخلصة في ان يستمدّ من الاوضاع التي تعيش فيها بلاده وبلاد العرب جميعاً مادّة حيّة لألوان من أدبه المعبّر العميق، فيفيد بلاده بالأدب كما يفيدها بالمنصب الرفيع الذي يتبوأه.

اخي الكريم

تلقيت كتابك المتوج بـ«دار العلم للملايين»، والموقع بـ«الدكتور سهيل ادريس». ولك ان تقدر احترامي للتاج، وودي واخلاصي للتوقيع. اما ما بينهما من آمال معقودة على «الآداب»، فشيء تعلق بنفسي منه اشياء تطفو وتغور. وربما اختفت دهراً، فخلتها زالت واضمحلت، ثم إذا هي تعود فجأة وتتلع اعناقها، ليس لها سمت ولا ميعاد. قد تطالعني وانا آكل او اشرب، فأغصّ باللقمة والماء القراح، وقد تتراءى لي في الحلم فتقضّ عليّ مضجعي. ولعلّ اشدّ ما يكون وقعها عليّ إذ اكون سائراً في طريقي – كعهدي بك في بيروت بالأمس – فتبغتني في منعطف وتتناولني بيدين جبارتين، على هزالهما، وتخبطني بالحيط خبطاً. وتصيح محملقةً بي: «أنا هنا، يا خائن، فأين انت!»

عجيب امري مع هذه المخلوقة العجيبة! ولو سألتني ان اسميها او اصفها لك لما استطعت. شيء – قلت لك – او اشياء تتجسد حيناً في كتاب جديد يعترضني في واجهة فأقف إزاءه مبهوتاً، ادفع انفي في الزجاج وأودُّ لو اقتحمه لأشم رائحة الحبر بملء رئتي وأقضم الحروف باسناني. وتتجسد حيناً في ورقة خريف تتهاوى على رأسي في نزهة، أو في نجمة شاحبة تطل في افق السماء. وبينما هي تخرج من اسمال فقير يزحف على الحضيض تارة، إذا هي تارة أخرى تتململ في «الفراك» الذي أتزمّل به في بعض اوقاتي؛ حتى لقد ضاقت بي وضقت بها ذات يوم، وانا انحني امام ملك من ملوك الدنيا، فوقفت دوني ودونه حية تفحّ ما يزال لفحُ سمها في وجهي.

تلك هي الآمال المعقودة على «الآداب». او تلك هي رسالة الكاتب. أو ذلك هو مثل الفنان الاعلى. هكذا يسميها الناس، وانت منهم، وبهذه الألقاب يدلون عليها. اما انا فعذرك إذا لم اوفق منذ البداية الى هذه الألفاظ والنعوت. وعذرك، من بعد، اذا صارحتك بانني اكره الأخذ بها.. ترى، أهي، في الاصل، أقصر من ان تطال ما اريد، ام هي الكلمة تلوكها الالسن وتتداولها الاقلام فتفقد طعمها، فهي على الاستعمال بغيّ؟

كل ما اعرفه، يا اخي، انني طلّقت الكتابة منذ زمان، وانني منذ ان طلقتها وكأنني سلخت مني شيئاً كان في وقت من الاوقات كل شيء. اذا قلتُ اللذةَ قصّرتُ، واذا قلت المجد جدّفت، وإذا قلت الهناءة كلها لم أقل شيئاً، لأنه كان أعمق من اللذة كلها، وأبعد من المجد كله، وابقى من الهناءة. وانا اذكر ذلك جيداً.

بل انا اعرف ذلك جيداً، فما بالي أدور وأراوغ؟ كل الظن انني التمس الاعذار بل الاستار لخيانة ارتكبتها وما أزال ارتكبها كل يوم وكل ساعة. دونها خيانة الخليل لخليلته، والجندي لوطنه، والمؤمن المتعبد لربه وخالقه.

كيف لا وهي خيانة النفس!

أجل؛ خائنٌ نفسي انا. اضطررتني، يا اخي، الى قولها بما سقتَ إليّ، وإلى امثالي، من تعنيف، وما ازجيته من استثارة للعودة او بالحريّ التوبة. أفأنت قادر على حملي اليها؟ أتكون «الآداب» خليقة بان تردني الى ضالتي المنشودة او تردها إليّ، فاطوقها من جديد بذراعي واجعل ذراعيها طوقاً في عنقي الى الابد؟ ام تكون قصاراك انك القيت في المياه الراكدة حصاةً وحركت في طمأنينتي توبة كاذبة تنقضي بكلمةٍ حلاوتها من الشفاه وقبلةٍ لا حلاوة لها، وبعدهما اعود الى صحراء الحرمان وجهنمِ الخيانة؟...

طهران — توفيق يوسف عواد

مأساة نفس!

بقلم فؤاد الشايب

كانت رسالتك الاولى دعوة مغرية ، اعطتني من حماستها وشوقها شيئاً كثيراً . واشهد انني منذ اعوام لم اقع على مثل هذا الصدق والقوّة والعزم في رسائل الاخوان والأصدقاء . فقد انطفأت الشعلة الأدبية في بلاد الناطقين بالعربية ، وغدت التوافه والتوابل بضاعة الكتاب والناشرين فانجرفت في التيار تلك الأدمغة الكبيرة نفسها وشوهدت ، جماجم فارغة ، تطفو في الزبد والغثاء . فاين عناصر الدم والفولاذ في كيان هذا الادب المصاب بكساح الاطفال ؟

ولقد رأى المُقعدون امثالي في ما يرون ، حجة لانعزالهم وانكماشهم فحسبوا في عزلتهم التافهة انهم قد نجَوا من التيار ومثلهم مثل من هرب من الدب فوقع في الجب . واي جب !

اما رسالتك الثانية فكانت بقصرها وخطوطها البارقة ، ولهجتها المعنفة ، كدفقة من رشاش تلطمني بها يد قوية . وبالواقع انني ما زلت احلم ... منذ تلوت رسالتك الأولى ، فما كدت استيقظ وامسح رشاش الماء عن وجهي حتى بدأ جبيني يتفصّد عرقاً بارداً فيه رائحة الخجل منك ومن نفسي .

انا آسف يا اخي اذ انام على رسالتيك ، وفيهما من السياط والأبر ما لا ينام على مثله إلاّ كل فاقد الحس مخبول . وهل ارضى لنفسي من ان اعترف بعجزها ؟ ! بل انني لألذُّ هذه الاعترافات احياناً ، كما يلذ اليائس لحناً حزيناً يأتيه من بعيد ، فاذا جاء في صوت يهز كياني وينفخ في طموحي ويقول لي : انت .. ! شعرت بهذه (الأنا) تتلوّن كبعض الحشرات الصغيرة ، يصيبها الدفء وتغريها اجنحة الفراشات السابحة في النور .

انا في حياتي الادبية كجَمَل مقعد ، يعيش على اجترار الرواسب في معدته . وهب انها سبع معِد .. فقد آن لها ان تفرغ . وإن الجمل ليرتقب مصيره : فأس حطاب تهوي على عنقه ، فتفصل الرأس الحاوي عن المعدة الجافة . ذلك هو مصير الجمال المكسورة ولو كانت من سلالة تلك النجُب التي جاز بها الصحراء من العراق الى الشام بطلنا العربي .

.. وفي حياتي العامة .. انا لست سوى حركة تأكل نفسها ، وتعض بانيابها على كبدها وتغرق . قد تغرق فيما اردت ان تسميه « المنصب الرفيع » . ولكنه غرق على كل حال . ولقد كان المنصب إجهازاً على ما تبقى من رسيس الشعلة المنطفئة.

خمسة اعوام وانا اقتطع من جسدي وروحي لألقم هذا الجهاز الرسمي الذي ينتظمني كأي قطعة صغيرة في آلة ضخمة . وفي دورانه المستمر ضيعت قلمي واوراقي ، وأمانيّ . كنت احلم بمجد ادبي لا تدانيه الامجاد والوجاهات السياسية والاجتماعية والمالية ، لانه المجد الانساني الاول ، ولكن الجهد الشاق في عملي اليومي ارخى يدي عن عنان طموحي ، واحالني إلى تفاهة رخيصة ما زالت تتخذ اشكالاً تطوّرية داروينيّة وتمر بحلقات ودرجات حتى غدت كما رأيت انت ، منصباً رفيعاً ! فيا لها من سخرية هيفاء جذورها لا تنمو الا في نجيعي ودوحتها لا تنتشر الا فوق جثتي الميتة .

على انني خلال سبعة اعوام سبقت الخمسة الاخيرة كنت وانا موظف احاول بمناعة ضارية كمناعة هرّة بريّة ، ان الفّ ذاتي بالخمول وارفعها فوق تكالب الموظفين على الرتب والدرجات ، لأبقى في نجوة عن الانخراط في جهاز الدولة ، قطعةً صغيرة تدور على نفسها ، وتنسحق على محورها ، فاظفر بذلك الفراغ الرحب مطاراً لأفكاري ، وميناء لزورقي ، وفسحة من السماء زرقاء استحم بين دوائرها كلما ألقيت اليها بحصاي .

ثم غلبتُ على امري وكلِبْت .. لأن مَنْ هم ورائي عضّوا عقبي .. ورأيت الاقدام تدوسني وتمرّ ...

هبطت من جنتي ، وانحشرت في البشرية الغابيّة . حملت هراوتي واردت ان اقتل خوفاً من أُقتل . واستغلظت آدميتي الجديدة ، وهي آدمية سكان الكهوف ، وحاولت انفلاتاً . على انني عندما أجلت الطرف حولي ، لم أر سوى كل صدر كثّ الشعر وكل ساعدين غوريليّين ، وهراوات ضخمة . ولم اسمع كلمة دهشة او دعوة الى صلح ... اللهم الا من افواه حطمت الهراوات اشداقها ، وخرج اصحابها من المعركة منتوفي الشعر.

... تلك مرحلة هستيرية مررت بها . ومرت بلادي وبلادك وبلاد الله اجمع . ولا ادري اي وحشية اثارتها في النفوس رائحة الشواء البشري من هيروشيما .

يأس من الاصلاح والصلاح . قرَفٌ من الدعوات الى عالم جديد . هزءٌ بالمثاليات ودعاتها . لقد خرج العالم مسعوراً من حروب التقتيل والتدمير . ومن خرج سالماً برأسه ، يود لو

تطاح دونه ملايين الرؤوس . ولقد اعربت تلك المانفشستيّة السارتريّة ، عن حقائق القرف والهزء والاستهتار والانغماس في سكرة عارمة ، هي سكرة المحكوم بالاشغال الشاقة عشرين عاماً ، يغادر الحبس ذات مساء فلا يطيب له الا ان يعوج على تلك الخمارة القديمة التي ارتكب فيها جريمته الاولى .

اخي

إخالني ماضياً في بثك نجواي وهواجسي . ولكنني اقف وامسك باذيال نقمتي لاستوقفها . اذ لا يحق لي باي لغة من لغات الادب والتاريخ وباي نظرة من نظرات الموضوعية والذاتية ان أقسو بالحكم على الناس في بلادي . فهناك عقدة لا بدّ من جلائها في نفسي عندما أحللها في وسطها ، وثمة وجه ثانٍ للصورة التي عرفتها عني منذ دقائق ، يجب ان تعرفه . ثم أرجو ألا تقذفني بظنك انني خرجت الآن من صدق الشعور إلى سفسطة المنطق ، لأخلق لنفسي الحجج والمبررات ، او أتكيّس بنوع من الايهام لاخدع نفسي والناس معاً . فحديثي لا يزال حديث شعور صادق فأحسن الظن بي واسمع :

لست من جيل مادي . لقد وعيت واقراني الحياة عام ١٩٣٠ وكان زمن نضال رهيب وتأجج وطني شامل . كان الاستقلال والحرية كل ما ننشد ، وكان العالم ينتهي حيث تنتهي سوريا بحدودها . كل شيء ينبض بكره الاجنبي وبالحقد عليه ، فلا مشاريع عمرانية او اقتصادية ، او صناعية ، ولا رجاء في غد لا يحلو فيه الأجنبي او يندثر . والحياة الأدبية ، كانت زاهرة ، لان الادب في وسط لا فعّالية فيه ، عوضٌ عن الفعالية ، وشيء من الهروب المثالي من واقع مظلم الى عالم افضل!

كان الأدب — اقول — غوضاً لا اصلاً ، وألهيةً عابرة لا شغلاً فكرياً . فاذا استطاع الأديب أن يشترك في مظاهرة ، أو يضرب حجراً ، أو يجأر بصوت غليظ ناقم ، أو يقذف بكلمة قاهرة ، نفّس عن كبته ، وأعرب عن ألمه وأمله ، باكثر مما يفعل في مقال أو قصيدة أو قصة .

وكان الاستقلال — والحرب قد انتهت — دعوة عامة إلى العمل ، والجد ، والحركة ، والتعويض عما فات ، واللحاق بموكب المدنية . لقد أفلت العملاق من القمقم ، وراح يملأ الأرض دوياً . لا بدّ أن يسير بساعة ما اجتازه الآخرون بشهور وأعوام ، وإلا ظلّ في مؤخرة القافلة عبداً ذليلاً ، بديلاً عن عبد أسير . وان يكن للأسر حجّته ... فما حجة الذل ؟ !

وانتشرت بلادي في أربعة الآفاق ، تنشىء وتبني وتنطلق . ولقد شادت في سبعة أعوام ما لم تستطع أن تشيده طوال أربعة قرون من حكم عثماني وربع قرن من عهد انتدابي . وطاب لها الظفر وأدركت أن الخطى وحدها لا تدنيها من الغاية، فلا بدّ أن تنطلق عدواً وقفزاً ، فراحت تتخطى الحواجز ، وتحرق الأشواك ، وتفجر الرواسي ، وتقلب القيم والتقاليد .

وبينما هي تبني ، وبينما يغني كل حجر في البناء اغنية الحرية والسعادة ، وجدت بلادي نفسها امام خطر جديد . فلا بدّ لها ان تبني ولا بدّ ان تحمي ما تبني . فاضطربت سعادتها ، والتوت حريتها، وها هو الخطر يقرع اسوارها وهي في المقدمة وخط النار ، فيجب ان تحيط كل حجر بسور ، وتحمي كل شبر من ارضها بدرع ، وإلا فلمن يعمل هؤلاء البناؤون ، ولمن يرفعون عمد النهضة ؟ !

الا ويلنا من البرابرة الجدد !

لقد رمانا المستعمرون ، وتجار السلاح بالصهيونية ، وغرسوها شوكة في جنبنا ، لأن حريتنا المشرقة توشك ان تهدد حياة الاستعمار برفع راية السلام بين المتخاصمين ، اذ عندما نتحرر ففيمَ يتخاصمون ، وحول اي ارض يتكالبون ؟ ! ان الفريسة خلقت وحدها الفرسان ، وعندما تنجو بنفسها . . فلا فروسيّة !

نحن كما ترى — في غمار حركة عارمة صاخبة ، قوامها المادّة . فلا بدّ ان نكون اغنياء ، ولا بدّ ان نكون اقوياء ، وكلا الغنى ، والقوة دعوة الى كل ما هو مادي ، حقيقي ملموس نستطيع ان تطمئن اليه . واذ ينظر الأديب لأول وهلة الى هذه الحركة الصاخبة ، نظرة ريبة وحنق ، لايلبث ان ينساق في المثالية التي من اجلها تحشد الثروات وتجند القوى ، واذا ما حشدت هذه القوى فمن العار ان يتخلف فئة من الناس ، ويعتصموا بابراجهم ، ويمتنعوا عن دفاع وراء خطوطه كل ما يملكون وما يحبون ، من قيم مادية ومعنوية !

... وتمر بي ايام عصيبة ، وانا مكثور بعملي اليومي ، فيقول لي صديق : الا تصنع شيئاً من الأدب ؟ ! فألوي شفتي ساخراً واصيح : اي ادب يا اخي ! الا ترى اننا نبني عمارات وحصوناً دونها ، فلكل حجر فيها قصة ، ولكل ذرة تراب قصيدة ! اليس لأزيز هذه الطائرة ترعد في الفضاء ، موسيقا رائعة ، تبعث في النفس كل الرضى والراحة ؟ ! وهذا الجيش

بوجوهه السمر الشابّة .. اليس مروره امام عينيك فكرة لملحمة جديدة ، لا مثيل لها في تاريخ ادبي ، وبلادي ؟! واي صورة جميلة في بلادي الحبيبة ، لا اقرنها باليد التي ترمي الويل ، واليد التي تصده ، باليد التي تعفر الجمال ، واليد التي تصونه !

أخي سهيل

قد تعذرني اذا رحت اسهب ، ووجدت نفسي مسوقاً لأن احكي لك بسفور سيرة شعب ومأساته . وقد تفهم معي نفسية رجل مثلي نشأ شبابه على شيئين اثنين عندما بدأ قلبه الأبيض يخفق منفعلاً بالحياة حوله : حب لامرتين وامثاله ، وكره السنغال واشباههم !

قد يكون الأدب هوايتي ، وهواي . . وهبتي ، ولكن من انا من الأنس لأنسى الليالي التي روّعت قلبي الصغير ببريق التفجير ، وهدير التخريب ! من انا لأنسى مشهد الحمير تحمل ذات صباح ، الى ساحة المدينة نخبـة من مجاهدي بلادي ، فيُرمَون على الأرض اشلاء ممزقة دامية ، ليعتبر بها كل من تحدثه نفسه بثورة او تمرد !

ثم وثم من انا لأنسى صباحاً اغارت فيه طائرات البرابرة الجدد على المدينة ، وراحت ترمي قذائفها ، فأرى جدار جاري يتهدّم ، ويبدو لي من فجوته سرير جارتي الصبية وقد مزّقتها الشظايا في بياض أغطيتها ، وما كادت تستيقظ ...

من انا لأنسى الليالي السود ورائي ... والليالي السود أمامي! وهل أرى في يقظتي ومنامي سوى هؤلاء الأقزام من بابل الجديدة يبنون حصوناً ، ويصنعون سلاحاً ، ولا ينفكون يذهبون ويجيئون في دوار من حماسة جنون ، وشهوة شيطان . عيونهم الحمر على حدودي ، وأرضي وعاصمتي ،وبيتي وأولادي ، وأوراقي ومذكراتي ، وصور ذكرياتي ، وأرواح آبائي واجدادي ، وكل من أحب في هذه الدنيا !

من أنا لأنكر في وجه بائع الحليب من فلسطين يمر أمام بيتي كل صباح ، شبح مستقبلي ومستقبل وطني ؟! يمر بائع الحليب من فلسطين أمام بيتي ليبيعني ما فاض عن حاجته من مواد الاغاثة .. وقد كان موظفاً مثلي في فلسطين ، وكان له مستقبل في إحدى مؤسسات بلاده . إنه يبيعني الحليب ليشتري خبزاً لثلاثة أطفال تركهم منذ يومين تحت الخيام المنهارة ، بلا خبز ولا أمل . فكم هي المسافة بالأعوام – قل لي – بين مصير أولادي ومصير أولاده ؟!

ألم تكن الغسّالة التي تأتيني كل أسبوع لتنظف ثيابي ، ربة بيت محترم في يافا قبل أعوام ؟ ان ابنتها يلتهمها السل في أحد المصحات وما كادت تبلغ الخامسة عشرة من سنيها ...! وابنتي أنا – إقبال – ان لها من العمر عشرة أعوام . فهل تغدو حبيسة أحد المصحات بعد خمسة أعوام ؟! في أحضان من وفي أي جهنم من بلاد الله !

هل تأتيني أنت لاجئاً ، ذات يوم تحمل أمتعتك على ظهرك ، ولا تعرف أين تغمد قلمك . أفي نحرك فتتخلص من الحياة . أم في أي عمل حقير تبقى به على حياتك الطويلة التافهة !

هل تأتيني أنت ... أو أنني أنا الذي أصلك قبل ، مشياً على الأقدام من دمشق إلى بيروت ، وقد دفنت أحد أولادي على قارعة الطريق ، ولا أعلم في أي منصعة أؤوي البنين وأم البنين ! فهل في أزقة بيروت وأرصفتها مكان بعد للاجئين جدد؟ وماذا أنت فاعل باحمالي ، وأوجاعي ، وجراحي ... وهؤلاء الذين علقوا بكبدي كأختام من رصاص ؟!

ألا تفضل على هذا المصير ، أن تموت في معركة ، وتقتل أولادك من قبل ، إذا لم يكونوا صالحين وقوداً للحرب المقدسة؟

أيها الأخ الكريم ! قد أكون مريضاً – كما قد ترى – والحق انني مريض ، ولا أستطيع أن أبرأ من هذه اللوثة التي رماني بها شبوب النار حولي وباذيالي ، بينما كنت أظن أنني في أمن وسلام !

أواه ! هات لي الأمن والسلامة ، والفراغ ، أعطك ما شئت من الأدب وفنونه . أوَ لم يكن ازدهار الادب عبر التاريخ ، في أجواء الطمأنينة والرخاء ؟ أوَ لم تكن حماية الدول والملوك والعظماء ، للأدباء ورجال الفن ، نوعاً من سرادق الطمأنينة تضرب أوتاره حول حياتهم ليستطيعوا أن ينقطعوا لادبهم وفنهم ؟!

بلى ، أن ثمة عبقريات تغذت بالنار والغبار . ولكن ليس في الاتون يصب الحبر على الورق ، ولم يكن للكتّاب بد من الارتفاع إلى قمة الرابية حيث الظل والهدوء ، بعيداً عن النار ، ولو لأمد قصير . أي لا بدّ من الابتعاد عن الحدَث مسافة زمنية ومكانيّة ، تتيح لنا النظر اليه والاحاطة بحقيقته . أما الحدَث نفسُه في فورة تفاعُله ، فهو يشغل ويحجب ، ولا يمكن تعريفه في فورته . وإن يستطع المؤرخون والكتاب السياسيون أن يماشوا الاحداث ويكاتبوها في اصطراعها ، فان

ما ينتجونه ليس بالادب مهما بالغنا في إكرامهم . والاديب لا يأتي حدثاً بأدبه إلا على بعد منه في الزمان والمكان ، لذلك عندما يؤرخ الاديب يضع أدباً كبيراً . وان حديث هذا ، ليطول !

أفترى ؟ ألقِ الآن نظرة عامة على هذه الرسالة ، ترَ في كل ما ذكرت لك عن حياتي ، وحياة بلادي ، وحياة الادب حجة مبررة لهزيمتي ، وقعودي ، وانطفاء طموحي الادبي . هل ترى غير ذلك . ودلّ تقبل بها حجة ؟ وهل أقبل بها نفسي ؟

انني أفلت من النار أحياناً ، ويحملني انساني الجني إلى قمم الروابي الخضر ، حيث العناقيد الخالدة ، تنام على صحون من أوراق الورد ، فيأمر الحصى الفضية ان تطمئن نفسها لفراشي ، ويقول للأنداء ان ترصع جبيني ... وفي جو من شفوف العطر تموّجها النسائم ، يُدخِل عليّ ذكريات حبي وصباي ، يرفلن بكل أرجواني من أمانيّ ويقول لي : اقرأ ... واذ بالدنيا كلّها كتاب مفتوح على دفتين إحداهما في المشرق ، والثانية في المغرب ، وليس وراءَهما سوى الهباء والفراغ ، والهاوية !

وإنساني الجني هذا ، يعيش منذ الازل أسيراً في عروقي ، تكبله آدميتي بكل ما لديه من حدود وقيود . وهو عندما يتحرر ، ولا ادري كيف ومتى ، فليس له هم سوى ان يحملني الى تلك الآفاق التَزَحية البعيدة التي كان يُسَرِّحُ فيها وَعْلُ شبابي المضطرب ، واولى نظراتي الى الدنيا الجميلة ... يوم كانت جدائل الصبايا المدلاة على نهودهن تنظم لي الشعر ، وتسكب في قلبي الخمر والعطر . يوم كنت ابكي على رسائل الحب وانا اكتبها ، ثم ارسلها مبتلّة لتفصح الدموع حيث تعجز الكلمات ، فتعلّمت كيف ينبع الادب من القلب ، وكيف يتفجر الفكر من الشعور . يوم كنت استيقظ بعد نصف الليل هارباً من فراشي لاستقلّ أشباح الظلام فوق الصخور الموحشة ، واسمع نداءات الليل ، ووسوسات الارواح الغريبة ، فتعلمت كيف تنبعث الاصوات من السكون ، وكيف تنحدر الاخيلة المجنحة من الغيب .

... يوم كنت استقبل مشرق الشمس ساهراً منذ ثلاث ليال ، فما إن تمتلىء عيني من الجبال والأودية ، والحراج ، والسهول تنتفض للقاء النور ، حتى أُغفي على حجر وأُسلم احلامي لنشوة الرقاد .

فمن يردّ لقلبي هواه ، ولفكري صفاه ، ولنفسي تلك الطمأنينة التي تحررها مني أفاعي الهلع والقلق ؟!

اعطني قوة (لاون) الاثيني لأمزق هذه الثعابين . اعطني قوة الآلهة ! وماذا بيدك انت لي ؟

ابوسع جرعة من الأدب ان تطفىء حُمّاي ؟ وهب انها فعلتْ فكيف اصبر على ارتوائي والناس يتلوون ظمأ حولي ؟ كيف اخون هذه الحُمّى وهي بحاجة إلى جلدي ولحمي وعظامي ! كيف اهرب مع الجني ، واترك الدماء تولول في عروقي ؟!

تقول لي اكتب . وها انا ذا قد فعلت . ألا ترى كيف ارتفع وأهبط ، من شاهق الرابية إلى جحيم السعير بين لمحة واخرى ؟ تلك هي نفسي . وقد بسطتها بلا تصنع ولا كلفة . فما حاولت منطقاً ولا انشاءً . بل نثرت افكاري المضطربة كما تواردت على قلمي مع الحبر . وانني لأقرؤها ثانية فألمس اضطرابي صوراً ، صوراً .

اما (القصة) فلا أقربها . انها حرم لن ادخله الا وحدي ، ومن حملتهم على كتفي معي ، لأعيش معهم منقطعاً . وعليّ ان اجالسهم في مطعمي ، ومشربي ، ومهجعي ، بعيداً عن كل دخيل من هواجسي ، ومحيطي ، حتى تأنس بي ارواحهم ، ويدنيني اخلاصي لهم من حقائقهم ، حتى ولو كان مثل دنو الخصيان من حَرَم السلطان . وفيما عدا ذلك لا استطيع إلا ان اكون مزوِّراً ، وقاصاً تاجراً . فهات لي الفراغ وامنحني متعة الانقطاع والاخلاص .

انني على يقين – مهما تعاورتني شكوكي – من انني لن اذهب بعيداً مع انساني الجني ، ولو رشّ كل دروبي بالعطر ، ورسم لي الآفاق بريشة من سحر . انني اهوى هذا الاتون المضطرم ، ومَعَادي ابداً إلى تلك النار التي يستعر فيها الالوف من ابناء جلدتي .

يقولون انها نار مقدّسة ولماذا لا ؟ فهي ، اما ان تحيل المحترقين الى رماد ، او الى سيوفٍ لا تلتوي ، وحديد لا يجرؤ عليه الصدأ .

وفي كلتا الحالتين فان البرابرة الجدد لن يجدوا فيها ارضاً تحت الشمس .

والى اللقاء .

دمشق — **فؤاد الشايب**

المرأة في حياة شاعر

بقلم انور المعداوي

عندما نتحدث عن المرأة في حياة هذا الشاعر المصري، تعترض انظارنا لافتة من تلك اللافتات «المضيئة» التي تنتثر على جوانب الحياة وكأنها تقول للدارسين: من هنا الطريق.. هذه اللافتة المضيئة يحملها بيتان من الشعر قد اختتمت بهما اول قصيدة من ديوان «الشوق العائد» عنوانها «سؤال وجواب»:

فقالت ما حياتك قلت حلم من الأشواق أوثر أن أطيله
حياتي قصة بدأت بكأس لها غنت، وامرأة جميلة

بيتان من الشعر يلخصان قصة العمر، ويقدمان هذا التلخيص تقديماً اميناً صادقاً لا كذب فيه .. نعم، لقد كانت المرأة هي البداية الحقيقية لتلك القصة إذا وُزنت القصص بما فيها من فصول باسمة وصفحات مشرقة، وان علي طه لواحد ممن يؤرخون الحياة من نقطة بدء شعورية عمادها تلك الفصول والصفحات.

لقد خلت حياته في اول العهد بالشباب من المرأة؛ نعني انها خلت من الجسد الانثوي حتى بدت في رؤية العين وإحساس القلب وهي حيرة باقية، وهي قلق دائم، وهي فراغ متصل اشبه بفراغ الصحراء التي لا ظل فيها ولا ماء .. ان حياة القفر واليباب يجب ان تسقط من الحساب، ولهذا اسقط علي طه فترة الشباب الاولى من حساب العمر وكأنها لم تكن في عداد السنين والايام! كانت «هزات» القلق في تلك الفترة هي الهزات الوحيدة التي سجلها «مرصد» الشعور وهو يشير الى «ظاهرة» نفسية، ويحدد مركز «الزلزلة» تحديداً دقيقاً لا انحراف فيه .. هذه الظاهرة النفسية ونعني بها «القلق» حين يرد الى اسبابه ودواعيه، قد عرضنا لها في الصفحة الحادية عشرة بعد المائة من كتاب «النماذج» ونحن ندرس شخصية ابي العلاء في ضوء تفسير جديد؛ هناك حيث انتهينا من الطواف حول حقيقته الفكرية والانسانية الى هذا الرأي الاخير:

«هذا القلق هو الظاهرة الكبرى في حياة أبي العلاء، فاذا اراد الدراسون ان يقنعوا آثاره ليصلوا الى أسبابه فليس امامهم غير حقيقة واحدة هي ان الذبذبة الفكرية ما هي الا انعكاس مباشر للذبذبة النفسية؛ وهذه هي المرحلة الثانية التي تدفع بهم الى الباب الأخير ليفتح على مصراعيه ... ولنا بعد ذلك ان نسأل: ما هو المفتاح الاصيل الذي نعالج به هذا الباب لنضع أيدينا على سر تلك الذبذبة التي وجهت العقلية العلائية هذه الوجهة التي لا تطمئن الى رأي ولا تستقر على حال؟ أهو العمى؟ أهو تلك الآفة التي أصيب بها وحرمته نعمة الضياء؟ ان العمى قد يبعث على الألم، وقد يدفع الى الشكوى، وقد يحض على التشاؤم وبغض الحياة .. ولكن اذا مال الباحثون الى الاخذ بهذا التفسير الذي يلتمس في الآفة الجسمية سر النظرة الى الحياة فهو تفسير غير مقبول، فما اكثر المكفوفين الذين امتلأت حياتهم بالنور، وامتلأت نفوسهم بالرضى، ونظروا الى الدنيا من خلال منظار ابيض يحيل الدمعة في عيونهم فرحة وابتسامة. وما اكثر المبصرين الذين نظروا الى الدنيا من خلال منظار اسود فقضوا كل ايام الحياة وهم يتخبطون في الظلام!

ليست الآفة الجسمية اذن هي مصدر هذا القلق الذي أقض مضاجع الفكر في شخصية ابي العلاء، ولكنه فيما نعتقد شيء آخر نفسر في ضوئه المشكلة دون ان نحمل النفسية العلائية ما لا تطيق .. انك لو رحت تبحث عن سر القلق والاطمئنان في كل شخصية انسانية لما وجدته ممثلاً الا في كلمتين هما: فراغ الحياة وامتلاء الحياة! نعم وهذا هو المفتاح؛ المفتاح النفسي البسيط الذي لا غموض فيه ولا تعقيد .. ولو فرغت الحياة عند المبصر وغير المبصر لغدت في رأي الشعور وهي مأساة تحفل باللوعة والالم والعذاب، ولغدا الفكر الثابت المستقر وهو نهب لزلزلة العواصف والاعاصير. ولو امتلأت الحياة عند المبصر وغير المبصر لأصبحت في رأي الشعور أملاً كبيراً تتبخر تحت اشعته المتوهجة قطرات الهم والاسى وتفر اشباح الحرمان! الفراغ في حياة ابي العلاء ولا شيء غير الفراغ؛ وعلى هديه نلتمس العلة الاصيلة لتلك الذبذبة النفسية ممثلة في هذه الذبذبة الفكرية.. ولنا بعد ذلك ان نسأل: اي لون من ألوان الفراغ كان يشكو ابو العلاء؟ انها ثلاثة ألوان: فراغ النفس، وفراغ القلب، وفراغ الجسد، ولك ان تردها جميعاً الى الحرمان، فنفس ابي العلاء كانت تشكو الحرمان من العطف، وقلب ابي العلاء كان يشكو الحرمان من العاطفة، وجسد ابي العلاء كان يشكو الحرمان من المرأة.. وقف طويلاً عند هذا الحرمان الاخير فهو مصدر الحرمان كله، ومركز الفراغ كله، وعلة هذا القلق الذي عصف بشعور الرجل وفكره على حد سواء!

هذا الجدب العاطفي في القلب الانساني، وهذا الكبت الطويل العنيف للغريزة الجنسية، هما في رأينا – ولا شيء غيرهما – مركبا النقص الخطيران في شخصية ابي العلاء، ولا حاجة بنا الى الحديث عن مركب النقص واثره في توجيه المشاعر والافكار»!

«هكذا كان علي محمود طه في حياته، وهكذا كان في شعره: لاتفرقة بين تذوّق اللذة وبين تذوّق الجمال، ولا فصل بينهما في عالم الشعور او في كل عالم منظور ... لقد عشق في المرأة صورة الجسد «اللذيذ» وعشق في الجسد اللذيذ صورة المعنى «الجميل»، ومن هنا امتزج الاحساسان في نفسه، حتى لقد أصبحا وحدة متماسكة ليس الى تجزئتها من سبيل! إن فيه «الرجل» الذي أقبل على المادة، والى جانبه «الشاعر» الذي أقبل على الروح، وهما لونان من الحب بينهما من القرب ما يلغي الفواصل ولا يعترف بالأبعاد!»

هنا في هذه الكلمات ، ومن وراء هذا التحليل النفسي لظاهرة القلق في حياة ابي العلاء ، تبدو الحقيقة الكبرى التي تقدم اليك شخصية علي طه القلقة الحائرة ، يوم ان خلت حياته من الجسد الانثوي فخلت بذلك من كل سكينة واستقرار .. وهنا في هذه الكلمات ، تستطيع ان تفسر اتجاه الخطوط في تلك الصورة التعبيرية التي رسمناها لتلك الحياة ونحن نقول : لقد كانت هزات القلق في تلك الفترة هي الهزات الوحيدة التي سجلها مرصد الشعور وهو يشير الى ظاهرة نفسية ، ويحدد مركز الزلزلة تحديداً دقيقاً لا انحراف فيه !

لم يكن للجسد الأنثوي في فترة شبابه الأولى وجود ، او قل انه الوجود الذي يشبه العدم في حساب الظمأ المشبوب ؛ الظمأ الذي لم تكن لتطفيء اواره قطرة من الماء او قطرات .. لقد كان الشباب المصريون في الربع الاول من القرن العشرين ومنهم علي طه ، يغلب عليهم الحياء والانطواء والميل الى العزلة والولع بالخيال ، وبهذه الاسلحة التي لا تقطع ولا تدفع كانوا يواجهون الواقع في معركة الحياة . وما اكثر ما كان الواقع يصدمهم بمرارته ويلفح شعورهم بقسوته ، فيرتدون عقب كل جولة من جولات النضال ونفوسهم مثخنة بالجراح .. كان الخيال يحول بين نوازعهم الوقادة وبين متعة الانطلاق ، وكان الانطواء يحول بين عواطفهم الجياشة وبين نعمة التحرر ، وكانت العزلة تحول بين رغائبهم الوثابة وبين فرصة الظهور ، ومن هنا وجد ذلك المزاج القاتم وذلك الطبع الحزين ، نتيجة لتلك الحياة التي كانت تحيط بهم وهي خالية من افراح النفس ومباهج الروح واعياد الشعور ! واذا اردت ان تبحث عن مقومات ذلك المزاج المنقبض فارجع الى البيئة المعنوية فهي المسؤولة عن صنع ذلك المزاج .. لقد كانت بيئة الشباب في محيط الاسرة والمدرسة والمجتمع تبعث على الانطواء وتدعو الى التكبيل بكل قيد من القيود ؛ فالتقاليد الموروثة تفرض فرضاً على الشباب بما فيها من نظم عتيقة واساليب صارمة ، وكل عبث بتلك التقاليد فهو عبث بقواعد الشريعة والعرف والآداب والاذواق ، حتى اذا خطر للشباب شيء من التجديد في وسائل العيش ومظاهر الزي وطرائق التفكير ، كان ذلك في رأي القائمين على امرهم خروجاً على النظام وثورة على الاحتشام ، واندفاعاً الى هاوية الغي والفساد وانحرافاً عن معاني الفضيلة ومناهج الاخلاق !

من هنا انعدم الاتصال الكامل بين الرجل والمرأة ، حين وقفت التقاليد الموروثة وبقايا الحجاب الصفيق سداً هائلا وجداراً منيعاً بين الشباب من الجنسين .. وحرمان البيئة من المرأة وهي بهجة الحياة الكبرى ونبعها الدافق باللذة والجمال والحب ، كان له ابعد الاثر في خلق الرومانسية الوجودية والفنية في حياة علي طه الاولى وإنتاجه الاول ، وكانت مصدراً عميقاً من مصادر القلق الدفين والأسى الملح والشكاة التي تعلن عن نفسها في كثير من شعر ديوانه « الملاح التائه » ! كل ما كان يستطيعه الشباب في ذلك الحين هو ذلك الحب الذي يختلس الموعد « البريء » في غفلة من اعين الرقباء ، ثم لا يتطلع من وراء ذلك الى ما يتطلع اليه حب الشباب « المتحررين » في هذه الايام .. لهذا كله تذوق شباب الامس طعم السهد ، وعرفوا حرقة الوجد ، وألفت حياتهم حديث الدموع ، وبخاصة اولئك الذين بعدوا بحكم النشأة كشاعرنا عن حياة المدن الكبرى وعاشوا في ربوع الريف ؛ هناك حيث كان التحرر من اسر التقاليد ميسوراً في « بعض » الاحيان ، وهنا حيث وقف الشباب من تلك التقاليد موقف السجين من صلابة القضبان !

في ذلك الجو الريفي نشأ علي طه خاضعاً لعاداته مكبلا بقيوده فلم يعرف المرأة عن طريق آخر غير هذا الطريق الذي وصفناه .. كان حبه هو ذلك الحب « الروحي » الذي يقتصر في الاعم الاغلب على امرأة واحدة ، ثم لا يكاد يتعداها الى غيرها من النساء ! وكان هذا من اثر البيئة « المتحفظة » التي تضيق امام تحفظها سبل التعدد والاكثار .. هكذا كان حبه ، ومثل هذا اللون من الحب تطالعك منه اللهفة كما يطالعك العذاب ، ومصدر الشعورين شعور ثالث هو الاشفاق .. ان المحب الذي لا يعرف غير امرأة واحدة اشبه بالرجل الذي لا يملك غير حجرة واحدة ، هي بالنسبة اليه كل الملجأ او كل الملاذ ؛ فاذا فقدها فقد معها الامل في العثور على مأوى جديد ، يقيه ذل الشعور بانه منبوذ طريد ! من هنا تنبت اللهفة على الشيء المملوك وليس في الحوزة سواه ، حين يخطر في الظن انه عرضة للضياع وان الحرص عليه لا ينجيه من قدر مكتوب .. ومن هنا ايضاً ينبع العذاب ومبعث الشعورين كما قلنا هو الاشفاق ! وما هكذا تجد الحب « الجسدي » الذي يتخطى مرحلة « التوحيد » الى تلك المرحلة الاخرى التي يلوذ فيها باكثر من شريك .. هذا الحب الجسدي « المشرك » قلما تعثر فيه على المحب الذي يلوعه الهجر حين يجيء في اعقابه الحرمان ، لان المائدة عنده لا تقتصر على الصنف

الواحد حتى يشفق من الجوع ، او لان البيت عنده لا يحوي الحجرة الواحدة حتى يشفق من التشرد والهوان !

لقد كان علي طه في حبه الروحي الاول مثال الرجل الذي لم يلق على المائدة غير صنف واحد من الطعام ، او الرجل الذي لم يكن له من مأوى في الحياة غير حجرة واحدة . وكان في حبه الجسدي الاخير مثال الرجل الذي جلس الى المائدة الحافلة او الرجل الذي تنقل في البيت الكبير بين شتى الحجرات .. عذاب ولهفة وإشفاق تطوى على صورها صفحة وتفتح صفحة ، وفي الصفحة المفتوحة صور اخرى فيها الهدوء للحس الفائر والسكينة للفكر القلق والحرية للشعور المكبوت ! صفحتان او قل انهما مرحلتان مرت الاولى وكأن لم يكن للمرأة فيها وجود لانها كانت اشبه بطيف من الاطياف التي تعز على التجربة الحسية وإن بصرت بها العيون . وانقضت الثانية والمرأة فيها هي الساحة الكبرى التي تنطلق من ارجائها تجارب الحس والنفس وتنبعث من اعماقها فورة الشعور بالدنيا على اوسع نطاق ! وتعال بعد ذلك نستعرض في تلك المرحلة الاولى بعض المشاهد من ذلك الحب الروحي اليائس ، يوم ان كانت المرأة طيفاً يلمح ولا يلمس او املا يرتجى ولا ينال ، وها هو شاعرنا في الصفحة السبعين بعد المائة من « الملاح التائه » ينتظر طيفه الذي لم يكن يجرؤ على الظهور في وضح النهار :

طال انتظارك في الظلام ولم تزل عيناي ترقب كل طيف عابر
ويطير سمعي صوب كل مرنة في الافق تخفق عن جناحي طائر
وترف روحي فوق انفاس الربى فلعلها نفس الحبيب الزائر
ويخف قلبي إثر كل شعاعة في الليل تومض عن شهاب غائر
فاملي من لمحات ثغرك بارقاً ولعله وضح الجبين الناضر
ليل من الاوهام طال سهاده بين الجوى المضني وهجس الخاطر
حتى اذا هتفت بمقدمك المنى وأصخت استرعي انتباهة حائر
ومضت تكذبني الظنون فأنثني متسمعاً دقات قلبي الثائر
اقبلت بالبسمات تملأ خاطري سحراً واملأ من جمالك ناظري

*

بدلت من عطف عليك ورقة بحنين مهجور وقسوة هاجر
وكأنني ما كنت إلفك في الصبا يوماً ولا كنت الحياة لشاعري

هنا اللهفة التي تترقب الحبيب القادم وهي في قبضة الشكوك والاوهام ، وهنا اللوعة التي تنظر الى اللقاء العابر وكأنه حلم من الاحلام ، وهنا الحيرة التي تعقب الوداع وتشفق من المستقبل وهو رهين الغد المجهول .. هنا هذه الهزات العنيفة التي تتعرض لها النفس وهي تحرص على الشيء الوحيد الذي تملكه وتخشى ان يضيع ، حتى اذا ضاع اشعرتها مرارة الفقد بانها لم تملك من قبل شيئاً وبان الحياة منذ بدئها متصلة الفراغ ! شعور طبيعي عند اصحاب الهوى الروحي الذي يقتصر على امرأة واحدة ؛ عند هؤلاء الذين يملكون النزر اليسير يبدو مع العوز انه كثير ، حتى اذا سلبوه صحوا من وهم الخيال على حقيقة الواقع ، وادركوا انهم كانوا على مدار الزمن فقراء ... حقيقة نفسية تكمن وراء هذه الابيات التي نقتطفها من الصفحة السادسة والخمسين من « الملاح التائه » ؛ هناك حيث يخاطب الشاعر قلبه الجريح :

وصحوت من وهم ومن خبل فاذا جراحك كاهن دم
لجت عليك مرارة الفشل ومشى بجز وتينك الألم !
والارض ضاق فضاؤها الرحب وخلت فلا اهل ولا سكن
حال الهوى وتفرق الصحب وبقيت وحدك انت والزمن!
وصرخت حين اجنك الليل متمرداً تجتاحك النار
وبدا صراعك انت والعقل ولأننا بحر وإعصار !

هذه هي الصحوة ؛ صحوة القلب من نضال طويل الامد في سبيل حب يائس لا امل فيه . قل انها صحوة المهزوم حين نتمثل علي طه في صورة المحارب الذي دخل المعركة ليقتحم حصناً من الحصون ؛ حصناً كم تذرع ليصل اليه بالصبر وكم تعلق بالوهم وكم تشبث بالرجاء ، حتى اذا تكسرت اسلحته بين يديه صحا على وخز الجراح وادرك ان الامنية تعز على الدارعين ! قل انها صحوة المهزوم على هذا الاساس وقل على اساس آخر انها صحوة المخمور ، حين يتخلص من أثر الكأس التي لعبت برأسه وخدرت إحساسه وخدعت رؤية العين حيال الواقع المشهود ... ما كان اشبه علي طه بذلك الذي شرب فثمل فتعددت امام ناظريه صور المشاهد والمرئيات : يكون الشيء واحداً فيظنه شيئين ، ويكون الشخص واحداً فيخاله شخصين ، وتكون الحانة خاوية فاذا هي في لقطة البصر الواهم مزدحمة بالسمار ! كانت حاله هي حال من تجرع كؤوس الخمر مترعة حتى ذهل عن حقيقة نفسه وحقيقة وجوده ، فلما أفاق ، وجد الحياة من حوله وهي في صورتها الصادقة التي لا وهم فيها ولا خداع .. وجدها الصحراء القاحلة التي لا تتعدد فيها المشاهد ، وجدها الحانة الخاوية التي ليس بها من سمير ، وجدها السكون الممل الذي تضل فيه امانيه بين متاهات الفراغ !

مرحله نفسية تقبل بعدها مرحلة اخرى فيها السخط الذي يخلف الرضا وفيها التمرد الذي يعقب الخضوع ، لأن العقل قد استيقظ من سبات طويل تعرض فيه لخوادع الأحلام . أرأيت الى المريض الذي طال مرضه حين يفزع الى العقار يلتمس فيه

« البقية على الصفحة ٤٣ »

طوق الياسمين

شكراً ...
لطوق الياسمينْ
وضحكتِ لي .. وظننتُ انك تعرفينْ
معنى سوار الياسمينْ
يأتي به رجلٌ اليكِ .. ظننتُ انك تدركينْ ..
وَجلستِ في ركنٍ ركينْ
تتسرّحين ..
وتنقّطين العطر من قارورةٍ .. وتدمدمينْ
لحناً فرنسيَّ الرنينْ
لحناً كأيامي حزينْ
قدماكِ في الخفّ المقصّب .. جدولان من الحنينْ
والشلحة العنبية الحمراء .. تختصر السنين
وقصدتِ دولاب الملابس .. تقلعين .. وترتدينْ
وطلبتِ ان اختار ماذا تلبسينْ ..
أفَلِي إذن ؟ أفلِي انا تتجملين ؟..
ووقفتُ في دوّامة الالوان .. ملتهبَ الجبينْ
الأسودُ المكشوف من كتفيه .. هل تترددين؟..
لكنه لونٌ حزينْ ...
لون كأيامي حزينْ ..
ولبستِه .. وربطتِ طوقَ الياسمينْ
وظننتُ انك تعرفينْ
معنى سوار الياسمين ..
يأتي به رجلٌ اليكِ ..
ظننتُ انك ..
تدركينْ



☆

هذا المساء
بحانةٍ صغرى .. رأيتكِ ترقصينْ ..
تتكسرين على زنود المعجبين ..
تتكسرينْ ..
وتدمدمين ..
في اذن فارسكِ الأمين
لحناً فرنسيَّ الرنينْ ..
لحناً كأيامي حزين ..
وبدأتُ اكتشف اليقينْ ..
وعرفتُ انكِ للسوى تتجملين ..
وله ترشّين العطور .. وتقلعين .. وترتدين ..
ولمحتُ طوق الياسمينْ ..
في الارض مكتوم الانينْ
كالجثة البيضاء .. تدفعه جموع الراقصين ..
ويهمُّ فارسك الجميل بأخذه ..
فتمانعينْ ..
وتقهقهين ..
لا شيء .. يستدعي انحناءَكِ ..
ذاكِ .. طوق الياسمينْ ..

لندن — نزار قباني

المرحوم ...

قصة جديدة بقلم سعيد تقي الدين

من عادة اهل « الشوف » في لبنان ان لا يذكروا الميت إلا بخشوع ، فهو على شفاههم « المرحوم » قبل اسمه . وهم فيما يصلون على جثته قبل دفنها يعددون مزاياه ويبتهلون : رحمه الله.

*

مشى ابو توفيق حمد الساقي في كرمه – كرم الهدهد – يتطلع الى اشجاره كأنه ضابط يستعرض جنوده . وأجال نظره في الزيتونات كأنه يعدّها. ولعله اطمأن الى انها ما زالت ٦٨ شجرة – كذا كانت في صباح البارحة – وان دواليه الاحدى عشرة ما زالت مثقلة بالعناقيد السوداء والصفراء ، بل ان حباتها انتفخت قليلاً وتجوهرت وصفت . والمرة المليون تطلع في الناحية الشرقية من اعالي الدالية الخريفية ، ففرك عينيه كأن فيهما قذى ، وهز رأسه متحسراً – تُرى هل غفل عن رشها بالكبريت ايام الربيع فجاءت العناقيد مضروبة ؟ وتنهد مشيحاً بوجهه عن المنظر البشع الخراب – عناقيد متهرئة – الى حيث تمددت في الجلّ حبال مورقة خضراء ، فانتقل اليها ينحني ويكشف الاوراق عن الخيار والكوسا ، برفق الام ترفع اللحاف عن وجه طفلها الحالم . فلما انتهى من طوافه ايقن انه سيقطف في غد صحارتين يحملها الى « عاليه » مدينة الاصطياف فيبيعها بالسعر الغالي – من يدري ؟ فقد يظفر بمصطافين من الكويت يدفعون اربعين قرشاً للكيلو – ثم ابتسم ، بل ارتعش قلبه اذ رأى على الارض ظلا كبيراً يسير – اذاً ففي الجو غيوم ، وقضبان الدبق التي دسها بين اغصان التين ستبقى لزجة تلتقط العصافير ، وتلك التي نشرها في اعالي اشجار البطم والملول ستمسك بريش طيور « الوروار » حين تجثم عليها فتأسرها . وفطن الى ما يجب ان يفعل ، فقصد الى كومة البلان وطمسها بروث البقر الجاف واشعل النار كي يعلو الدخان ، حتى اذا مرت عصائب « الوروار » حوّمت ثم انقضت الى حيث الدخان – « فالوروار » تعلم انه حيث ينتشر الدخان ، يكثر النحل ، طعام « الوروار » المفضل .

وشعر ابو توفيق بالجوع بعد هذه الجولة الصباحية ، فعمد الى حمل دلوه الفارغ الذي سقى به تفاحاته الحبيبات – ٤٦ شجرة ، سبحان الخالق – فلقد ارتوت . ثم خطا الى طرف الحقل فانحنى وقطف رأساً من البندورة ، وانحدر الى حيث قام بيته ، وهو قبو مؤلف من غرفة يعيش فيها وحيدا . هناك كانت تنتظره ترويقته من الخبز المرقوق المستدير والزيتون الفاخر والبصل المتدلي من المجدال ، وستكتمل وجبته الصباحية بهذه البندورة الفعمة السمينة المستديرة الحمراء .

وهمّ بان يدخل القبو سعيداً ، لولا شبح من حقد وكراهية واجهه ، فحدق العدو بالعدو همامةً من لحظة ، ثم تسارعا الى إلقاء تحية الصباح – ابو توفيق وخصمه الابدي ناطور الضيعة – وتحدث الخصمان حديثاً خاطفاً غلفته الكياسة الجبلية . فلولا تأدب الجبليين بالحديث وممارستهم لمظاهر الاحترام لأفنى بعضهم بعضاً ، فان نفوسهم يغمرها الحقد والتحاسد والتباغض ، ولا تردعهم عن الاصطدام المستمر الا آداب السلوك والكلام ، كأن الحياة التي سممتهم بالعداء يسّرت لهم الكياسة النطقية وقاية من الكوارث .

وتقاذف الرجلان الحديث دقائق عن الطقس والموسم واخبار المغتربين . واراد ابو توفيق ان ينهي المقابلة ، فألح على الناطور بالدخول معه ليشاطره الترويقة ، فاعتذر هذا بقوله انه على موعد مع جار له ينتظر عند « عين الوادي » ليتحدثا بامر ملح ، وانصرف ...

وقد اثارت رؤية الناطور في نفس ابو توفيق عاصفة من الكره والغضب ، فاقبل يحزّ البندورة بشراسة كأنها قلب الناطور ، ويهوي بقبضته على البصلة كأنها رأس خصمه ، ويمزق رغيف الخبز كأنه لحم عدوه . انه يدري ما سيتحدث به الناطور على العين مع الرجل الذي واعده . سيقول ، بل سيردد ما اختلقه من اكاذيب عن صاحب كرم الهدهد . سيتطلع الى الحقل ويسخر : « ابو توفيق حمد الساقي ، هذا اكبر لص عرفته الضيعة . من اين له كل هذه الأموال ؟ اراهن ان في صندوقه ٦٠٠ ليرا ، هذا الاناني الذي لا يدفع رسوم الحراسة بحجة انه ساكن في ارضه فلا يحتاج الى ناطور . هذا اللئيم الذي اعتزل الضيعة وترك بيته فيها ليعيش في البراري . هذا البخيل الذي لم يتزوج بعد وفاة امرأته ، فنشأ وحيده توفيق كهرٍّ برّي لا تربية ولا اخلاق ، يقضي نهاره يستمع الى الراديو ويوزع الآراء

السياسية ، ويتحدى الناس الى القتال ، ويملأ دويّ اسلحتـــه الضيعة ، فهو ابداً يجرب مسدساً جديـداً او يطلق مترليوزه ابتهاجاً لفوز متزعم او احتجاجاً على فشل متزعم . يا ويل هذا الأب الكافر من غضب الجبار حين يحاسبه ربه ، كيف اتقن تعهـد ارضه واهمل تربية ولده ! »

وفيما ابوتوفيق يقضم تورويقته بحنق ، كان يرد على هـــذه الاتهامات بصمت فصيح : « هذا الجندب – هكذا كان يلقب عدوه الناطور – لا يدري كيف تجود الارض عـلى من يجود عليها . انه لا يعرف ان زيتوني لا يمحل لأني احرثه وانخـــل ترابه وأعجنه بالسماد . وهو ينسى كيف أنصب البلان شركاً في المسيل لصيد حبات الزيتون التي تحملها المياه حين طوفان الامطار . وهو يجهل متى يحسن بيع الزيت ، وما هو الفرق في الدخل بين بيع الغلة زيتاً لتاجر او زيتوناً اخضر في البيوت . وكم هو اربح بيع المحصول للمصطافين لا لمعلمي الخضار . وكم تدفع الحاملات في وحـــامهن ثمناً للحصرم . وكيف تكافح الحشرات فتأتي اثمار التفاح كبيرة موردة شهية . ومـا يعرف هذا الجندب عن تربية النحل ؟ – وعندي منها ١٢ قفيراً – وكم يدفع السعوديون المصطافون ثمناً للقرص الواحد من عسله ؟ بلى هذا الجندب القفاز ، ما يدريه من امور الحراثة والزراعةوتربية الدجاج ؟ انه يحسدني على ٦٠٠ ليرا يحسب اني املكها–وتطلع ابو توفيق في الصندوق المتكيء الى زاوية في القبو – تراه مـا يقول لو علم ان هنا ١٤٦٧ ورقة و٢٦ ذهبية ؟ وابتسم .. اما توفيق – وتنهد الأب مقاطعاً نفسه : الله يمحقه ! – فقد ارسلته للمدرسة صغيراً فما نفع . وها هو اليوم يسعى جهده للدخول في خدمة الجيش او الدرك ، وما هو بشرير ، فالعراك والقتـال والمشاكل من عادة الشبان ، وسيأتي يوم يروق فيه ويستقر . »

والصحيح ان توفيق كان في تلك اللحظة مستقراً – مستقراً في أعلى الحقل يصيح منادياً أباه : « يا .. بيا .. » فخرس الأب ولم يرد ؛ وتعالى النداء ، والاب لا يبالي ولا يخرج من القبو . وإذا بطلقي رصاص يدويان ، والدجاجـات تصيح متبعثرة ، وصوت توفيق يقهقه : « قتيلان يا بو توفيق .. ديك ودجاجة ، علفة فاخرة اليوم على نبع الباروك ! »

واندفع ابو توفيق من غرفته زوبعةً من غضب ولعنات ، فلما واجه ابنه المنتصب على حافة الحقل من عل هزته للوهـــلة الاولى نشوة من فخر الابوة إذ أبصر توفيقـــاً مارداً عريض الكتفين ضخم الذراعين ، يتركز طربوشه الاحمر فوق حاجبه الاسود الثخين ، ويثور شارباه الدقيقان عـــلى انف ملوكي ، وتحدق به عينان اكبر من الدنيا لأنهما تهيمنان على الدنيـــا ، وينفتح قميصه الاخضر عن عنق كأنه احـد أعمدة بعلبك،ويدور حول وسطه زنار من الجلد عريض لا تـدري كيف استقر إذ يبدو ان ليس تحت ذلك الصدر المشرئب الهائل خصر ، ويصل الزنارَ بالجزمة العسكرية اللماعة بنطلون رصاصي تفرّش جانبـاه كجناحي طائرة .

« صبحنا جنابك يا بو توفيق ! » صاح الفتى بأبيه مداعباً .

وصمت الوالد ، وهو بين النقمة على ابنـــه لقتله الديك والدجاجة ، ولهدره رصاصتين ثمنهما ليرتان ، وبين رعشة الحياة في نفسه رأت نفسها تتقمص متجسدة في مارد حي يتبوأ أعـلى الحقل يهزأ بالدنيا ويطلق في وجهها الرصـاص . وتوثب الأب كأنه يتحفز للقفز الى ابنه ليخنقه أو ليعانقه .

وعاد توفيق يحيي اباه متودداً : «صبحنا جنابك يا بوتوفيق .. لعينيك يا بو توفيق ! » وارتفعت يمينـــه بالابيض اللماع ، فاذا البراري تمتليء بدوي ست رصاصات ، وقهقهة مطلقها ، وصياح ابيه : الله يمحقك !

ونط توفيق نحو ابيه ، بعد ان ارجع الفرد الى زناره ، فاذا هو يريد خمس ليرات لنزهة مع اصحابه عـلى « نبع الباروك » وإذا هو يريدها ديناً – ككل ما يأخذ من أبيه – يعيـده له متى دخل في الجيش فيصبح جندياً فضابطاً فجـــنرالاً . وإذا بالأب ، كالعادة ، يوبخ ابنه ويهدده وينصحـه وينتهي الأمر ، كالعادة ، بخمس ليرات يطويها توفيق في جيبه، ويقبـــل يد ابيه ، ويحمل القتيلين ، وينصرف عائـداً نحو القرية ، متغنيـاً بحداء كأنما انفجر من حنجرة الوادي :

« يوم الكر ويوم الفر   الأعدا منا مجرودي »
« البحر بيخشانا والـــبر   إنزلغطصوتالبارودي»

وواكبت نظرات الأب ابنه متحسراً على الليرات الخمس حالماً بيوم يرى فيه وحيده جنرالاًيستعرض الجنود في بيروت.

٭

في الليل داهم الشبح « كرم الهدهد » فدخل القبو صائحاً : « يا تعسك يا بو توفيق ! »

وانتصب ابو توفيق في العتمـــة يستغرب ولولة الناطور عدوه ، وهذه اللهفة المستجدة ، مستفهماً ، فصعقـــه الخبر :

« توفيق قتل سائق سيارة . . الله يلعن السلاح والرصاص وطيش الشباب .. تلاقت السيارتان في طريق ضيق .. انت .. انا .. ابوك .. امك ... فاطلق توفيق على سائق السيارة الغريب اربع رصاصات .. حالاً قبض عليه الدرك .. يا تعسك يا بو توفيق ! »

وراح الناطور يحاول التمويه عن فرحه بكثرة الكلام والتفجع لمصاب عدوه .

*

نعيم هادىء من كد وانتاج استحال جحيماً من بلبلة وهموم . اين تلك الهناءة والسكون يسودان حقلا هو سيده ، من هذا الاعصار الذي عصف بابو توفيق ، فاذا به متوسل يطوف من سراي الى سراي ، ومن سجن الى سجن... في كل يوم يهيء الطعام زوّادة يرسلها الى ابنه ، وهو بين الانتظار في مكتب المحامي ، الى الخنوع لصلف الدركي ، الى قرع ابواب المتزعمين ، الى مفاوضات تطوع للقيام بها وجوه الضيعة بينه وبين اهل القتيل ..

وجاء اليوم الكبير ، يوم محاكمة ابنه ، فدخل ابو توفيق قصر العدل في بيروت ، فاذا هنالك باحة كسوق النوَر ، يتراكض فيها رجال لبسوا اثواباً فضفاضة سوداء كالغربان ، وفي المماشي حلقات كل واحدة منها استدارت حول شخص يسمونه « الاستاز » . وتتألف الحلقة في الغالب من قرويين يتوسلون او ينفعلون ، و« الاستاز » يشرح بعينيه ويديه مؤكداً واعداً متبرماً بموكليه . ويرمح هنا وهناك غلام يحمل صينية ، ثم تسمع نداءات : «الشاهد علي سالم بزعوق .. الشاهد طنوس مرعي جرجوره .. واحد مُرة ، واربعة مظبوطة لغرفة النقابة .. « الاستاز » اديب الطيوني مطلوب من النائب العام .. سبعة كولا لحسن بك جبجاب .. »

ووقف القروي مذعوراً ، مديراً بنظره ، يفتش عن محاميه فلم يره ، غير انه لحظ يداً ترتفع بمسبحة صفراء ، تميز حاملها فاذا هو محاميه مقتعداً عدة كراسي ورجله على علبة ماسح الاحذية ، منكباً عليها تظلله شجرة تحتها عدة «اساتزة» يتكلمون كلهم دفعة واحدة متضاحكين .. ولقد أنس ابو توفيق برؤية الشجرة ، وبحركة عفوية مد يده الى وسطه كما لو كانت الفأس في زناره ، ليقتطع الأغصان اليابسة . ولكن اشارة من محاميه نبهته فصحا ، وأقبل يسلم عليه . ورد المحامي السلام ، وسأله عن « الغرض » هل أتى به ؟ اجاب ابو توفيق : « نعم يا سيدي » وأدخل يده في جيبه فما استطاع ان ينتزعها ، فان اصابعه كانت تشد على حزمة الالف ليرا لتسمرها في مكانها ، وتتحسس في الخيط الذي يلفها بخشونة الحبل الذي لفت به البلان ، وحزمت به الحطب ، وانتشلت به الوف الدلاء من البئر ، وشدت به مئات الصحاحير .. واقتلع ابو توفيق يده من جيبه ، فأفرغ في كف المحامي جهود السنين .. وقبل ان يغيّب « الاستاز » المئات العشر في جيبه اهوى ابو توفيق على يده ، يريد ، من غير ان يريد ، استرداد ماله .. ولكنه استدرك خجلاً فموّه بقوله : « اسمح لي بالخيط يا استاز . »

وفيما كان الفلاح الغريب يفتل الخيط الاحمر باصبعيه ويلفه على ابهامه ، كانت المغامزة تسري بين « الاساتزة » الجالسين ، فانبرى احدهم مخاطباً القروي : « لا تكبر عليك ياعم ، اصعبها الدفعة الاولى..بعد قليل تتعود..» وضج «الاساتزة» بالقهقهات.

ونودي على « الاستاز » المحامي الى قاعة محكمة الجنايات ، فتهادى اليها يتبعه ابو توفيق . ولم يتبين ابو توفيق في القاعة الرهيبة احداً لأول وهلة . حتى إذا ألفت عيناه جوها المجهم ، رأى القضاة غرباناً ثلاثة جاثمين بوجهه على مرتفع ، والى يمينه بين دركيين مسلحين منتصبين تكوم ابنه توفيق مشعث الشعر طويل الذقن ، شارباه في فوضى ، حقيراً ضامراً صغيراً في قفص .



« بريشة السيدة دمشقية »

لقد حلم ابو توفيق بان يرى وحيـــده في بيروت وحوله الجنود ، قائداً ، لا اسيراً في قفص المجرمين !

وفيما يتفتت قلب الوالد وينسحق، كان «الاساتذة» المحامون يتراشقون كلاماً اصابت اذني القروي منه شظايا : « المادة ١٧٤ ... لائحة الادعاء ... اعتراض في الشكل ... » ولم يدر الا ومطرقة القاضي تقرع « وأجلت الجلسة الى... » بعد ثلاثة اشهر.

وجاءت الطبيعة تتعاون مع الناس على اضطهاد ابو توفيق، فبارت المواسم في تلك السنة ، وكان صندوقه قد فرغ من المال المدّخر ، وتراكمت عليه ديون يدفع فائدتها خمسة بالمائة في الشهر لمرابي القرية ، واسفرت المفاوضات مع اهل القتيل عن دية احد عشر الف ليرا ، وقد لعب الناطور دوره ، فلم يفتأ يوغر صدور اهل القتيل مترحماً على شباب فتاهم المغـــدور ، مردداً وصف هول الجريمة ، مذكراً اياهم بان ابا القاتل رجـل ملاك موسر يختزن الألوف .. ثم خلق في الضيعة نقمة على ابو توفيق لتمنعه عن الدفع وحيلولة بخله دون تخفيف الحكم عن ولده وتصفية الجو والتعويض العادل عن حياة فتى قتيل .

وكان من الطبيعي ان يفكر الناس – والنـاس في القرى يقررون امور جيرانهم – ببيع كرم الهدهد . فاحتاط الناطور لهذا ، وبسط لمن يهمهم الامر عيوب الحقل ، مستشهداً بمحْله في تلك السنة ، واستعرض اسماء الذين اثروا من شرائهم العقارات في بيروت ، والذين افتقروا حين وظفوا اموالهم في الضياع ، وكيف ان ابو توفيق سيضطر في آخر الامر لبيع الحقل ، فيحسن بمن يود شراءه ان يترقد له . ثم اخذ يحث المرابي عـلى الضغط لاستيفاء الدين ، شارحاً له ان الخمسة بالمائـة في الشهر « فائظ » متواضع ، فصغار موظفي الحكومة يدفعون للدائنين ثماني او عشر ليرات في الشهر عن كل مائة ليرا . والمزارعون في البقاع يدفعون فائدة المائة ستين لاربعـة اشهر . ولو ان المرابي يهدد ابو توفيق لاضطر بحكم الظروف ان يزيد له «الفائظ».

*

عار عليه ان لا يفتدي ابنه . عار عليه ان يبيع حقـــله . يصغي الى احاديث الناس ، ويستمع الى تهديد المرابي، ويرتسم وجه ابنه في قفص المتهمين ، فيعزم على بيع الحقل .. ويذهب الى الكرم ينظر شجراته ، وهي كذلـك اولاده ، فيصيح : « لن ابيع ! »

بعض المصائب يؤجَّل يومُها ، ولكن وقوعها محتم ، فانتهى الامر بدفع دية القتيل ليسقط اهـله حقهم ، فباع ابو توفيق كرمه . لقد قضى ابو توفيق اكثر حياته ورأسه محني على ارض يزرعها او يحرثها او يحصدها . ولكنه حين حنى رأسه ليوقـع صك البيـع شعر انه ، لاول مرة في حياته ، لم يحن رأسه بـل طأطأه .

وعاد الفلاح المنكوب ، يسكن بيته في القرية بعد ان فقد حقله وقبوه في البرية ، ولم يتحقق كم كان حبه لزوجته ، وشغفه بولده الا بعد ما غمرته وحشة الوحدة . وصار يحس حين التقائه بالناس انه يواجههم عارياً من ثيابه وجلده ، بل صار يحسب ان كل كلمة يسمعها هي غمز عليه وتحقير ، فان من يبيـع ملكه في قرى لبنان يقطع الحبل الذي يشده الى مرساة العيش ، ويرمي من يده العلَم الذي يرفعه في معركة الحياة .

وبعد الاسابيـع الاولى ترسّخ الهم في نفسه وتحجرت سحنته في انقباضة من الحزن والنقمة ، واعتزل الناس ، فكثر تحداثه لنفسه بصوت عال ، ودب النزق الى نبراته ، وتضعضع تفكيره ، فلم يعد يدري ماذا يفعل وكيف يعيل ولده الحبيس خـــلال الاعوام الستة التي قضت بها عليه المحكمة .

تهدأ النفس حين تستقر على صعيد ما . بالأمس كان ابو توفيق سيد حقل ينتج الفاكهة والخضار ، ويختزن المال ، وينظر الى الدنيا من ذروة سؤدد يتبوأها ... واليوم صار حطاباً يشتغل مياومة . وكثيراً ما كان يقصد الى البراري فيقتلـع البلان والوزال والقصعين من مشاع القرية وحفافي الدروب العامة ، وكان يصطدم ابداً بعدوه القديم الناطور ، يحاول منعه من الجولان في المشاع ، او قلع الاعشاب من جوانب السواقي، اذ ان ابو توفيق اكتشف تجارة رابحـة من بيـع عشب ينبت حوالى الماء اسمه عشبة « القطع والوصل » يشرب ماءها المغـلي من آلمته اوجاع الرمل او الحصى في الكلى . وقد وجد لهـذه العشبة سوقاً في بيروت ، فكان ينزل الى العاصمة مرة في الاسبوع مصطحباً اكياساً ملأى بالعشبة الشافية .

غير ان انهاكه بالادوية لم يقتصر على بيعه عشبة « القطـع والوصل » بل كان ينفق الكثير في الصيدليات شارياً ادوية لمختلف الامراض التي داهمته ، واخصها دوار كان يصيبه حـين يحتطب او يقلع البلان او يحمله . وصار حمله يصغر شهراً بعـد شهر ، ومحطات استراحته تتعدد ، وثقل سمعه فأصبح حـــين يتحدث الى نفسه يرفع صوته كي يتمكن من سماعه .

اما الحقل ، وابو توفيق مضطر للمرور به في طريقه الى البراري ورجوعه منها ، فكان لا يلتفت اليه ولا يراه ، بل كان كلما حاذاه في دربه يقفل عينيه . وكانت له في ذلك رأفة به فلا ينكسر قلبه لرؤية الحيطان المتهدمة والهرم الذي دب في اشجاره واليبس في اغصان تفاحه والعشب الذي نما على سطح قبوه . يدُ الخراب تبطش حين تغيب يد العناية . ولكن هذا التفسير لم يؤمن به الناطور الذي انطلق لسانه باشاعات جديدة : ان الحقل أمحل لأن ابو توفيق سلط عليه عين السوء ، تعالوا نراقبه مختبئين لتروا كيف يطبق عينيه كلما حاذى الحقل ، واستمعوا الى تمتماته — هي رقية الشيطان يرددها مسلطاً على الكرم لعنة ابليس .

كان ذلك في عشية يوم صيفي ، وحملُ الحطب قد تقلص على ظهر ابو توفيق الى حزمة ، ولكنه كان ثقيلاً ثقيلاً في تلك العشية يستوقف حامله دائماً ليستريح لاهثاً متعباً دائخاً .. وبغتة وجد الفلاح المضنى نفسه منهكاً حيال الحقل مرغماً على التوقف ، فتهاوى الحمل عن ظهره ، ولم يقفل عينيه ولم يتمتم ، بل واجه الكرم متفرساً به : « يا ويلهم من الله ! عشب على السطح ، وحيطان متهدمة ! » وتطلع في الزيتون ، في الطفيلية البيضاء طمست الاغصان ، فاغمض عينيه وراح يحك جلده كأن القطن الذي انتشر على اغصان الزيتون جربٌ في جلده ، ثم فتح عينيه ، وقعد ، يجيلها بضراوة في طلول البستان . كل ما ابصر أستثار دقات قلبه ، واشعل دمه وانفاسه ، فهو يلهث ويلعن . ووقفت عيناه على عنقود في دالية لا تحمل سواه ، وادرك من اصفرار اوراقها وضمور اغصانها علتها ، لقد وضع هو بيديه حجراً كبيراً فوق التربة التي تعلو جذورها ليقيها لسع الصقيع وحرقة الشمس ، فأين الحجر ؟ اين الحجر ايها المجرمون ؟ إنكم تقتلون الدالية يا كفرة ! ووثب ابو توفيق الى حيث الدالية ، فاحتمل اليها حجراً كبيراً حمله بيديه القويتين الى فوق رأسه ، ورمى به ، ثم انتصب ويداه على خصريه فخوراً ظافراً يلهث ويتصبب العرق منه ، وتصخب الالفاظ مزوبعة على شفتيه وشاربيه في غوغاء من فوضى وبلبلة . ورفع يديه الى ما فوق رأسه يريد ان يصيح بشيء ، فغامت عيناه وانتفض قلبه ، وتراخت اعضاؤه ، فهوى ، واصابع يمناه تتلمس شيئاً لتتمسك به ، فاذا هو حين انطرح على الارض يشد باصابعه على العنقود بصلابة تشنّج الموت .

بالطبع ، كان الناطور افصح الذين واكبوا الجثة الى القبر : كل حياتي كنت اقول انه حرامي . في ايام عزه كان يسرق من حقول جيرانه في الليل . لأي امر اذاً كان يسكن البرية لا الضيعة ؟ وفي ايام فقره كان ينهب البلان والقصعين والحطب ، واخيراً ضربه الله متلبساً بالجريمة ، وخاتم آبليس ذلك الخيط الاحمر ملتف على ابهامه . سبحان الله ما أعدله !

ووقف اهل القرية حول النعش ، فقرروا شيئاً خطيراً : ان الميت خسر حقه في الرحمة ، حين اهمل تربية ابنه ، وحين سلط عين الحسود ، وحين سرق .

☆

من عادة اهل « الشوف » في لبنان ان لا يذكروا الميت الا بخشوع ، فهو على شفاههم « المرحوم » قبل اسمه . اما صاحب « كرم الهدهد » فهو إن ذكروه : ابو توفيق حمد الساقي ، وما هو بـ « المرحوم » .

سعيد تقي الدين

الأعداء...

نحن اذن اعداءْ

من عالمٍ لا يفهمُ الأشواقْ
ولا يعي أغنية الأحداقْ
أعينُنا لا تفهم النجوى
الحبُّ فيها سيرة تُروى
كان لنا أمسُ
وضمَّهُ رمسُ
من تربة البغضاءْ

* * *

نحن إذن أعداءْ

تفصلنا عوالمٌ شاسعه
حدودها المجهولة الضائعه
تبثُّ في دروبنا المستحيلْ
فنذرع العُمْرَ الجديب الطويل
بحثاً عن الباب
وحبّنا الخابي
يغري بنا الصحراء

* * *

نحن إذن أعداءْ

ترقد في اعماقنا الذكرى
مشلولةً، ضائعةً، حيرى
المقتُ يلقي فوقها ظلا
والحقدُ لم يُبْقِ لها شكلا
ولعنةُ الأيامْ
خلّفت الأحلام
فوق الثرى اشلاءْ

* * *

نحن إذن اعداءْ

وان تكن تجمعنا أحلامْ
من امسنا اودت بها الايامْ
وان تكن قد خلّفت أشياءْ
في المُقَل الفارغة الجدباءْ
في الأوجه الذاويه
كنجمة خابيه
تغرب في الظلماء

* * *

نحن إذن أعداءْ

وان طفت في دمنا الأشواق
ودبّت اليقْظة في الارماق
وبيننا عوالمٌ شتّى
ندركها كما يعي الموتى
تحت التراب المهين
وقع خطى العابرين
وضجة الاحياء

بغداد **نازك الملائكة**

أدب الأعمار النفسيّة

بقلم عبد الله عبد الدائم

•

من مشكلات الأدب التي تظل جديدة والتي لا يفنى الحديث عنها معرفة نشأة الألوان المختلفة من الادب وظروف ولادتها والعوامل الشتيتة التي دعت إلى خلقها . فنقاد الأدب ما فتر لهم قلم أمام البحث عن الاصول التي يمكن ان تُرد إليها نشأة لون معين من الأدب ، أو بزوغ أديب من الأدباء . والنظريات لم يتطرق اليها وهن حين اصطرعت حول تغليب بعض هذه الأصول على بعض وحين جهر بعضها برد هذه الأصول جميعاً الى اصل واحد ، هو مثلاً البيئة والعرق عند بعضهم (على نحو ما يرى تين Taine ومدرسته) أو حياة الأديب عند آخرين (على نحو ما يرى « سانت بوف Sainte Beuve) .

ولا شك أن هذه البحوث المتصلة بولادة الأدب ومخاض الأدباء قد أدركت تحولاً هاماً في تاريخها يوم دخلتها البحوث النفسية التي حاولت أن تكشف خاصةً عن العناصر المتصلة ببنية الأديب النفسية بل بكيانه النفسي والجسدي معاً . ومثل هذه البحوث أصبحت مبثوثة ذائعة في جميع تلك المحاولات التي جهدت أن تستند في دراستها نتاج الشعراء والقصاصين والاجيال الادبية المختلفة والمدارس الادبية العديدة ، الى دراسة حياة الأدباء او تحليل حياتهم العاطفية العميقة ولا سيما حياتهم الجنسية بمعناها الواسع (على نحو ما فعلت مدرسة التحليل النفسي) أو استكناه التفاعل الذي يتم بين الكاتب والحضارة الاجتماعية التي يعيش فيها .

غير أن ثمة ميداناً لم توفّه هذه البحوث النفسية حقّه من الدراسة ، وهو عندنا عنصر جدير بأن يقام له وزن عند التعرض لمشكلة أصل النتاج الأدبي . ونعني بهذا الميدان ما نحب ان نسمّيه « أدب الاعمار النفسية » . فالدراسات النفسية الحديثة مجمعة كلها على افراد خصائص ذاتية يختص بها كل عمر من أعمار الانسان : من طفولة ومراهقة وشباب وكهولة وشيخوخة . وهي لا تني تحدثنا عن المواهب التي تتفتح أو تكمد من سن الى سن ، والميول التي يبعثها طور من العمر محدود ويدفنها طور آخر . غير أن هذه البحوث النفسية ، على غناها وقوتها ، والبحوث الأدبية القائمة عليها ، لم تحدثنا إلا الحديث العابر القصير عن النتاج الأدبي الذي يختص به كل طور من هذه الأطوار ، وعن أثرها في خلق بعض الادباء وبعض الحركات الادبية . في حين ان في مثل هذا الميدان مجالاً ثرّاً جديراً بان يهدينا إلى كثير مما غمُض من معاني النتاج الادبي والفني ، وبان يعرّفنا كثيراً من مجاهله . وإن بعض الومضات العابرة التي نلمحها خلال قراءتنا للدراسات النفسية حول تطور الحياة النفسية مع العمر تكفي لتبين لنا الخصوبة التي تُنتظر من خوض هذه الارض الجديدة ، ومن البحث عن بعض أصول الادب وراء بروق السن وملامح الاعمار . فمما يتحدث عنه كثير من الباحثين مثلا بعض أوجه الشبه القائمة بين النتاج الفني للأطفال ، في مجال الرسم خاصة ، وبين نتاج بعض الفنانين الكبار من أمثال « فان جوج Van Gogh » . ومما يحدثوننا به ايضاً تلك القوة الخاصة التي تخلق لدى المراهقين والتي تمدّهم بقدرة هائلة على إدراك الصور وتخيلها وإبداعها ، مما يؤهّلهم لانتاج فني مترع بالاخيلة ، نديّ بالصور [1] . ومما يتردّد أيضاً على ألسنة كثير من الادباء ان الفنان مراهقٌ إلى الابد وأنه يظل دوماً في صبوات المراهقة وشطحاتها ولا يفارق أخيلتها بل أوهامها . وليس المجال هنا مجال إثارة هذه المشكلة العويصة ، مشكلة الفوارق بين نتاج مردُّه إلى السن ونتاج مردُّه إلى روح أدبية أصيلة ؛ مشكلة التمييز بين تلك المحاولات المبعثرة التي ينتجها طفل في الرسم مثلاً والتي هي بمثابة بروق خاطفة وأنفاس متقطعة وبين محاولات تصدر عن مذهب محكم مترابط الاوصال كمذهب « فان جوج Van Gogh » او « بيكاسو Picasso » مثلا . ومن الواجب ان نعترف ان المشكلة ليست سهلة بالمقدار الذي يخيّل إلينا ، واننا لن نذهب إلى حد القول بان جميع أنماط الفن ما هي إلا عودة إلى الطفولة أو مكث في سن المراهقة او معاودة

---

(١) أنظر خاصة أبحاث Jaensch وحديثه عما يدعوه بالصور الضوئية الحدسية Optische Anschauungs - Bilder .

أحلام سن معينة . والذي نطمح إلى بيانه والوقوف عنده ، في المرحلة الحالية من الدراسات الادبية ، أمر أبسط من هذا وأقل طموحاً : وهو أن ندرك ما لسنوات العمر من أهمية في نتاج الاديب، وان نبحث عن هذه السنوات في نتاجه ونبحث تطور هذا النتاج بتطور هذه السنوات ، وان نحاول خاصة ان نربط بين خصائص نتاج أدبيّ معيّن وخصائص بعض مراحل العمر : فبعض الادباء يتصفون دوماً بأدب مراهق في جميع سنوات حياتهم ، وبعضهم يمثلون أدب الكهولة ، وبعضهم يعيدون على قرائهم ، من خلال صور جديدة وتركيب محدث ، ما مرّ عليهم في طفولتهم وما كان بينهم وبين آبائهم من صلات حب او بغض ، نفور أو إقبال .

بل نطمح إلى شيء أبعد من هذا ، فنودّ ألا ننسى في مثل هذه الابحاث التي تستهدف إدخال عنصر السن بين عناصر اللقاح الادبي، ان نقيم وزناً للفوارق الجنسية اي بين طفولة أديب وطفولة أديبة ، ومراهقة كاتب ومراهقة كاتبة ... وان نذكر ان الطفولة تختلف بين ذكر وأنثى ، وأن صفات المراهقة تكاد تكون متباينة لدى الفتى والفتاة ، وان خصائص السن بشكل أعم ليست واحدة لدى الجنسين . الامر الذي يحملنا على التمييز بين ادب ينتسب إلى الطفولة المؤنثة وادب ينتسب الى الطفولة المذكرة ، بين ادب مراهق وادب مراهقة ،ونتاج يتّسم بسمات كهلة او كهل ، شيخة او شيخ . ومن الواضح ان ليس من المحتم ان ينتسب ادب الرجل الى الخصائص التي تتسم بها اعمار الذكر ، كما انه ليس حتماً ان ينتسب ادب الانثى الى الخصائص التي تتسم بها اعمار الانثى . فكثير من الادباء يقذفون بادب طفلة او مراهقة ،وكثير من الاديبات يقذفن بادب طفل او مراهق . بل ان من المهام الاساسية التي ينبغي ان يضطلع بها الباحث عن هذه النشأة « العمرية» لبعض فنون الادب ان يبيّن إلى اي حد يؤثر موقف الاديب او الاديبة من الجنس الذي ينتسب إليه او تنتسب إليه على نتاجها الادبي . فكثير من انواع الادب ما هو الا ثورة نفسية يثور بها الكاتب على جنسه (كونه ذكراً او انثى) ؛ ومن المأثور عن النساء خاصة انهن كثيراً ما يثرن على انتسابهن لجنسهن اللطيف ، ونقصد بهذه الثورة الثورةَ العميقة التي تكشفها الدراسة البصيرة لاحوالهم العميقة لا أقوالهم الظاهرة ؛ فكم مدافعة عن جنسها لا ينبىء دفاعها المغالي إلا عن ازدرائها لهذا الجنس ومحاولة إقناع ذاتية تقوم بها لتعوّض عن إيمانها اللاشعوري بنقصه . وكم مصطنع لمظاهر الرجولة تفضح مغالاته في التلبس بها فقده لها .

ومعنى هذا كله ان لكل سن خصائصها وان هذه الخصائص تختلف بين ذكر وانثى، وأن من الطريف والخصيب ان نبحث عن هذه الخصائص العمرية وراء الانتاج الادبي . فمن الهام مثلاً ان نبحث عن صفة «النرجسيّة Narcissisme » عند بعض الادباء وان ندرك ان وجود هذه الصفات لا يفسّرها إلا وجود عنصر مراهقة مؤنثة لديهم . فالنرجسيّة، أو تلك المحبة المرآوية التي نجد فيها المرأة مولعة بالاعجاب بذاتها والحديث عن نفسها حديث من يتمتع بصورته وجمالها أمام المرآة ، هذه النرجسية صفة ملازمة لطور المراهقة عند الفتيات ، ونجد اوضح صورة لها في يوميات الاميرة الروسية مريم باشكرتسيف Marie Bashkirtseff[1] حيث حدثتنا الاميرة عن امير احلامها الذي لا تعرفه والذي تسميه الامير « هـ... » ، وحيث تصارحنا بتلك النزعة المحببة الى قلب كل مراهقة ، نزعة محبة نفسها محبة « النرجس » لصورته في الماء (على نحو ما تروي الاسطورة اليونانية التي هي الاصل في نشأة كلمة « نرجسية ») ورغبتها في ان يركع لجمالها ألوف المعجبين وان يصفق لها جمهور من المتفرجين وان تقتني اكبر مجموعة من « القلوب المحطمة » بحبها .

وعنصر النرجسية هذه نجده واضحاً لدى كثير من الكتاب الرجال ، ولاسيما في العصر الرومانتيكي ، ولعله كاشف بارع ومفتاح عبقري نستطيع عن طريقه ان نتوصل الى معرفة البنية النفسية العامة للكاتب الذي نجد عنده أثراً منه .

وما يقال عن النرجسية يمكن ان يقال عن صفات اخرى عديدة يتصف بها طور المراهقة او غيره من الاطوار ، كثيراً ما تسِم ادب اديب وتفصح عن سريرة كاتب .

ولا شك ان من شأن مثل هذه الدراسات المنقّبة عن الاصول العمريّة ، في ادب الادباء ، ان تيسر لنا الى جانب زيادة معرفتنا باصول الادب ، معرفة فعّالة منتجة تهدينا الى الاسلوب الذي ينبغي ان يتّبع في التوجيه الادبي للاشخاص . فمن الواجب على كل من يتصدى لرعاية إنسان ان يدرك الخصائص التي ينبغي ان تُفتَّح لديه في كل سن، والغنى الذي يصل اليه إن دُرِّبت لديه المواهب الادبية الملازمة لتلك السن ، وإن صُحّحت عنده الانحرافات الادبية الناجمة عن هذه السن ايضاً .

1) M. Bashkirtseff : Journal d'un jeune artiste.

بل إن من انجع الوسائل لتصحيح بعض شذوذ الطبع واضطراب الخُلق ، في بعض مراحل العمر ، ولا سيما الطفولة والمراهقة ، ان يُشغل الشخص المصابَ ، بالانتاج الادبي الملائم لسنه ، وان يروّح عن ازماته بتغذية عواطف الخَلْق الادبي التي تحرّقه وتتوق عنده الى الظهور . وكثير من أزمات المراهقين والشباب ترجع الى حيرة عنصر الخَلْق في نفوسهم ، وعدم اهتدائه الى طريقه وفقدان التوجيه اللازم له . ومن اخطر انواع التوجيه الادبي واشدها ضرراً توجيه الشخص الى ادب لا تفقهه سنه ، وفرض نمط من الابداع لديه لا يمت الى الحركة النفسية عنده بأية صلة . وغنيٌ عن البيان ان اول قانون في توجيه اي شيء معرفة قوانينه ، وما تزال كلمة «بيكون» اصل كل عمل علمي : « إخضاع الطبيعة يستلزم الخضوع لها » اي معرفة قوانينها . ومن الطفولة حقاً ان نفرض اي نوع من انواع المثل الاعلى ـون ان نعرف أولاً وقبل ذلك ما هو واقعه الأدبي . فالمثل الاعلى هو مثل أعلى بالقياس الى واقع ادنى ، وما لم يُعلم هذا الواقع لا يصح ان يبنى ذلك المثال .

وبعد ، هذه دعوة ، نخالها جوهرية ، إلى نوع من الدراسات الأدبية النفسية لم يعرها الكتاب ما هي جديرة به من عناية . ولنا الأمل في ان تكون مصدر دراسات حيّة منتجة تعين على فهم كثير من الادباء ، كما تعين على تكوين كثير من الادباء . ولعلها تعين خاصة على اقتناص كثير من بذور الابداع الفني لدى بعض الاشخاص والحيلولة بينها وبين الانقراض إن هي لم تجد من يفهم مطالبها . إن المفكر المخلص للفكر لتذهب نفسه حسرات على الطاقات الادبية التي تخمد وتموت ؛ وإن المفكر المخلص للعلم لا تكفيه هذه الحسرات بل يهمه أن يبحث عن شفائها ؛ وشفاؤها لا يكون إلا بمعرفة تيار الحياة النفسية معرفة علمية دقيقة وتوجيهها توجيهاً مستنداً إلى هذه المعرفة .

وقد يكون لنا ، بعد هذا البحث المجمل ، عود الى تفصيله ، ونأمل أن يتاح لنا البحث في عناصره ، بدراسة أدب الطفولة والمراهقة والشباب والكهولة والشيخوخة على التوالي .

دمشق عبد الله عبد الدائم

في خدمة القرّاء

يحرر هذا الباب: عبدالله العلايلي

حول بيت من الشعر . . .

اذكر انني يوم كنت أؤلف كتابي « المرأة جسد وروح » وقفت عند هذا البيت :

بنونا بنو ابنائنا وبناتُنا بنوهنّ ابناء الرجال الأباعد

واذ كان هذا البيت حجّةً شرعية يؤخذ بها حتى اليوم – مع الأسف – لغمط حق المرأة ، ولما كنت بحثت مطولاً عن صاحب هـذا البيت والعصر الذي قيل فيه فلم اوفق الى ذلـك ، رغم اتصالي بعدد غير قليل من علماء اللغة ورجال الادب ، فقد جئت راجياً منكم افادتي عن صاحب هـذا البيت والعصر الذي قيل فيه ومدى انطباقه على الاحكام الشرعية ?

الدكتور جورج حنا

الجواب : من الخير ان نذهب في الجواب مذهب السؤال في التقسيم ، فنقيمه اولاً على ما هو تاريخي ، لننتقل من بعد الى ما هو شرعي ، او نمعن فنقيمه على جوانبه الاساسية الثلاثيـة باضافة الجانب النحوي له .

في التاريخ : على شهرة هذا البيت لدى النحاة شاهداً من شواهد في باب المبتدأ والخبر ، ولدى الفرضيين (علماء الميراث) استئناساً به منهم في بحث دخول أبناء الابناء في الميراث وان الانتساب الى الآباء ، وعند الفقهاء كذلك في بحث الوصيـة ، وفي دائرة علماء البلاغة استفاض شاهداً في التشبيه .

اقول على شهرته لدى هؤلاء كلهم لم يعرف له قائل (راجع العيني في كتاب الشواهد .) غير ان البغدادي في خزانـة الادب يضيف ان الكرماني في شرح شواهد الكافية عزاه الى الفرزدق ، (راجع ج ١ ص ٣٠٠ من الخزانة) .

ورأيت في حواشي التوضيـح لابن هشام من عزاه الى غسان بن وعلة الجاهلي ، ولعـله اشتباه اوقع فيه ان الخطيب التبريزي في شرح ديوان الحماسة لابي تمام ، استشهد به عند شرح ابيات لغسان بن وعلة المذكور ، منها:

فان ابن أخت القوم مصغىً إناؤه
اذا لم يزاحم خاله بأب جلد

في الفقه : استأنس به الفقهـاء استئناساً فقط ، تأكيداً لتعارف .. واما انه مصدر لاستمداد الاحكام فليس من درج منهم على هذا الصنيع من وجه ، كما انـه في مجال الاستدلال على قواعدهم لايملك ان ينهض دليلاً .

في النحو : هو الشاهد الثالث والسبعون من شواهد النحاة ، ووجهه : ان المبتدأ والخبر اذا تساويا تعريفاً وتخصيصاً ، يجوز تأخير المبتدأ اذا كان هناك قرينة معنوية على تعيين المبتدأ .. والمعنى :

ان بني ابنائنـا مثل بنينا ، لا ان بنينا مثل بني ابنائنا .

قال الانبـاري في الانصاف :

ذهب الكوفيون الى انه لا يجوز تقديم خبر المبتدأ عليـه مفرداً كان او جملة ، واجازه البصريون لمجيئه في كلام العرب نظماً ونثراً ، واستشهد بالبيت المذكور .

قسماً بثنايا لؤلؤه . . .

تحية وبعد ، فقد كنا جماعة من متذوقي الادب في سهرة خاصة ، فسمعنا في احدى الاذاعات العربية اغنية « مضناك جفاه مرقده » لأحمد شوقي وغناء عبد الوهاب . وقد تساءَل احدنا عن معنى بيت شوقي :

قسما بثنـايا لؤلؤه قسم الياقوت منضده

فجرى خلاف بيننا دام وقتاً طويلاً ؛ ثم اقترح احدنا ان نوجه اليكم سؤالاً عن معنى البيت ، بعد ان قرأنا في الصحف نبأ عزمكم على إصدار مجلة تعنى بشؤون الادب ، فهل لكم ان تفيدونا في الموضوع ?

نوري الأُنسي

الجواب : قبل المضي في الجواب ، يحسن ان نلفت النظر الى ان رواية البيت في الاغنية وكما هو مثبت في السؤال جاءت محرّفة ، وصواب الرواية كما هي في الديوان :

قسماً بثنايا ، لؤلؤها قسم الياقوتَ منضدهُ

واظن المعنى وفق هذه الرواية واضحاً ، فهو من ضروب التشبيه البليغ ، اي كما قسم الياقوت منضده... او من ضروب

التشبيه المقلوب ، اي قسم الياقوت منضده قسمةَ ذلك اللؤلؤ ، او هو من باب الايهام ، اي لؤلؤها قسم فيه منضده الياقوت، ومرجع الضميرين على هذا الوجه اللؤلؤ لا الياقوت .

ومثله واقع كثيراً في تراكيب القدماء ، ولا بدع فهذه القصيدة كلها خارجة مخرجها وجارية مع عمودها ... واذا ساغ هذا المعنى فيكون ناظراً الى ابيات المنازي في زعم المشارقة او ابيات حمدونة بنت زيادٍ من « وادي آش » في زعم المغاربة التي منها :

يروع حصاه حالية العذارى   فتلمس جانب العقد النظيم

وعلى تقدير ان الرواية المغناة صحيحة ، يكون المعنى : « قسم الياقوت منضده مقسماً بثنايا لؤلؤه بانها نسقٌ معها »... على اعتبار ان ثنايا لؤلؤها مثله الارفع المحتذى .

وفيه من الاسقاط والطي بيانيــاً والتكلف في التخريج نحوياً ، ما في بيت ابي تمام في المدح :

كأن لدن القنا ، يقفوك منهزماً
اذا تيممتَ أطراف القنا اللدن

فقد ذهب نفر من شراحه الى ان معنــاه : « اذا تيممت اطراف الرماح المشرعة، انت في سرعة إقدامك، كأن الرماح تقفوك وانت منهزم » .

ووجه الصورة : انت في شدة إقدامك واستبسالك ، مثلما انت في شدة انكفائك وارتدادك ، لو كنت المنهزم في لحظة مطاردة الرماح ... وفيــه من تنافر الاضداد (الاضواء والظلال) ما يدهش .

وعوداً الى بيت شوقي اقول، على تقدير ان الرواية المغنــاة صحيحة ، يكون المعنى ما سبقنا ببيانه ، وهو يستقيم اذا اخذناه بيتاً مفرداً ... ولكنه مع تتالي الاصناف المقسم بها بعد في القصيدة يبدو البيت محرفاً عن وجهه ، استحسانــاً من الملحن اللاحن على ما يظهر ، بحسبانه انه ادخل في مذاهب النغم ... واليكها :

قسماً بثناياً ، لؤلؤهــا   قسم الياقوتَ منضـده
ورضابٍ يوَعـد كوثرَه   مقتولُ العشق ومُشهَدُه
وبخـالٍ كاد يُحجّ له   لو كان يقبّـل اسوده
وقوام يروي الغصن له   نسباً، والرمحُ يفنـــده
ما خنتهواكولاخطرت   سلوى بالقلب تبرده ...

أخوة أم خو ؟

ايّ هو الصواب : خوة ام خو ؟ واذا كان التجريد هو الصواب فهل هي مذكرة ام مؤنثة ؟

« ص. ل »

الجواب : الصواب فيها حذف الهاء قطعاً ، ولم ترد باثباتها عند من يُعتد به ، وشدد به النضر بن شميل .

وتكلف اللغويون لجواز إثباتها (على معنى القطعة من الخمر، كما يقال كنا في لحمة ونبيذة وعسلة ، اي في قطعة من كل شيء منها) .

اما كونها مذكرة او مؤنثة ، فمحلّ خلاف كبير بيــن اللغويين .. جوّزهما جميعاً بعض منهم ، وانكر الاصمعي جواز التذكير .

وهذا السؤال ينبغي ان يطرح بين ايدينا من جديد مشكلة التذكير والتأنيث السماعيين ، اي مشكلة ما ليس مقترنـــاً بعلامة لفظية .

وهذه المشكلة شعر بخطرها وتعقدها القدماء فأفردوهـــا بالتأليف كثيراً ، اضف الى هذا ما جرى حول كلماتهـــا من خلاف كبير يأخذ عليك سبل الاعتماد .

ولقد عرضتُ لبحث هذه المشكلة سنة ١٩٣٨ في كتابي (مقدمة لدرس لغة العرب) ، وانتهيت بعــد بسط وعرض وتعليل ، الى ضرورة ان نأخذ بمذهب ابن السكيت وابن الانباري ، وهو : ان العرب تجترىء على تذكير ما ليست فيه علامة تأنيث لفظية ، حتى فيما ثبت تأنيثه قطعاً.. واستشهدا لمذهبهما بقول الشاعر :

(والعين بالاثمد الحاريّ مكحول) .

ولا نحتاج الى تبيان ان كلمة العين مؤنثة دون منــازع ، (راجع خاتمة المصباح المنير ص ٨٨٤ .)

عبدالله العلايلي

الكسيح ...

قصة جديدة بقلم شاكر خصباك

يحرص كاتب القصة ، الاستاذ شاكر خصباك ، على ايراد الحوار باللغة العامية ، اي كما يجري في الحياة على لسان ابطال قصته . وهو هنا يبعث من جديد قضية خلقها كتّاب اوائل هذا القرن ثم ماتت او كادت بعد وقت قصير .

و « الآداب » تخالف الكاتب في رأيه ، وتدعو الى استعمال الفصحى في كل أثر ادبي فني ، ولها في ذلك حجج وبراهين . ولكنها تترك للقراء الكرام اولاً ان يناقشوا هذه القضية ، قضية اللغة العامية في الحوار ، ولا ريب في ان النقاش نفسه سيحمل فائدة جلى .

عرفت عبد الحسين في بستان كنت اختلف اليه بصحبة كتبي لأقرأ فيه ، إذ لم يكن بيتنا الصغير الضيق صالحاً للقراءة ، فهناك شقيقاتي الخمس اللواتي يصرفن طيلة اليوم بين جدرانه وهن يتحدثن باصوات عالية مع الجارات الرائحات الغاديات لملء أوانيهن من مياه « الاسالة » او لاستعارة شيء او لقضاء الوقت . وهناك اختي الصغيرة التي تنفق بياض النهار في بكاء مزعج مثير للاعصاب وكأنه هوايتها الوحيدة ! وهناك اطفال الطريق الحفاة القذرون الذين اتخذوا زقاقنا الضيق القصير ميداناً للعبهم ؛ وراحوا يصلون الليل بالنهار في زعيق وعراك وسباب . فكان افضل مكان اهتديت اليه للخلو بنفسي هو ذلك البستان الواقع في طرف المدينة ، وكان عبد الحسين يحضر دوماً ليجمع ثمار اشجار الرمان والتفاح التي اشترى محصولها لذلك العام . وقد اعجبني هذا الرجل منذ وقعت عليه عيناي ، فوجهه الناصع البياض يفيض بالبشاشة والخير ، وملامحه الصغيرة الدقيقة تنمّ عن نفس طيبة ، ولحيته الرمادية القصيرة توحي بالهيبة والوقار . وكانت احاديثنا في بدء تعارفنا لا تتجاوز التحية وتبادل عبارات قصيرة عن الجو . ثم تنوعت مواضيعها يوماً بعد يوم ، الى ان قال لي ذات يوم وقد بدا التردد على وجهه : عمي رؤوف ، اريد ان اسألك سؤال .

فقلت : تفضل .

فقال : عمي شعجب تكّفي وكتك بطّال ؟ !

فقلت : الحقيقة اني مرغم على ذلك ، فادارة الكلية فصلتني لبقية العام الدراسي لأني اشتركت بمظاهرة وطنية ، والاشتراك في المظاهرات محرّم على التلاميذ .

فقال بدهشة : عجايب ! جا لعدمنو اللي راح يفتهم الوضع احسن منهم ؟!

فقلت : لا تستغرب يا عمي عبد الحسين ... قليل من امور بلدنا تتماشى مع التفكير السليم .

فقال مؤمّناً على كلامي بهزّ رأسه : عمي صحيح .. هوّشنو الماشي حسب الاصول هْنا . أشو الواحد مثلًا ياثي اللي يمدّ إيده عليه يلگا غالي . والفلوس تطب منّا وتطلع منّا . متنكمش مثل الزيبگ ! الواحد ما يگدر يجمع اله چم قرش ذخر لأهله ما يدري باچر شيصير ما ... بيا ساعة يدير وجهه .

فقلت : هذا صحيح ، ولكن الحمد لله انّ صحتك جيدة . وبكره أولادك يكبرون ويصيرون رجال كاملين .

فاكفهر وجهه وغمغم بلهجة مرة : وين عمي ؟! شفايتْ لي لو الله منّ عليّ بها النعمة ؟!

فقلت : يعني ما عندك اولاد ؟

فأجاب بمرارة وقد لاحت في عينيه ظلال ألم عميق : الله رزقني بولد واحد !

فقلت : فيه الكفاية والبركة ، بكره يحل محلك .

وانقطع الحديث بيننا بهذه العبارة ، وهبطت على عبدالحسين كآبة ثقيلة ! حاولت ان اصل بيننا الكلام فعجزت ، ثم قام بعد قليل وألقى التحية بتمتمة خافتة وانصرف .

حينما اختفى عن عينيّ بدأت أراجع حديثنا بدقة وتأنّ . بماذا تفوّهت فمسست جرحاً في قلبه ؟! وضربت على جبيني اخيراً وقلت : انه ولده ، وذكره مسؤولٌ عن حزنه الفجائي .

تبدد عني هذا الغموض وإذا بي أواجه غموضاً آخر . لماذا تأثر عبدالحسين لذكر ولده ؟ ! كانت لهجته في الحديث عنه تفيض بحزن غريب لا سبيل الى تبديده ! وقفز إلى مخيلتي شبحه الكئيب فأثار شجوناً عميقة في نفسي . أهو فضول ؟ لا اظن ، فلست اعهد في نفسي حب الاستطلاع الفائض عن حدّه .

وسخرت من مشاعر الكآبة التي جثمت على صدري . ما شأني به ؟ ولم هذا الانزعاج ؟ ألا يكفيني ما يكتنفني من الشقاء ؟ ! طرد من الكلية ، وحرمان عاطفي وضيق ماليّ ، وقلق وسأم ، وعشرات المآسي التي تواجهها العين وتستوعبها الاذن كل يوم فتخلف في النفس المرارة والالم .

لم يكن التفكير المنطقي بمجدٍ لي للانصراف عن سرّ عبد الحسين وولده ، وظل هذا السرّ شاغلاً ذهني . جربت في الايام التالية بطرق شتى أن أسوق عبدالحسين للخوض في شؤونه الشخصية كي يفصح عن سرّه . حدثته عن نفسي ، عما ألاقيه من صعاب في حياتي ، عن المجرمين الذين وقفوا في طريقي وأضاعوا عاماً من حياتي ، علّ تلك الاحاديث الشخصية تشجعه على الافضاء إليّ بذات نفسه . فماذا حدث ؟ جواب واحد ظل يردده كلما فرغت من الحديث : « هذي دنياتنا يا عمي رؤوف . . شسوّي ؟ ! » . وبتّ اتحرق شوقاً لذكر ولده . كلما طال صمته التهبت حماستي . كنت اخشى مفاتحته بالسؤال لئلا اذكره بآلامه . ثم وجدتني ذات يوم أسأله فجأة وبدون سابق تصميم : كيف حال الاخ يا عمي عبدالحسين ؟

فأجاب باقتضاب : على الله .

وركن إلى الصمت . فقلت بعد تردد قصير : الحقيقة اني احب ان اعرفه .

فانتفض كالحيوان الجريح وهتف بانزعاج : عمي شتعرف منّه ؟ ! خد واحد صكَط ملتهي ببلواه .

فتمتمت بتأثر : متأسف .

بقي عبد الحسين بضع دقائق مطرق الرأس . ثم رفع رأسه اخيراً وقال ببطء : والله عمي انت عزيز عندي تر . . لكن ما ما ادري شجاني .

فسارعت اقول بلطف : لا داعي للاعتذار في الحقيقة ، فانا اخطأت بتوجيه الحديث هذه الوجهة .

فصمت قليلاً ثم قال : تريد الصدگ يا عمي رؤوف ؟ آني مالّ من الناس وعمايلهم . بس يعجبهم يتفرجون على مصايب غيرهم . وآني هم ما شاء الله مصيبتي قليلة ، الله رزقني بولد واحد وگرّمه ! ! بالله عليك ، هالطفل هـذا شنو ذنبه ؟ ! باچر إذا متت شراح يسوّي ؟ ! وها المرّة فوگ قهري الله سلّط عليّ ناس اراذل متغرضيلي ويمكن باچر عگبه يگتلوني عن آني ضمنت ها السنة رمان وتفاح هاي البستان بداهم حتى اطگطك بها بالتكّان احسن ما أشتري من برّه . زين إذا صار عليّ قدر شلون راح يعيش هذا بين ها الناس اللي ما عندهم رحم ولا إنسانيه ؟ !

فقلت : الحق معاك ولكنك مبالغ في تخوفك نوعاً ما ، ولا داعي للخوف من القتل .

فقال باستنكار : ليش عمي انت ما تعرف الوضع ؟ ! أشو كتلة الانسان صارت مثل كتلة الچلب .

فقلت : ولكن ليس الى هذا الحد . وكذلك فخوفك على ابنك لهذه الدرجة مبالغ فيه ايضاً ، وما اظن الاخ عاجزاً عن العمل رغم عاهته .

فقال : والله هو يشتغل فوگ بلوته ما مقصّر .

وصمت لحظة ثم قال : متشرّفنا فدْ يوم بالتكّان .

وكنت انتظر هذه العبارة بلهفه ، فقلت بحماسة : أتشرف .

وكان اول شيء عملته في الصباح التالى هو المرور بدكانه ، لكن ولده عباس لم يكن موجوداً . واعدت الكرة عصراً فرأيته . شاب في حوالي العشرين من عمره يكاد يكون نسخة من ابيه . بشرته الناصعة البياض المشوبة بحمرة خفيفة ، ملامحه الصغيرة الدقيقة الجذابة ، عيناه الصغيرتان ، بسمته المشرقة . كان مقتعداً كرسياً منخفضاً من القش ، وساقاه مختفيتان في ثوبه الفضفاض . لم تكن تبدو عليه دلائل المسكنة التي ترتسم عادة على وجوه المنكوبين . ورأيته بعد ذلك كثيراً وتحدثت اليه . فقد صار من عادتي ان امرّ بالدكان صباح كل يوم وألبث فترة من الزمن . وكنت ألاحظ من دلائل حب ابيه له ما جعلني اعتقد انه اكثر من مجرد حب والد لولده . كان يعامله كانسان كامل . وكان يعهد اليه باعمال قد لا يستحسن العهود بها لمن تشلّه عاهة عن الحركة . فكنت اعجب كيف ابدى لي يوماً من الرثاء له ما اوحى إليّ بانه يشك بقدرته على العيش بنفسه !

☆

استيقظت ذات صباح في ساعة متأخرة كعادتي ، واذا باخواتي يتحدثن في ضجة وصخب . فخرجت إلى باحة الدار منزعجاً وقلت باستياء : ابتدأت اللغوة من الصبح ؟ !

فاستولى الصمت على اخواتي جميعاً ، ثم قالت اختي الكبرى : ـ مو أكو واحد بالعگد اليم عگدنا ذابحيه البارحة بالبستان اسم الله عليك .

فهتفت بارتياع : من ؟ ! عبدالحسين العباس ؟

فنظرت إليّ بدهشة وقالت : شدرينا والله عيني يمكن هوّ .. خطيّه المكرور يگولون عند ولد مكرّم .

فهرعت إلى ملابسي وارتديتها عجلا وجريت الى منزله . واستقبلني صراخ النساء وعويلهن من بعيد. وكان عشرات منهن يتجمعن على باب الدار وفي الزقاق وهن يتحدثن باهتمام ، وحاذيت جمهرة منهن ، فقلت وكأنني اخاطب نفسي : دفنوه بسرعة ؟ !

فالتفتت إليّ امرأة حافية القدمين ترتدي عباءة صوفية زرقاء حائلة اللون ، وقالت وهي تحاول ان تحجب بعباءتها نصفاً من وجهها : ليش يمته خلّوهم الظلاّم يجيبوه للحوش ؟ ! اخذوا للقصطخانة حتى يگطعوه بعد ، الله يگطّع رگابهم .

فأسرعت إلى المستشفى . لم يكن هناك من معارفه سوى ولده عباس . ولمحته من بعيد وهو متجمع على نفسه في إحدى زوايا الردهة الخارجية للمستشفى، وقد امتدت ساقاه الكسيحتان امامه ، ودنوت منه . كان متكئاً على الجدار وهو ساكن الحركة كأنه استحال الى قطعة من الحجارة ، وكان وجهه جامداً لا أثر فيه للحياة . وكان خطان غليظان من الدموع يجريان على خديه بصمت وينحدران الى عنقه ثم يختفيان تحت ثوبه الفضفاض . وهتفت به في تأثر صادق : صحيح عملوها به ؟!

فهبّ من جموده ، وما ان رآني حتى تدفقت دموعه وصاح بصوت باك : خويه رؤوف ، گتلوا لأبويه . . خويه رؤوف ، گتلوا لأبويه .

واغرورقت عيناي بالدموع . لست اتذكر بالضبط متى



بكيت لآخر مرة ، لكنني فعلت ذلك منذ عهد بعيد حينما كنت طفلا . وقلت بلهفة : أيمكن ان أراه ؟

فأجاب وهو يواصل نحيبه : خويه ما يخلّون أحدّ يشوفه .. خويه گتلوا لأبويه .. خويه گصوا راسه .. گصوا لراسه خويه .

وتركته وهو يبكي بكاء الاطفال ووجهه يزداد شحوباً واتجهت الى غرفة التشريح . كانت رغبتي قوية قاهرة في رؤية عبدالحسين للمرة الاخيرة ، وافلحت في غرضي بعد محاولات متعبة . ووقفت جامداً امام جثته الممدودة على طاولة التشريح احدّق فيها وانا احسّ بغثيان ودوار شديد في رأسي . وتقاذفتني افكار عميقة بعيدة المدى .. اية وحشية تلك التي تنطوي عليها نفس الانسان ؟ ! وكيف تمتد يده بالسكين الى عنق إنسان مثله فتذبحه كما تذبح الشاة ؟ ! وغادرت المكان متقزز النفس وانا اشعر باحتقار لهذه الحضارة المزيفة التي لم تمس جوهر الانسان المتوحش فتغيره او تصقله !

*

لم انقطع عن عادتي في المرور على دكان المرحوم عبدالحسين صباح كل يوم وانا في طريقي الى البستان ، وكانت حالة عباس تثير في قلبي حزناً لا حد له . فقد حطّم مقتل ابيه روحه المعنوية تحطيماً كلياً . تلاشت النظرة المرحة المتفائلة من عينيه وبدت فيهما نظرة قاسية تكشف عن ألم عميق . واكتسب وجهه طابع الكآبة والذل ، واخذ يقضي الساعات وهو صامت ساهم . وبدا عاجزاً عن العمل ، بل لم يكن يهتم في الحقيقة لأي شيء . لم يكن يشغله سوى امر واحد هو مصير قاتل ابيه.

قال لي ذات يوم وهو عابس الوجه : أ گلك ليش ما دتكمش الشرطة قاتل ابويه ؟ !

فأجبته : لا بد من التحقيق الطويل يا عباس . ما يجوز يقبضون على متهم بدون أدلة كافية .

فقال في حدة : ليش هوّ القاتل ما معروف ؟ !

فقلت : مهما يكن الامر فما يصح القبض على متهم لم تتوفر الادلة ضده . . انت تتذكر بالطبع كيف ذهبتُ الى مفوض التحقيق يوم حدوث الجريمة ، واخبرتُه بما عندي من معلومات واتهامات حول شخص معيّن كان يخشى المرحوم منه ، ولكنهم عجزوا عن القبض عليه لعدم توفر الادلة الكافية ضده .

فسكت على مضض . كان الحقد والغيظ يغليان في صدره!

« التتمة على الصفحه ٥٤ »

جورج شحاده

شاعر الحنين الى الفردوس المفقود

بقلم صباح محيي الدين

من اجمل ما خلفته حلب من ذكريات في نفسي ، زيارة الى احد تجـــار السجاد فيها . واذكر اني كنت آنذاك في حمّى المراهقة ، اجتاز تلك السن التي يكون فيها الحس أرهف مـا يكون ، وتدق فيها المشاعر حتى كأن النفس وتر مشدود يطن لهفيف كل ريح عابرة ، وتنفتح فيها الروح على العـالم الخارجي وهي لم تنفلت بعد من احلام اليقظة ومن هواجس العـــالم الداخلي. وتلك السن برزخ بين الطفولة والرجولة، تضطرب بين براءة الاولى واحاسيسها وبين ما تخبئه الثانية من واقع يومي لا يؤمن بالاحلام ولا يشفق على الرؤى ، الشوق يحملنا الى آفاق الرجولة ويمسكنا الحنين الى فراديس الطفولة .

وان هذه الاويقات الثمينة وامثالها قد استقرت في اعمـاق نفسي كواحات نيرة مونقة اعود اليها بين الحين والحين لاستجم من وعثاء الحياة واستريح من تعبها .

وها انا ــ إذ اخط هذه السطور ــ تطالعني من جديد تلك الساعة الطويلة التي قضيتها في مخزن السجاد، وقد سمّرت ناظري على ما يعرضه التاجر علي منها ، فأرى في ذلك المجـــال الضيق الذي لا يعدو الاقدام المربعة القليلة حدائق ذات ازهـــار لا مثيل لها بين حدائق عالمنا الارضي ، وطيوراً تنبض بالألوان التي تفوق الحياة في بهائها وتكاد تصدح بالغناء ، والتخيـل نفسي اعيش في ذلك العالم السحري الذي يربو على الواقع حقيقـــة ، وهو بعد ألصق بقلبي وأحب اليه .

وقد ساقتني خطاي منذ ايام قليـــلة الى متحف « غاليرا » Galliéra في باريس ، حيث اقيم معرض للسجاد الشرقي ، جمـع بين نتاج آسيا الوسطى وتركيا وايران وسوريا ، لوحات حية من النسيج تفوق بصفائها ورونقها لوحات المصورين وتزاويقهم.

وامام هذه السجاجيد شعرت كأن شيئاً قد انطلق في نفسي وحملني خارجَ الزمان والمكان، فعدت الى الوراء سنين ودافعتني الذكريات حتى ملأت علي جوانحي ولم تترك مكاناً لسواهـا . ووجدتني احدّق في سجادة تركية واستعيد بعض الشعر التركي

ظهرت مؤخراً في باريس مجموعـــة شعرية للشاعر اللبناني (باللغة الفرنسية) الاستاذ جورج شحاده بعنوان « الأشعـار » Les Poésies . وهي تضمّ كل ما نظمه الشاعر منـــذ عام ١٩٣٨ حتى الآن وتشتمل عـلى اربعة دواوين ، الثلاثـة الاولى منها تحمل اسم « اشعار » (١، ٢، ٣) والرابعَ بعنوان : « اذا كنت تعرف يمامة » Si Tu Connais un Ramier . وقد استقبلت هذه المجموعة باعجاب اجمع عليه النقاد الفرنسيون على اختلافهم .

وفي هذا المقال يعطينا الكاتب صورةً عن جوّ شحاده الشعري .

القديم الذي يتحدث عن جمال الزهور وعذوبة الينابيع وحلاوة الطفولة ، وبعض اشعار عمر الخيام ، فتأتي مكملة لما تجيش بـه نفسي من المشاعر . وكالنار تنتشر من الاقرب الى الابعـــد اخذت اترنم ببعض ابيـــات علقت بذهني من شعر « جورج شحادة » :

رب جنينات لمْ يعد لها دار	Il y a des jardins qui n'ont plus de pays
وحيدة مع الماء	Et qui sont seuls avec l'eau
تجوزها حمائم ، زرق ، ما لها اعشاش	Des colombes les traversent bleues, et sans nids

وعدت فجأة الى ذاتي اسألها عما جعلني اضع « شحادة » هذا الموضع ، بين الشعر التركي والخيام وهذه الحدائق النـيرة من السجاجيد . وما عتمت ان ادركت ماكان فكري الباطن قد عقله منذ اول وهلة . فاني ــ منذ قرأت ديوان جورج شحادة ــ وانا احاول ان اجد له صحبة لائقة في مـا اعرف واحب لـكي اضعه بين اقرانه . وقد باءت محاولاتي بالفشل حتى تلك الزيارة الى معرض السجاد .

هذا إذن هو شعر جورج شحادة ، سجادة تحوي في نطاقها الصغير جمال الحدائق وروعتها ، وهذا هو عالمه الشعري ، عالم ضيّق ضِيق السجاد او ضيق الحدائق المغلقة في اروقة الاديرة او في البيوت القديمة التي آنست طفولتنا ، حيث لا ترى العين سوى سروة او دفلى وشجيرات من الورد او الياسمين وفسقية يتفجر منها الماء في سير رقيق . وهذه الحدائق على صغرها بحر ليس له ساحل للمتأمل، يتركز الفكر في نطاقها فيذهب الى لب الاشياء وجوهرها ، ولا يتبعثر أمام الآفاق الواسعة التي يضيع فيها الفكر ويذوب التأمل .

ان شعر شحادة حديقة ضيقة ، ولكنّ فيها للنـاظر زاداً لا يفنى وفي شجيراتها وغدرانها الرقيقة رقة انامل الاطفال، مفاتيح لعوالم الطفولة والبراءة . وخير وسيلة لدخول هـذه الحديقة ، ان نتجرد مما علمتنا اياه السنون ونعود الى ايامنا الاولى ، حين كنا نؤمن بالأساطير والخرافات .

وقد قال احد النقاد في شعرشحاده انه « حنين الى البراءة»، براءة الطفولة الاولى ونقائها . وهذا صحيح يبدو للقارىء لاول وهلة ، في انتقاء الصور واختيار الكلمات .

وجورج شحادة يدور في هذا الفلك الصغير العميق معاً ، مما يؤدي به الى الاقلال، فلا يخرج عن صمته الا نادراً ، حين تدك الرؤى اسوار السكوت وتنطلق من عقالها لتستقر على الصفحة البكر ، كما ان بعض الكلمات والصور ذاتها تكاد تتردد في كل قصيدة من قصائده القصيرة كاللحن الاساسي في السنفونيـــة ، وتتعانق كما تتشابك خيوط النسيج تفتلها اصابع الصانع وتوجهها في رفق وتؤدة فتحيك منها الاثر الرائع . وهكذا شحـــادة متعلق بالكلمات التالية كأنها تعاويذ سحرية ما يكاد يتلفظ بها حتى يخلق منها عالمه الفريد :

الورد ، الطفولة ، الزهر ، الياسمـين ، الاوراق ، الشجر ، الغابة ، العصفور ، اليمامة ، الحمـام ، النجم ، البستان ، الرؤيا ، الماء ، البحيرة ، البحر ، النبع . . .

وهذه كلمات تفيض شاعرية بدائية قد ذهبت برونقها كثرة الاستعمال ومر الايام ، ولكن شحادة بفنـه ونَفَسِـهِ - يشيد منها دنيا شعرية تأخذ بالقلب ، ويعيد الى هذه الالفاظ الحائـلة رونقها الاصلي ، ايام تمتم الانسان بالشعر اول ما تمتم .

وهنا أود ان اعترف باني قرأت ديوان جورج شحادة اكثر من مرة . ففي المرة الاولى وجدتني كالناظر من خلف نافـذة زجاجية غشاها المطر ، فلم أر الا معالم غامضة وصوراً بعيدة . ولكني لم أيأس (انظر قصة القرد والجوزة في« كليلة ودمنة ») وعدت الى الديوان مرة بعد مرة ، فتفتحت امام ناظري عوالم من السحر والجمـال . وكذلك الأثر الفني الحق غني بالمفاجآت ، يعطيك من فيضه كلما وردته دون ان ينضب له معـين ، ولا تزيدك صعوبة اول لقاء معه الا رغبة في اكتناه اسراره .

فالشعر على شكلين ، شعر يأتي اليك دون عناء فيعقـــله دماغك قبل ان يستقر في فؤادك ويتلذذ به حسك ، وهذا هو الشعر السائر ، وهو في متناول كل ناظم ولا يتطلب كبيرجهد من الكاتب ولا من القـــارىء . وشعر آخر يتصدى لك من بعيد ، فلا ترى منه الا لمحات تشوقك وتثير ظمأك اليه . فاذا انت رغبت في ان تكشف النقاب عنه ، وجب ان تسعى اليه وتبذل في ذلك جهداً غير قليل - جهد الباحث عن الذهب او الماس في جوف الارض - حتى يتفتح لك ما استغلق عليك منه . وما اعظمها متعة حين ذاك ، ويا ماءاه ويا ظلاه ، ويا واحة القلب الصادي !

وهذا هو شعر « جورج شحادة » ، لا يتفلسف ولا يسعى الى الملاحم ، بل يسيل من الروح الى الروح ، وليس ذلك دون جهد ، اذ دون ائتلاف الارواح سدود من العادات واسوار من الاساليب الموروثة في التفكير والنقد .

وهذا الشعر من النوع الذي لا يعطي الا بقدر ما يَأخُذ ، فهو شعر تحابّ ومشاركة ، لا ينفتح الا على المقبل عليه بكل نفسه وحواسه ، ويكاد يستوي فيه حظ القارىء والشاعر في الخلق والابداع ، وينطبق عليه قول باسكال في الباحث عن المسيح « ما كنت لتبحث عني لو لم تكن قـــد وجدتني » . فالمسألة اذن مسألة شاعرية القارىء ، وقابليته على المساهمة في ان ينفخ من روحه فيما كتبه الشاعر ويساهم في اخراجه الى حيز الوجود . ولذا يخيل لبعض الافكار البليـدة الغافية على مفاهيم مبسطة للشعر والشاعرية وللذين يتلقون غذاءهم الروحي ممضوغاً او نصف مهضوم ، ان هذا النوع من الشعر مغلق غامض .

والواقع ان هذا الشعر أسهل ما يكون منالا لمن يفتـــح عليه عينين من السذاجة والبراءة ويأتيه بقلب طهور . فهـــو ينفصل عن الواقع البحت - وهنا يضيع زبائن الشعر التقليدي -

مختارات من شعر شحادة

رب جنينات لم يعد لها دار	Il y a des Jardins qui n'ont plus de pays
وحيدة مع الماء	Et qui sont seuls avec l'eau
تجوزها حمائم ، زرق ، ما لها اعشاش	Des colombes les traversent bleues et sans nids
ولكن القمر زجاجة من الهناءة	Mais la lune est un cristal de bonheur
والطفل يستعيد ذكرى فوضى كبيرة صافية	Et l'enfant se souvient d'un grand désordre clair
———	
سترجع النجمة على البستان الخرب	L'étoile reviendra sur le jardin détruit
كأنها نقطة ماء الولادات	Pareille à la goutte d'eau des naissances
وتنفتح الطيور التي فرغ صبرها	Les oiseaux s'ouvriront qui n'ont plus de patience
ولتكون ـ عندها ـ رؤيا الليلة الاولى	Et ce sera le songe de la première nuit
يا حبيبي انا في مرج	A mon amour je suis dans une prairie
مع اشجار في مثل سني	Avec des arbres de mon âge
ولكن غزلاناً تمر في الجفون الوسنى	Mais des gazelles passent dans les cils endormis
والمنيّة، هذه الامسية ، هي ابنة الزمان الحبيب	Ce soir la mort est la fille du Temps bien-aimé
———	
في هذه البرية حيث تموت الشمس	Dans cette campagne où le soleil meurt
كما يعب جواد	Comme un cheval boit
يحمل العشب والزمن ذات الالم	L'herbe et le temps ont la même peine
وتزيح كمنجة ظلالاً بيدها	Un violon chasse des ombres de sa main.
تذكر مستنقعات البحر البعيد	Rappelle-toi les étangs de la mer lointaine
حين تتوسّد ارض الاطفال	Quand tu dormiras dans la terre des enfants

ويبصر أبعد من الواقع اذ يرى ما يحيط بالاشياء من هالة مثقلة بمختلف الممكنات الفريدة . والشاعر هنا ـ والقاريء ايضاً ـ كالطفل يشيد بخياله قصوراً بما بين يديه من قصاصات وقلامات، ويرى في السحاب مدناً اسطورية سقوفها من ذهب وشوارعها من زمرد ومرجان ، ويجعل من القصبة الجوفاء جواداً ينطلق على صهوته نحو العوالم المرئية وغير المرئية .

فهذا اذن شعر صعب المنال على الذين يفضلون ما سهل من مسالك الشعر والفكر ، ويترددون امام السبل الوعرة وان كانت تنفتح على آفاق عذراء لم تفتضّها عين من قبل .

ومن يرغب في السهولة فلديه لامارتين وامثاله ، يسيل شعرهم كالنهر امام الناظر ويغيب عن عينيه في اول منعرج يلاقيه . اما هذا الشعر الذي نحن في صدده ، شعر جورج شحادة وقرنائه امثال هنري ميشو ورنيه شار وسان جون برس . . . فيتفجر من اعماق القاريء الذي اسبغت عليه آلهة الشعر نعمة التناغم الشعري ، ويهف كأريج الزهر يحمله النسيم الآتي من بعيد ، فما يتنسمه المرء حتى يرى رأي العين حدائق غناء ، وياسميناً ووروداً واشجاراً مزهرة من البرتقال ، او هو كالنغم الشريد يطرق السمع فيرجع صداه في طيات الذكرى ومعارج الخيال ، وينتصب حوله عالم من السحر الموسيقي البديع .

✲

وقد يتساءل القاريء الى اية مدرسة شعرية ينتسب جورج شحاده ؟ وانا من الذين يقولون بسخافة هذه الاصطلاحات التي تقسم الادب والشعر الى مدارس واساليب ، كأنّ انتاج الفكر بصل وفجل او دجاج وبقر . ولكن ذلك يسهل على النقاد مهمتهم ، وعلى القراء فهمهم ، اذ يخيل لهم انهم يصبحون اقرب الى الشاعر او الكاتب اذا صنفوه بين الابداعيين او التأثريين او غيرهم .

والمتعارف عليه بين اكثر النقاد اليوم ان جورج شحاده من اتباع المدرسة السريالية Surréaliste وهكذا قال شيخ السرياليين وزعيمهم اندره بريتون André Breton حين مثلت مسرحية شحاده « السيد بوبل » في العام الفائت ودعمه في ذلك رؤوس السرياليين مثل رينه شار René Char وبنجمان بيريه Benjamin Péret وهنري بيشيت Henri Pichette . ولهذه المسرحية قصة طويلة ، فقد اشعلت حرباً كلامية بين انصار الشعر الكلاسيكي والمؤمنين بالشعر الحديث على صفحات الجرائد الفرنسية . وقد رأى الآخرون في مسرحية جورج شحاده « أثراً ذا جمال خارق » .

وقد ظهرت في باريس اخيراً مجموعتان من الشعر الفرنسي الحديث ، تبوأ فيهما جورج شحاده مكانه بين كبار الشعراء المعاصرين من هنري ميشو Henri Michaux الى بول ايلوار Paul Eluard واندره بريتون André Breton ...

ومهما تكن المدرسة التي قد تطالب بجورج شحاده ، فانه ينطق بلسان الشاعرية الصرفة ، لسان الذين لا تسعهم مدرسة ولا يعترفون بآلهة سوى ربة الشعر .

«باريس» صباح محيي الدين

قصة يد ...

بقلم بهيج عثمان

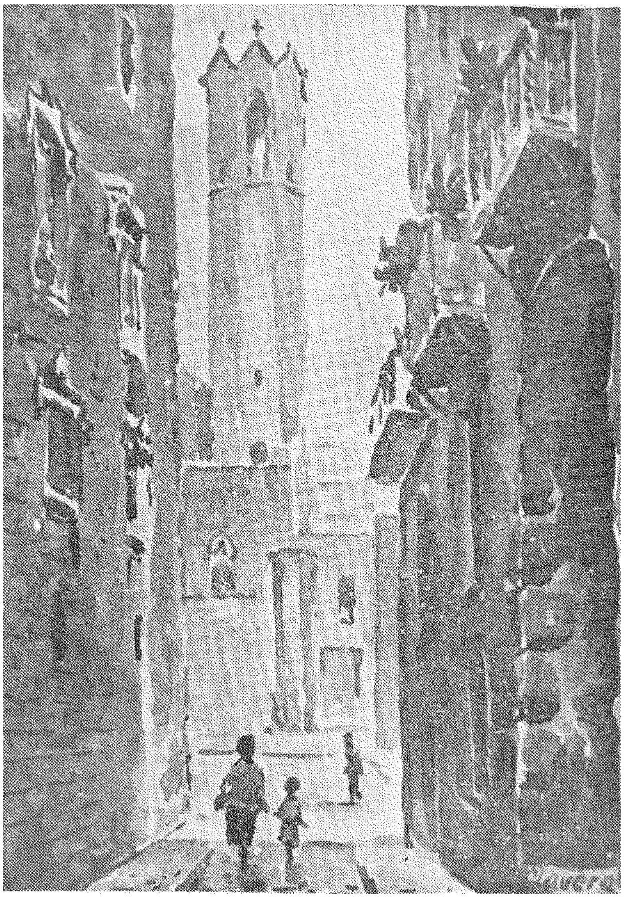
وقفت فجأة في زقاق من أزقة برشلونة . زقاق يوحي ضيقه وارتفاع الجدران على جانبيه ، وتآكل الحجارة التي تفترش أرضه ، بانه قد أمعن في التاريخ بعض الشيء ، وبانه قد شهد أجيالاً من الناس قبل عصرنا هذا! .

وما كان لي أن أقف مشدوهاً ، فقد رأيت مثل هذا المشهد عشرات ... إن مشهد الرسامين في شوارع برشلونة غدا مألوفاً لا يثير في نفسي دهشة او عجباً ، فما أكثر ما اعترضني على الأرصفة ، وعند المطلات الجميلة ، وأمام الأبنية الأثرية رسامون قد جلسوا على مقاعد واطئة وأمام كل منهم مرسمه النقّال ، وفي يده اليسرى « كفته » يستمد منها الألوان التي يفرضها المنظر الذي يرسم ، وفي يده اليمنى ريشته تخط على القماش او الورق ، الخطوط والظلال والاضواء ، وبين يدي ذلك كله صف طويل من اللوحات الجاهزة تتكيء على الجدار بعد أن نفض الرسام يده منها وأصبحت تحت أنظار الراغبين من المارة ...

ما كان لي ان أقف مشدوهاً لولا أن هذا الرسام كان مقطوع اليد اليمنى ، فكان مشهد الردن القصير المدلى مؤثراً تأثيراً بعيد المدى في نفس الناظر المتوسم ، وكان هذا الردن ذو الجوف الفارغ يتحرك حين يتحرك جسم الرسام وهو يخط بيده اليسرى على لوحته ...

اقتربت من الفنان فألقيت عليه سلاماً فيه حنو وفيه إشفاق وأقبلت على اللوحة بين يديه فتأملت خطوطها وقارنتها بالمشهد الطبيعي الذي عنه ينقل ... ثم قدمت إليه نفسي : إنساناً آتياً من الشرق ، رأى فيه مثلاً حياً من أمثلة الكفاح العنيد ، واستأذنته في أن يحدثني عن حياته الفنية ، ففهم ما أريد ، وأقبل نحوي متكلماً الاسبانية حيناً والفرنسية حيناً آخر ، ومعبراً بحركات من يده اليسرى تدعمها حركات غير كاملة من يده البتراء ، في أكثر الأحيان .

كان رساماً كبيراً ، ولوحاته الجميلة معروفة في قصور الاغنياء في برشلونة . وفي الحرب الأهلية الاسبانية أصابته شظية من قنبلة ، وقد اختارت الشظية يمناه لها هدفاً . ولما نقل إلى المستشفى رأى الطب أن لا بد من قطع اليد اذا أراد أن يعيش ...



وقطعت يدي .. قالها لي في زفرة صادرة من أعماق القلب ، فأبيت عليهم الا أن يعرضوها علي بعد قطعها حتى أودعها الوداع الأخير . فلما أفقت من غيبوبتي حملوا إليّ طبقاً من أطباق المستشفى ، ورفعوا عنه الغطاء الأبيض ، ورأيت يدي ... رأيت بقايا يدي مصبوغة بالدماء ، ورأيت أناملي ذابلة صفراء ... وبكيت بكاء مراً مما رأيت ....

أناملي المفكرة التي خطت لوحات ولوحات ...

أناملي التي كنت أعبر بها عما في نفسي من عواطف وخلجات .

إنها نفسي كلها تذهب أمامي ، وأبقى بعدها لا أملك من أمري شيئاً ... وصرخت : لماذا أبقى

دون أناملي ؟ كيف أخاطب الناس ؟ هل أستطيع أن أرى ما خطته أناملي من لوحات في كل مكان ؟ ما عساي أن أفيد بعد الآن ؟ ما نفع المطرب ذي الصوت الساحر اذا أصيب بالبكم ؟

أناملي الضائعة .. كنت أخاطبك فتجيبين ، وأبثك نجواي فتفيضين بها على القماش صادقة مخلصة حية ، لقد ذهبت وأسفاه، وتركتني أرى الجمال فلا أملك أداة التعبير عنه ، وتمتلىء نفسي بالفكرة فينطوي بعضها على بعض دون أن تظهر وتنتقل إلى العيون التي ترى وتتأمل وتذوق .

في أي سجن تريد الأقدار أن تسجنني ؟

وغطيت عينيّ لا أريد ان أرى نفسي الذاهبة في أناملي ، وفني الذي مات وتوقف عن الاستمرار .. غطيت عيني بيدي اليسرى فتذكرت أن لي يداً أخرى ما تزال ...

صحيح أنها لم تصلح يوماً الا للحمل والنقل وإمساك الاشياء

وصحيح أنها لم تمرن على التعبير والرسم ، ولكن ماذا يمنعني من أن أروضها وأتعهدها حتى تحل محل أختها التي ذهبت ؟ ألم يخط ليوناردو دي فنشي أروع لوحاته بيسراه ، وفي مقدمتها لوحة « الجوكوندا » الخالدة ؟

وكانت أسابيع وشهور ، واذا يدي اليسرى تمرن وتتدرب قليلاً قليلاً ، حتى أصبحت طيعة لما تفيض به نفسي ، وما لبثت أن دفعت باللوحة إثر اللوحة ، والمشهد تلو المشهد ، معبرة عن الجمال في صدق وبراعة وفن ، ألا ترى ذلك في هذا الصف الطويل من اللوحات ؟

•

وهنأت الرسام بحرارة ، ممسكاً يده اليسرى بكلتا يديّ ، على بطولته في استعادة نفسه التي أوشكت أن تلحق بيده اليمنى وفي استعادة مجده الذي كاد أن يضيع ، وقد تحدى القدر بعناد شديد وصبر عجيب .

وابتعت لوحة من لوحاته، وعلقتها في غرفتي بعد أن سميتها: « قصة يد » .

بهيج عثمان

موت سيجارة

للدكتور

سليم حيدر



أشعلت سيكارتي وبي كدرُ   والشمس عند الاصيل تنحدرُ
والغيم من خلفها مذهبة   اردانه تنطوي وتنتشر
والروض حولي على خمائله   يجري نسيم كأنه حذر
يكاد سمعي يحسُّ همهمةً   خرساءَ يأسى ليأسها الحجر :
في خضرة الوارفات هلهلةٌ   صفراء فيها يقهقه القدر
جاء الخريف الذي نحاذره   فاستسقِ يا روض، صوّح الشجر!

★

أشعلت سيكارتي ، وملت على   نفسي ، ومال الاصيل يحتضر
واوغلت في الذهول أخيلتي   تهبو وتخبو وما لها وطر
جياشة كالدخان فورتها   هفهافة كالدخان ينحسر
واي شيء ، تُرى ، بعالمنا   يبقى له في يد القضا أثر ؟

★

سيكارتي ، يا رؤىً مصعّدةٌ   تهفو سخاءً ، فتبرز الصور
روما ، ونيرون ضاحك ثملٌ ،   سيكارةٌ في هواه تستعر
وكم لتيمور من محرّقةٍ   دخانها يعتلي وينصهر
وكم لجنكيز ... ما لنا وله   ماضٍ مضى وانطوت له سير
اليوم عهد الضياء ، ساطعةً   انواره ، والعلوم تزدهر
اليوم عهد الوفاق .. جامعةٌ   دولية والاخاء يأتمر
اليوم عهد السلام .. قنبلةٌ   ذريةٌ ، والدمار ينفجر !

★

سيكارتي ، يا زواغ ما شهدت   عيني ، أحسُّ الماء يعتكر
لجسّي وإجي ، وحرّ في كبدي   قتلًا بقتلٍ ، وينقضي العمر
لأنتِ رمز الحياة في ددها   يحلو لكِ الانكسار والظفر
الليل آتٍ وانت ذاهبة   ها قبلتي ؛ والوداعَ يا سمر
مهلًا فما قبلة تجود بها   حبيبة والدموع تنهمر
والليل حانٍ على مُفارقةٍ   الا دخان اذا انجلى سحر !..

★

لجي وإجي ، وضخمي نفَسي   ولتعقدِ الغيمَ من فمي الزفَر
قيثارتي قُطّعت وشائجها   لم يبق فيها لرغبةٍ وتر
في خضرة الوارفات هلهلة   صفراء يا روض، ما ترى الخبر؟
أطفأت سيكارتي وقلت لها :   موتي سراعاً .. ويهمد الشرر!

النتاج الجديد



بين بين

للدكتور طه حسين
١٦٠ صفحة
دار العلم للملايين – بيروت

•

لا أكتم « دار العلم للملايين » انني احسست بشيء من السخط والموجدة عليها ، حين قرأت عنوان هذا الكتاب الجديد : « بين بين » تخرجه اليوم للناس تخدعهم به ، وباسم صاحبه ، عما هم فيه من حاضر مليء بالمكاره ، ينذر بمستقبل قد يأتيهم بألوان اخرى من المكاره هي اشد قسوة ، واكثر فجائع واهوالا .

فلقد احسست ، اول الامر ، ان في هذا العنوان شيئاً من القصد الى العبث ، على حين لا نحتاج في يومنا الحاضر الى شيء ، كحاجتنا الى الجد الصارم العنيف نتدبّر به أمرنا ، وندفع به عن انفسنا وأهلينا وأوطاننا كيد الكائدين ، وطمع الطامعين .

ولا أكتم « دار العلم للملايين » كذلك انني اتهمتها في اختيار طه حسين ذاته تخرج له كتاباً مما يكتبه اليوم ، وهو انما يكتب في هذه الايام ، بعيداً عن الحياة التي يحياها الناس في بلده ، بعيداً عن الدنيا التي يعيشها الناس في اوطان الناس كافة ، بعيداً عن رسالته التي كنا نعلم أنه مؤمن بها ، جاهد في نشر تعاليمها ، ناشط في تأييد الحق الذي يمشي في ركابها ، او تمشي هي في ركابه .

وكدت أقصد الى نقد هذا الكتاب قبل ان أقرأ صفحة واحدة منه ، عامداً أن أنقد مؤلف الكتاب نفسه ، لانا نعلم أن هذا العنوان الذي صدر به الكتاب ، هو أصدق ما يصدق اليوم على طه حسين نفسه ، لأن الرجل اليوم هو غير الرجل بالأمس ، ولأن الأديب منه عاد يكتب الأدب للترف والتسلية بعد أن كان يكتب الأدب لبؤس البائسين وعذاب « المعذبين في الأرض » ، يصور آلامهم ، وينتفض لكراماتهم ، ويثور من اجل حقهم في الشبع والصحة والمعرفة ، ومن أجل حقهم في الكرامة والعزة والأمن والدعة .

لقد عاد طه حسين ، في أيامه الأخيرة – وبلده مصر تزخر بالأحداث الجسام ووطنه وادي النيل يقف من التاريخ على مفترق طرق – عاد يتلهى بالقصص المكتوبة يوجزها في عمودين من « الاهرام » ويصفها وصف الناقد المتأنق المتحذلق ، الفارغ القلب من هموم الحياة ، الخلي النفس من مشاغل الدنيا ، الهارب من جد العيش الى شيء كثير من اللهو والمتعة الهادئة المطمئنة الوادعة ، المنهزم من معركة الحرية الى إيثار السلامة واستطابة العافية ، واستظلال الأمن والعزلة والراحة ...

وما أصدق أن تقرأ عنوان هذا الكتاب الجديد هكذا : « طه حسين ... بين بين » .

نعم ، إنه اليوم « بين بين » : أي بين الأديب الذي يقيم لانسان هذا الكون وزن الانسان : يعنى بانسانيته فيما يكتب ، يعنى بعيشه وحريته وكرامته وإرادته ، وبين الأديب الذي لا يقيم لانسان هذا الكون وزن الانسان : يراه يضطرب بالسلاسل والقيود والأغلال ، ويتململ بالعبوديات من كل صنف ولون ، ويرزح من البؤس والظلم والخوف بالأحمال الثقال ، ولكنه يعرض عنه عامداً متعمداً ، ويروح يدبج هذه الفصول الطوال في « الأهرام » يحلل هذه الأقصوصة ، ويفلسف هذه الرواية ، ويتمدح هذه الأسطورة ، وقد يتغنى بظواهر من أمور الحياة الحاضرة لا تغني عن الحق شيئاً . . .

*

نعم ، لقد كدت أدع هذا الكتاب الجديد تصدره « دار العلم للملايين » باسم طه حسين ، فلا اقرأ منه صفحة واحدة ، وانصرف الى نقد طه حسين نفسه ، ولكني لم استطع ذلك ، فالرجل عندي كبير كبير ، والرجل في حياتنا الفكرية ، اي في حياة جيلين من اجيالنا الفكرية العربية ، اديب عظيم ، ومفكر كان اول من فتح لعقولنا سبيل التفكير العقلي الموضوعي ، وإنسان يجمع الى نفسه مزايا الانسان المتفتح للحياة يحسها بكل جارحة ، ويتصل بها من كل طريق ، وينفذ الى جوانبها واعماقها من كل باب .

فكيف استطيع ان انصرف – إذن – عن كتاب جديد يصدر لطه حسين ، فلا أقرأ كل حرف فيه ، ولا اعيش معه ساعات اجوب فيها الى جانبه شعاباً من الحياة وأرى فيها وجوهاً من العيش ، واتصل فيها بنفوس كثيرة ذات ألوان من نفوس الناس ؟

واخذت الكتاب أقرأ اول فصوله « بين الأدب والسياسة » فاذا هو ادب قد استوفى حقه من الادب ، واذا هو سياسة قد استوفى حظه من السياسة ، واذا الادب فيه لا ينفصل عن

السياسة ، واذا السياسة لا تنفصل فيه عن الأدب ، فليس هو — إذن — « بين الأدب والسياسة » ، وإنما هو كل واحد منهما كاملاً ، يتمازجان معاً ، حتى يكونا امراً واحداً ، لا أمرين اثنين .

لقد كتب طه حسين هذا الفصل منذ سبعة عشر عاماً ، ووصف فيه من حياة مصر ما نراه اليوم في حياتنا هنا وهناك ، فكأنه كتبه في لبنان ليومنا هذا ، وكأنه كتبه في كل قطر عربي لحياته التي يحياها حتى هذه اللحظات ، وكأن ما صوره من وجوه رجال السياسة والحكم والادارة والثراء والجاه في مصر ، قصد به الى تصوير هذه الوجوه التي تطالعنا صباح مساء في هذه الديار ، وفي كل دار عربية ، وما ندري الى اي مدى من الزمن ستظل تطالعنا بالشؤم كل صباح وكل مساء ؟

ولكن ، هذا هو الفصل الثاني « أدب الصيف » ينقلنا ، على حين فجأة ، من جد الحياة وهزلها ، الى شيء من الكلام ليس هو بالجد ولا هو بالهزل ، ولكنه أشبه بتثاؤب المتعب المكدود يغريك بالتثاؤب ، في حين تكون شديد الحاجة الى النشاط والتوثب والحركة والانطلاق ... وما اعرف كيف اختار جامعو الكتاب ، هذا الفصل « المتثائب » الى فصول تكاد تطفر وتثب من فرط الحياة والنشاط ؟

ولست أعرف ، كذلك ، كيف اختار جامعو الكتاب ، الى تلك الفصول ، هذا الفصل الثالث « حوار في الأدب » ؟ . ألعلهم قصدوا إليه قصداً حتى يتحقق اسم الكتاب « بين بين »؟.

صحيح أن هذا الحوار يتصل بأديب مفكر شامخ كأبي العلاء ، ولكنه فصل لا يحقق شيئاً خطيراً من أمر أبي العلاء ، فليس فيه أكثر من أن هذه القصيدة من قصائد المعري تصف حنينه ، وهو في العراق ، إلى وطنه بلاد الشام ، وهذا المعنى يعيد فيه طه حسين ويبدىء ، ثم يعيد ويبدىء ، وكأنه لا يقصد من ذلك إلا أن يزجي فراغاً ، أو ينشر مقالاً ...

واستثن ، بعد هذا ، فصلين آخرين من الكتاب ، هما : « لبنان » و « دَيْن » ، لأنهما لا يعنيان إلا طه حسين نفسه ومفوضية السياحة والاصطياف في لبنان ، ليس غير ! .

أقول : استثن هذين الفصلين الآخرين ، ثم اختر ما شئت من فصول الكتاب الأخر ، فاقرأه ، وتعمقه ، وأبعد فيه نظراً ، فسترى هذا الأديب يتحدث إليك عن ضمائر النفوس ، وعن خوالج الأفئدة ، وعن صور الحياة السياسية ، وعن معاني الذوق ، وعن مفاهيم الحكم ، وعن مظاهر البؤس والظلم ، وعن اعراض الفساد الاجتماعي ، حديث أدب وفن ، فاذا كل هذه المعاني والصور والمفاهيم قائمة في واقع الحياة تحس وجودها إحساساً باليد أو بالعين او ما شئت من أدوات الاحساس ، واذا كل هذه المعاني والصور والمفاهيم تتلاقى وتنسجم في إطار واحد ، هو إطار الأدب والفن ، وإذا هناك مزاج من السياسة والاجتماع والفكر والأدب والفن جميعاً ، وإذا الأدب يؤدي معناه الفني في معناه الانساني الواقعي دون أن تقول إن هذا سياسة مثلاً طغت فيه السياسة على الأدب ، او تقول إن هذا أدب طغى فيه الأدب على السياسة ، لانه لا فصل بينهما البتة .

فهذا طه حسين يصور لك « الضمائر القلقة » في مصر ، في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ويرد أسباب القلق في الضمائر ، إلى القلق في الحياة السياسية والاقتصادية والادارية والاجتماعية ، إلى هذا الضيق بالعيش الذي تنشئه الحرب في حياة الشعوب ، وإلى هذا الضيق بالاغلال والقيود التي تستتبعها الحرب في سياسة الاوطان ، وإلى هذا الضيق بالتحلل والتفسخ الاجتماعي الذي تنشر الحرب جراثيمه في الجماعات .

« فأهوال الحرب من جهة ، ومصاعب الحياة الاقتصادية من جهة أخرى ، والتغييرات السياسية من جهة ثالثة ، والبؤس والحرمان اللذان ينتهيان الى الجوع والشقاء في بعض الطبقات من جهة رابعة ، كل ذلك خليق ان يعقد منافع الناس أشد التعقيد ، وان يقوي الأثرة في نفوس الأفراد والجماعات ، وان يضطر كل واحد من أفرادهم وكل جماعة من جماعاتهم الى الاحتياط للنفس ، والاستكثار من الخير ، والاستعداد للمستقبل ، والتحفظ من الطوارىء ، والتخلص من المشكلات ، والنفوذ من الخطوب . فليس غريباً أن يدفع هذا كله الناس الى حياة لا تقوم على أمن الضمائر واطمئنان القلوب ، ولا تقوم على الثقة والصراحة ، وانما تقوم على القلق والخوف ، وتقوم على الشك والحذر ، ولعلها ان تقوم على الكذب وعلى أخلاق تتصل بالكذب من قريب او بعيد (ص ٨٢) » .

أترى كيف يرجع طه حسين ، في هذه العبارة ، بالقضية النفسية ، والقضية الأخلاقية ، والقضية الاجتماعية ، والقضية الاقتصادية ، الى مصادر واحدة لا فصل بينها ولا انعزال ، فاذا مشكلات النفس والضمير والعيش والاجتماع والسياسة ،

تتلاقى جميعاً وتترابط وتتفاعل ، واذا هي كلها تصدر عن اسباب وعوامل واقعية قائمة في حياتنا اليومية ، واذا الحرب من اعظم المصادر لهذه المشكلات والأزمات جميعاً .

ثم ، أترى كيف يضع طه حسين هذه المسألة الفكرية على تعدد نواحيها وخصب نتائجها ، على هذا الوجه البسيط لا تحس معه جهداً في البحث والتفكير ، ولا مشقة في التحليل والتعليل ، فاذا انت أمام الحقيقة الواقعية تكاد تعانقها عناقاً بقلبك وعقلك وشعورك جميعاً ؟

ذلك هو فعل الفن الواقعي العبقري ، وتلك هي رسالة الأدب الصحيح .

وبعد ، ليت طه حسين مستطيع ان يبرىء عبارته من هذا المط والاسهاب ، وليته مستطيع ان ينزه أسلوبه من هذا الالحاح في التأكيد والتوضيح ، ليته مستطيع ان يفعل ذلك ، إذن لكان فنه الفنَّ الذي يؤدي الرسالة بأجمل أداة ، وأبرع وسيلة ، وأخصب أسلوب ، وأقرب طريق الى النفوس والعقول والمدارك والملكات .

وشيء آخر أريد أن أقوله في هذه الفصول الرائعة في كتاب « بين بين » ، وهو ان طه حسين فيما يصف ويصور من مشكلات الحياة والنفوس والضمائر ، انما يقتصر على الوصف والتصوير ، وما نراه يتجاوز ذلك مطلقاً الى وضع الحلول الصحيحة الكاملة لهذه المشكلات ، ولو فعل ذلك ، لكان فنه الفنَّ الذي يؤدي الرسالة بأنبل طريقة ، وأكمل وجه ، وأنفع سبيل ، ولكان أدبه الأدبَ الذي يجمع العظمة من أطرافها ، وأحسب أن طه حسين يتجافى عن قراءة الأصول العلمية للمشكلات الانسانية : الاقتصادية والسياسية والاجتماعية او عن تعمق هذه الأصول التي يقوم عليها هذا الانقسام الكبير العميق بين عالمي الأرض .

حسين مروه

دُرّ !!

« منها ... بعد سهرة »

يا اخا الحُبّ لا أُحسُّ — بكَ — الأيـ
امَ ، حتى كأنَّما هـي نَهرُ
هـي تنسابُ بي الى شاطيءٍ حـ
فَّ مجاليه من ودادِكَ زهرُ
كلَّما شئتُ ان أقرَّ بجنبـ
ـيّ ، تمثّلتَ لي .. فكيفَ أقرُّ
كان هـذا الهلالُ يرْعَى خُطانا
لا عدِمْناه راعياً وهْو بدرُ
ليتَ شِعري ، هل هلَّ الا وعندي
منكَ بينَ الضلوعِ بردٌ .. وحرُّ
انَّ مَن تَسهرُ الليـاليَ لا تسـ
أمُ عـدَّ النجوم ، وهـي تمرُّ
كلَّما قلّبتْ جفونِيَ في الأنـ
ـجُمِ ألحاظَها رأتْ ما يَسُرُّ
قَمرٌ طالـعٌ ، ودربٌ منيرٌ
وحديثٌ عذبٌ ، ووجـهٌ أغرُّ
انا استنشقُ النسيمَ ، وفيـه
منكَ راحٌ تُنْشي ، ورُوحٌ تَبرُّ
فاذا جازَ بي ، لمسْتُ على الورْ
دِ شفاهاً — او كدتُ — وهي تُسِرُّ
أفتدري ما ذا تُسِرُّ ؟ .. برأيي
أمسِ أبدَيْتَـهُ ، وكلُّكَ بِشرُ
حينَ صرّحتَ انَّ شِعريَ .. (لا ، لا ،
كلُّ لفْظٍ منهُ ، على فيكَ) .. درُّ !

البحرين — ابراهيم العريض



قرأتُ العددَ الماضي من "الآداب"

باب تفتحه المجلة ابتداء من العدد القادم يتناول فيه احد الكتاب المعروفين مقالات « الآداب » بالدراسة والنقد .

قضيَّة الكِتَاب العَربيّ

قضية الكتاب العربي في يومنا هذا هي قضية الفكر العربي الاولى والأخيرة ، وقضية الفكر العربي هي قضية الحرية — حرية التفكير والتعبير . فعلى الرغم من جميع مظاهر التقدم المادي في وسائل التأليف والطباعة والنشر والترويج، لا يزال الكتاب العربي مهدداً بالحرق والمصادرة والاضطهاد اذا لم يلتزم سبيل الاتّبــاع . فالكتاب العربي لا يستطيع ان يخرج عما تفرضه غوغائيـة الشارع وتعصب المتزمتين من رجال الدين واهواء الحكام المستبـدين ومصالحهم . فسواد الشعب جاهل لم يفسح له المسيطرون مجالاً الا للتعلّل بخرافاته ، وهو حريص عليها حرص البخيل على الدرهم . ورجال الدين من جميع الملل والنحل يخشون الكتاب الحر الطليق لا خوفاً على كتبهم المنزلة بل خوفاً على هيمنتهم القائمة في اغلب الاحيان على الجهل والظلام . والحكام يخشون الكتاب لان سلطانهم قائم على القوة والاكراه لا عــلى الحرية والاختيار . وصراع الكتاب العربي هو صراع الحق الاعزل ضد الطغيان المسلح ، صراع العلم ضد الخرافات ، صراع المعرفة ضد السحر ، صراع الروح ضد المادة .

وقد دوّن لنا التاريخ الكثيرعن مصادرة الكتب وحرقها وعن ملاحقة أصحابها والتنكيل بهم عندجميع الشعوب . وفي حين نرى ان اكثر الشعوب المتقدمة قد اجتازت تلك المرحـلة من تاريخ تطورها ونال الكتاب بين ظهرانيها الحرية والانطلاق ، لا يزال الكتاب العربي مكبـلاً ملجماً مهــدداً بالحرق والاضطهاد ، ولا يزال الكتّاب الاحرار مهددين بالتنكيل والتجويع .



نقل زميل من زملائي كتاباً من إحدى اللغات الاجنبيـة جديراً بانتباه القارىء العربي لا لما يحتويه من آراء وفكر قيمـة فقط بل لما يشتمل عليه من غيرها خاطئة بعيدة عن الصواب .

وقدم زميلي الكتاب الى دارين من دور النشر العربية فردتـه الاولى لانها خشيت غضب الشارع ورجال الدين والحــكام ، ودفعت به الثانية الى حَكَم ليعلق على نقائصه ويشير الى محاسنه فحكم عليه بالوأد ودسه في غياهب الدار . ووأد الكتب كوأد البنات عادة روحها جاهلية . والكتاب في كل بلد عربي لا يزال تحت رحمة الشارع ورجال الدين والحكام . ولن يتبوأ الكتاب العربي مركزه اللائق بين كتب العالم ما دامت جماهير الشعب العربي جاهلة يسيرها ذوو المصالح من رجال الدين ومـا دام الحكام يحاربون كل نسمة من نسمات الفكر الحر الطليق خوفاً على مصالحهم القائمة .

ان الكتاب لا يحيا الا في الآفاق الواسعــة، والفكر لا يعيش وينمو الا في الاجواء الحرة . وليس للكتاب حـدود ثابتة كما ليس للفكر حدود ثابتة ، وليس لهما طلاسم من السحر تقيها منافسة الفكر والكتب الاخرى. ولا يجرؤ على التفكير الحر والكتابة الحرة والقراءة الحرة الا الرجل الحر ، وبالتفكير الحر والتعبير الحر فقط يستطيع الكتــاب العربي ان يؤدي الرسالة المرجوة منه في بعث روح الحرية والانطلاق وتغذيتها لدى العرب حتى تستقيم للعرب مكانتهم في التاريخ وتتفتــح امامهم الفرص للمساهمة الحرة في بنيانه .

فعلى الكتّاب العرب ان يثابروا على الجهاد في سبيل حرية الكتاب العربي المطلقة مهما يعتريهم من مصاعب وعقبات ومهما يمعن المسيطرون من رجال الدين والحكام في التنكيل بهم وفي تجويعهم ومصادرة كتبهم حتى يتثقف الشعب ويصبح الدعامة الكبرى في حرية الكتاب والضمانة الاولى والاخيرة للمحافظة عليها . والكتاب القيم يمثل سلافـة الحياة وعصارة الدماء التي تجري في عروق النفس العبقرية يحفظها في طياتـه من جيل الى جيل . فمن قتل كتاباً قتل الحياة وقتل الخلود نفسه .

نبيه امين فارس

المرأة في حياة شاعر

(بقية المقال المنشور على الصفحة ١٧)

البرء والشفاء ؟ قد تكون الجرعة في فمه مرة المذاق وقد تكون على شعوره شديدة الوطأة ، ومع ذلك فهو يتقبل المرارة راضياً لأن فيها حلاوة الامل المتمثل في استعادة العافية .. يتقبلها راضياً حتى اذا تعذر الشفاء فقد وجب السخط على الجرعة الخادعة ، ثم لا يكون بينه وبينها غير التمرد وفي اعماقه الصدّ والاعراض .

كان علي طه هو ذلك المريض الذي برح به الداء وخدعه الدواء ، فلم يكن هناك بدّ من الامتناع عن تناوله والبحث عن عقّار جديد ؛ عقار يستطيع ان يقبل عليه وهو آمن من مرارته وواثق من قضائه على الآلام والاوجاع .. من هنا تمرد علي ذلك الحب الروحي وأوصد ابوابه في وجهه حتى ليدفع عن تلك الابواب كل طارق من الاشباح :

لم اقبلت في الظلام إلي ؟ ولماذا طرقت بابي ليلا ؟
لات حين المزار ايتها الاشباح فامضي فما عرفتك قبلا !
اتركيني في وحشتي ودعيني في مكاني بوحدتي مستقلا
لست من تقصدين في ذلك الوادي فعذراً إن لم أقل لك أهلا
ذاك مأواي في تخوم الفيافي طلل واجم عليك اطلا
قد تخليت عن زماني فيه وهو بي عن زمانه قد تخلى!
ابرحي بهوه الكئيب فما فيه لعينيك بهجة تتجلى
قد نزلت العشي فيه على قفر جفته الحياة ماء وظلا !
كان هذا المكان روضاً نضيراً جر فيه الربيع بالامس ذيلا
كان فيه زهر فعاد هشيماً كان فيه طير ولكن تولى!
فاسلمي من شقائه ودعيه وحده يصحب السكون المملا
واطرقي غير بابه ان روحي أحكمت دونه رتاجاً وقفلا!

ابيات مقتطفة من قصيدة عنوانها « ايتها الاشبـــاح » في الصفحة الثامنة والاربعين من « الملاح التائه » . انها اشباح حب قديم ، إنها اطياف حلم عابر ، انها وفود الذكريات اقبلت تطرق بابه والناس نيام ! لماذا اقبلت وقد اقفر الروض فلن يصدح على افنانه طير ؟ لماذا اقبلت وقد صوّح الزهر فلن يعبق من اوراقه ارج ؟ لماذا اقبلت وقد جف النبع فلن ينبثق من اعماقه مـاء ؟ لماذا اقبلت وقد نامت بين احضان الخريف لياليه ولن تصدق في نومها للربيع احلام ؟ ألا فلتتركه في وحشته ولتدعه في وحدته فقد نسيها حتى لتنكرها العين وتجهلها الذاكرة ، ويفزع الفكر من مرآها وتهجس الظنون .

ترى هل لقي علي طه في ذلك الحب اليائس كل هـذا الغنى الذي تخيله وهو « يعدد » ألوانه ومعانيه ، ترى هل لقي فيـه الروض قبل ان يقفر والزهر قبل ان يذبل والنبع قبل ان يغيض ؟ كلا ، وإنما هو إحساس الذي اكثر من شرب الخمر كما قلنا « فتعددت » امام ناظريه صور المشاهد والمرئيات ، فلما تخلص من أثر الكأس بدت الحياة من حوله وليس فيها من تخيل الغنى شيء وإنما فيها من واقع الحرمان اشياء. ألا تراه هنا وهو يصرخ في وجه الذكريات قائلًا لها انني لا اعرفك ، وكأنها من اجل هذا لا تستحق ان يفتح لها الباب او يفسح الطريق . انه هتاف الساخط المتمرد او هتاف الثائر الملتاع ، حين يشعر بعد فقد القليل الذي كان يوماً ملك الروح واليدين ، انه لم يملك من قبل شيئاً وان الحياة منذ بدئها متصلة الفراغ .. هذه هي الحقيقة النفسية التي تدور حولهـــا الحقائق الاخرى وكأنها تدور حول محورها الأصيل ؛ ولقد وقفنا عندها قبل ذلك وقفة من يرفع المصباح بين يديه ليصل الضوء الى القادمين من بعيد !

هكذا كان وجود المرأة في حياة علي طه الاولى او فيما قبل الثلاثين ، وهو الوجود الذي يشبه العدم كما قلنا وتنطفىء فيه شعلة الامل ، ويموت الشعور بالزمن ويخفت كل حداء رددته قوافل الايام .. واستمع لعلي طه وهو يلخص حقيقته المادية في ختام قصيدة عنوانها « الأمسية الحزينة » في الصفحة الثالثـة والثلاثين بعد المائة من « الملاح التائه » ؛ هناك حيث يخاطب المرأة التي احبها بالروح فقُتل في هواها الشباب :

يا من قتلت شبابي في يفاعته ورحت تسخر من دمعي واناتي
حرمت ايامي الاولى مفارحها فما نعمت باوطاري ولذاتي !

هذان البيتان هما ختام المشهد الاخير في قصة حب يائس ، ويا لها من قصة زخرفت مشاهدها بالوان من الصراع خرج منها الشباب وهو صريع .. ألا تسمع علي طه وهو يشير الى « ايامه الاولى » التي حرم فيها الاوطار واللذات ولم يلق منها غـير الدموع والانات ؟ ان في هذه الاشارة نقطة التحول من مرحلة الى مرحلة او من نهاية الى بداية ؛ من مرحلة الحزن والانطواء الى مرحلة البهجة والانطلاق ، ومن نهـــاية الموت الذي يلغي الشعور بالزمن الى بـــداية البعث الذي يسجل قصة العمر من جديد .. مضت حيـاة واقبلت حياة ، وفي اليوم الاول من هذه الحياة الجديدة حدّد علي طه ساعة الميلاد ، وكأن ايامه الماضية كانت جنيناً مات قبل مولده فخرج الى الدنيا ولكنه لم ير النور ! ألم تكن معه وهو يلخص حياته الحقيقية في بيتين من

الشعر ويقول عنها انها حلم من الاشواق يؤثر ان يطيله ، وان بدايتها كانت كأساً من الخمر غنى لها الفن والشعور وهو في صحبة امرأة جميلة ؟ ! حقاً لقد بدأت الحياة عنـــده في كيان أنثى واندلعت شرارتها الاولى من جسد امرأة ، وها نحن معـه في هذه القصة الجديدة نتابعه فيما حوت من فصول ومشاهد تقدمها سطورٌ اخرى غير سطور الامس . . سطور تقول لنا ان علي طه قد تخلص من قيود ماضيـه وبدأ يستروح أنسام الحرية في ظلال حاضره ، واستطاع ان يشق طريقه الى الجسد الانثوي وان يخطو في هذا الطريق بضع خطوات !

ولا تعجب اذا رأيت في خطواته الاولى حرارة الاندفاع وفي اعقابها مرارة الندم ، لان عنف النقلة بين الامس واليـوم قد رجّ بوتقة الشعور حتى ليصعب ألا يمتزج فيها انفعال بانفعال .. ان علي طه هنا يشبه طالب المال الذي ضاقت في وجهـــه السبل فاتجه لاول مرة نحو مائدة الميسر ، حتى اذا اقبل عليـه الحظ وتذوق نشوة الكسب مضى يراجع نفسه ، ثم خرج من هذه المراجعة وشعوره الاول مزيج من انفعالين : احدهما ينطق باللذة التي يثيرها الغنى بعد طول الفقر والاملاق وما يتبعها من طول الترقب والانتظار ، والآخر يجهر بالالم الذي تحسه النفس حين تدرك ان الطريق الذي سلكته الى الغنى لم يكن اشرف طريق .. هناك الرضا بان اليد قد امتلأت بعد ان قضت اكثر ايامها وهي قابضة على الهواء ، وهنا الندم الذي ينظر الى اليـد الممتلئة وكأنها قد دُنّست بعد طول ألفتها للطهر والصفاء :

تلفت ! فهذا خيال التي ... مرحت وغردت في وكرها
وغرفتها لم تزل مثلمـــا ... تنسمت حبك من عطرها
وقفت بها ساهماً مطرقـاً ... يحدثك الليل عن سرها
مكانك فيها كما كان امس ... وذلك مثواك في خدرها
وآثار دمعك فوق الوساد ... وفوق المهدل من ستَرها
فهل ذقت حقاً صفاء الحياة ... وذوب السعادة في ثغرها ؟
اذا فتح الباب تحت الظلام ... فكيف ارتماؤك في صدرها ؟
وكيف طوى خصرها ساعداك ... ومرت يداك على شعرها ؟
لقد دنس الجسد الآدمي ... حياة حرصت على طهرها
بكى الفن فيك على شاعر ... تسائله الروح عن ثأرها !
نزلت بهـا وهدة كم خبا ... شعاع وغيب في قبرها
رفعت تماثيلك الرائعات ... وحطمتهن على صخرها !

ابيات مقتطفة من قصيدة عنوانها « هي » في الصفحة الرابعة والاربعين من « ليالي الملاح التائه » .. انها الرجفـة التي هزت كيانه بعد ان التقى في حياته بالجسد الانثوي فاضطرب منـه الشعور بين حاضره وماضيه ، بين الحب الروحي الموحد وبين الحب الجسدي المشرك ، بين فنه الذي عاش بالامس في كنف الطهر وبين فنه الذي تردى اليوم في هوة المعصية ، بين الشاعر الذي حلق في جو الشباب الاول بجناح ملَك وبين الشاعر الذي حلق في جو الشباب الاخير بجناح شيطان ! لحظة من لحظـات النفس الانسانية وهي تحاسب صاحبها وتراجعه وتقيم ميزانهـا لتقدير الامور : كفة فيها الحياة طاهرة ولكن فيها الالم الممض والقلق المبرح وسياط العذاب ، وكفة فيها الحياة مشوبة ولكن فيها اللذة العارمة والنشوة الجارفة وامتلاء الفراغ ؛ ويحـــار المحاسب وهو بين الكفتين ولكنها الحيرة التي تعتري الشعور ولا تطول ، لان مائدة الميسر هنا تحفل بالاغراء وتزخر بالغواية حتى لتذهل النفس بعد حين عن كل مراجعـة وكل حساب .. انها شهوة المقامرة حين تلوّح لصاحبها باحلام الثراء بعـد ان دفعت به الى اول تجربة فخرج منها وهو ممتلىء اليدين ، حتى اذا تكررت التجربة وتجدد الكسب خفت في الاعماق صوت الندم على انه قد حاد يوماً عن الطريق !

هذا هو المنظار « المقرّب » الذي يختصر مسافة البعد بينك وبين الشاعر وكأنك تراه من المدى القريب .. إنه في موقف النادم على حياة « حرص » على طهرها ثم دنسها الجسد الآدمي ، حتى لقد بكى الفن فيه على شاعر تسأله « الروح » ان يثأر لما لحق بها من هوان ! ترى هل حرص على ان تظل تلك الحيـاة طاهرة كما يقول ؟ كلا ! وانما هي صيحة الضمير المحرج امام ثورة الندم وهي عاصفة ، حين يفزع الى الخيال يلتمس عنده العون لانقاذ واقع جريح .. وقل بعد ذلك انه شعور التجربة الاولى ، فلما حان موعد التجربة الثانية ، لم تعـــد « الروح » تسأل عن ثأرها وانما الذي عاد يسأل عن ثأره هو « الجسد » ، بعد ان غمرته بفيض اللذة تلك المائدة المشتهاة ! واستمع لعـلي طه وهو يردد هذا المعنى ترديداً قوياً في « بحيرة كومو » حيث يقـول لصاحبته الامريكية :

ما تسرين ؟ افصحي ! ... ان في عينك الخبر ..
الغريبان هـا هنـا ... ليس يجديها الحذر !
نحن روحان عاصفان ... وجسمان من سقر
فاعذري الروحان طغى ... واعذري الجسم ان ثأر !
نضبت خمر بابـل ... وهوى الكأس وانكسر
وهنا كرمة الخلود ... فطوبى لمن عصر !
فيم والنبع دافـق ... يشتكي الظامىء الصدر ؟

أين هذا المتهالك على الجسد الانثوي هنا من ذلك المـتردد

المشفق المحاذر هناك ؛ في تلك التجربة الحسية السابقة التي نسي بعدها كل تردد وكل حذر وكل اشفاق ، انها النتيجة الطبيعية بالنسبة الى رجل ضاق بحرمانه وسخط عليه ، انه التحول المنتظر في خطوات شاعر لقي من الحب الموحد ما جعله يكفر به ، انه الاتجاه الذي لا غرابة فيه حين ينتهي السخط الى تمرد وينتهي التمرد الى تحديد خط سير آخر في طريق الحياة.. ولقد حدد علي طه خط سيره عندما خرج من نطاق البيئة التي نشأ فيها وراح يتنقل بين شتى البلاد الاوربية ، طلباً لمتعة النفس والحس والفكر والخيال . ولقد عرف في هذه البيئات الجديدة كيف ينعم بهواء الحرية وكيف يتنفس بملء رئتيه ، لأن البيئة المصرية في بداية الربع الثاني من القرن العشرين لم تكن قد تخلصت من ظلال كل موروث من التقاليد . كانت هناك مرحلة انتقال من غير شك ، ولكنها المرحلة الاولى التي تتحول فيها الاوضاع الاجتماعية ذلك التحول البطيء الذي لا يبلغ حد التهور على كل حال .. تيارات فكرية متحررة بدأ الشرق يتلقاها عن الغرب ، ويتأثر بها الشباب تأثر من يلتمس في الجديد خلاصاً من نظام رتيب ؛ ومن هنا خطت البيئة المصرية اولى خطواتها نحو التحرر الاجتماعي ، ومن صوره الوافدة تلك العلاقة بين الجنسين ؛ كانت خطوة زاحفة الى الامام ولكنها لم تكن مندفعة ، لأن خيوطاً من الماضي القريب كانت تشدها الى الوراء وتكبح جماحها من حين إلى حين ، كلما حاولت في فورة الانطلاق ان تحطم في طريقها كل الحواجز والعقبات .. ولقد وجد علي طه في تلك المرحلة الانتقالية بعض العزاء ، ولكنه العزاء الذي لا يغني الرغبة الحبيسة عن التطلع الى اتجاه معلوم ، انه الظمآن الذي لا يملأ نفسه منظر الماء وهو « منساب » من الغدير وإنما تمتلىء به النفس وهو « متدفق » من النهر الكبير ، ولهذا آثر شاعرنا ان يعب من نهر اللذات في كل بيئة لا تضن بفيضها على أمثاله من الظامئين :

قلت لي والحياء يصبغ خديك : انار تمشي بها ام دماء ؟
ملء عينيك يا فتى الشرق أحلام سكارى وصبوة واشتهاء
وعلى ثغرك المشوق ابتسام ضرجته الاشواق والاهواء
أوحقاً دنياك زهر وخمر وغوان فواتن وغناء ؟
قلت يا فتنة الصبا حفلت دنياك بالحب والمنى والاغاني
ما اثارت حرارة الجسد المشتاق الا مرارة الحرمان !
ان اجسادنا معابر ارواح الى كل رائع فتان
انا اهوى روحية العالم المنظور ولكن بالجسم والوجدان
ما تكون الحياة لو انكر الاحياء فيها طبائع الاشياء ؟
أنا اهواك كالفراشة صاغتها زهور الثرى وكف الضياء
انا اهواك فتنة صاغها المثال من طينة ومن إغراء
انا اهواك بدعة الخلد صيغت من هوى آدم ومن حواء !

ابيات مقتطفة من قصيدة عنوانها « فلسفة وخيال » في الصفحة الحادية والعشرين من « شرق وغرب » . واما الحديث هنا فيدور بين الشاعر وبين صاحبته الاسكندينافية .. ما اصدق هذا الشعر الذي يقدم صاحبه كما تقدم المرآة الصافية وجهاً من الوجوه لا أثر في قسماته لفعل الطلاء ؛ ما أصدقه في الدلالة على هذه الحالة النفسية التي ينتفض فيها الكيان البشري وهو ينتقل من السكون الى الحركة ومن الصمت الى الضجيج ومن خلف الجدران إلى الفضاء العريض ؛ ما أشبهه بوثيقة المعترف الذي يقول كل ما في نفسه ليريح ويستريح ، حين تواجهه بالدليل المادي الذي ينم عليه فلا يجد بداً من البوح والافضاء .. واي دليل مادي هذا الذي نعنيه ؟ انه الشوق الملح إلى انتهاب اللذة حين تطل النار من تحت الرماد ، وتشع في بسمة من الشفة او في نظرة من العين ، وكلتاهما كلمة « صامتة » إذا اغريتها بالنطق تطوع للترجمة عن مدلولها اللسان. ولقد قال علي طه تلك الكلمة لصاحبته بعينيه وشفتيه ثم بلسانه ، قالها صريحة لا مواربة فيها جريئة واضحة لا يطالعك منها تحرج ولا غموض ... عينان من « الشرق » تضج بين أهدابها الشهوة وتنزى الصبوة وينـدلع اللهيب ، وشفتان تقطر منهما الرغبة وينبعث الشوق وتتحفز اللهفة للوثوب ، وحين يسأل « الغرب » عما وراء النار من اسرار لا يسمع غير صوت واحد هو صوت الحرمان .

هذه هي الكلمة التي تقف من السؤال موقف الجواب ، وتفسر كل حركة من حركات النفس وكل فورة من فورات الجسد ، وتبرر في هذه المرحلة الانتقالية تحول الشاعر من حال إلى حال .. انها الكلمة التي تفسر كل حركة هناك بالنسبة الى شاعر كم حن إلى تذوق الجمال ، وكل فورة هنا بالنسبة الى رجل كم سعى إلى تذوق المرأة ، ولن تستطيع في شخصية علي طه ان تفرق بين « الرجل » و « الفنان » ؛ إنه لم يكن واحداً من الذين ينشدون الجسد الانثوي بغية اللذة الخالصة لطغيان الغريزة ، حين تتحكم الغرائز وحدها في تجارب الحس وتتجه بها إلى دائرة معينة أو مجال مقصود .. لم يكن في ضوء معرفتنا الشخصية به واحداً من هؤلاء ، وإنما كان على التحقيق واحداً ممن ينشدون ذلك الجسد لأن فيه اللذة وهي « مقترنة » بالجمال ، وكأن المرأة هي المعبر الرئيسي لكل شعور يريد ان ينفذ إلى

ما وراء الصور الحسية من قيم جمالية .

هكذا كان في حياته وهكذا كان في شعره ؛ لا تفرقة بين تذوق اللذة وبين تذوق الجمال ولا فصل بينهما في عالم الشعور او في كل عالم منظور.. لقد عشق في المرأة صورة الجسد «اللذيذ» وعشق في الجسد اللذيذ صورة المعنى «الجميل» ، ومن هنا امتزج الاحساسان في نفسه حتى لقد أصبحا « وحدة » متماسكة ليس إلى تجزئتها من سبيل . إن فيه « الرجل » الذي اقبل على المادة وإلى جانبه « الشاعر » الذي أقبل على الروح ، وهما لونان من الحب بينهما من القرب ما يلغي الفواصل ولا يعترف بالابعاد .

هناك رجل لا يستهويه من الزهرة غير اللذة « المجردة » التي ينقلها اليه طيب الرائحة ، وهذا هو المزاج العادي الذي يقصر التذوق على اللذة المادية . وهناك رجل آخر لا يقصر التذوق على مثل تلك اللذة ما دام إلى جانبها جمال تعشقه الروح ، لأن الزهرة عنده « لون » و « عطر » ؛ لون يبهر وعطر يفوح ... وهذا هو المزاج غير العادي لأنه مزاج الفنان ؛ مثل ذلك الرجل الاول صاحب مزاج لا يمكنك ان تصفه بأنه مزاج رفيع ، لأنه يستقبل المشهد المادي ممثلًا في الزهرة بحاسة واحدة ، وكأن الحواس الاخرى قد فقدت وظائفها الرئيسية . هذه الحاسة الواحدة التي نعنيها هي حاسة الشم التي تبحث عن العطر ولا تبحث عن شيء سواه ، وسواء لديها وجدته في الزهرة أم وجدته في « زجاجة الكولونيا » ما دامت كل منهما تنفح الشعور بنشوة الرائحة ؛ لو اشتركت عنده حاسة النظر مع حاسة الشم لغدت الزهرة في إحساس العين والأنف وهما كما قلنا لون وعطر ، ولتحول هذا الاحساس الخارجي بعد ذلك إلى إحساس داخلي هو في لغة النفس لذة وجمال ... وهنا تجد المزاج الفني المرهف عند الرجل الأخير .

مزاجان في تذوق الزهرة يقابلها مزاجان في تذوق المرأة ؛ مزاج « فني » عند علي طه ومزاج « عادي » عند شاعر مثل بيرون .. لقد كانت المرأة عند الشاعر الانجليزي جسداً وجسداً فحسب ، وكانت لذة ولذة فحسب ، وكانت « حاسة الجنس » هي أداة التذوق الوحيدة هنا كما كانت « حاسة الشم » هي أداة التذوق الوحيدة هناك ! انه الرجل الذي لا يشتهي الجسد الانثوي الا لغرض واحد ، هو ان يخمد صوت الغريزة كلما تردد بين جنبيه صداه .. اللذة المادية ولا شيء غير اللذة المادية ، حين يسعى غيره من اصحاب الهوى الجسدي الى معنيين أحدهما قريب والآخر بعيد ! كل أنثى في منظار بيرون جسد لذيذ ولا شيء وراء الجسد اللذيذ غير إرضاء الشهوة . . أرأيت الى الرجل الأكول الذي تنحصر قيمة الطعام عنده في معنى واحد هو انه وسيلة مجدية ضد الشعور بالجوع ؟ ان كل الاطعمة في رأيه « لذيذة » ولو كان بعضها في رأي العرف لا يهضم ، «شهية» ولو كان بعضها في رأي الغير لا يستساغ ، لانه لا ينشد كغيره جودة الطهي وطيب المذاق ، وانما ينشد لذة الشبع وامتلاء المعدة ! في هذا المثال المادي تجد الشاعر الانجليزي في اصدق ما تقدمه الطبيعة البشرية من ملامح وسمات .. انه الرجل « النهم » الذي استطاعت « معدته الجنسية » ان تهضم جسد اخته دون ان تفرق بينه وبين غيره من الاجساد ، لان امتلاء المعدة كما قلنا هي كل الغايات عند امثاله من الجائعين ! !

لقد كان بيرون يشتهي الصورة الانثوية في كل إطار : في إطار الاخت ولا خجل ، وفي إطار الصديقة ولا حرج ، وفي إطار زوجة الغير ولا ترفّع ، وفي إطار كل عابرة سبيل ولا تهيّب ؛ وليست الغاية هي الاحساس بالجمال لانه لم يكن يتذوق في الصورة الانثوية شيئاً من القيم الجمالية .. هكذا كان ولا حيلة له في ذلك الشر الوراثي الذي اختلط بدمه وخلّف له هذا المزاج الاباحي المستهتر الذي لا يقيم وزناً للعرف ولا للتقاليد ! ولم يكن علي طه بأقل منه نهما الى الجسد الانثوي ولا هيَاماً به ولا تهالكاً عليه ، ولكنه لم يكن إباحياً ولا مستهتراً ولا شريراً تبعاً لاختلاف البيئة والنشأة وأثر الوراثة في تكوين الشخصية الانسانية ! كان كما عرفناه يعفّ عن المرأة حين يدرك بفطنته او بانسانيته انها ليست بائعة جسد في سوق الرذيلة . . كان يفرق بين الصديقة وبين العشيقة ، بين امرأة خلقت للحب الروحي وبين امرأة خلقت للحب الجسدي ، بين ثمرة مهيأة للقطاف وبين ثمرة مهيأة للصون والعفاف !

لقد عرف علي طه الكثيرات وتنقل بين هوى الغانيات ، ولكنه كان أبداً يعلو فوق مستوى الموقف الذي يلغي عند غيره الشعور بالانسانية ، كان ميزانه للمرأة هو الميزان الذي لا ينحرف في تقدير إقبالها على الرجل وفي فهم غايته ومرماه : امرأة تقبل بكيانها اللافح فهو إقبال الجسد، وامرأة تقبل بوجهها البريء فهو إقبال الروح ، وامرأة تقبل بحديثها المصفّى فهو إقبال الصداقة ، وامرأة تقبل بنظرتها الكسيرة فهو إقبال من ترتجي العون وتنشد الرعاية .. وكل هذه النماذج الانثوية

قد مرت بـــه وأكثرت من المرور فاختلف إزاءها الحس والشعور .

نعم ، هو هذا الذي يفرق في الحب بكلا نوعيه بين النساء ويفرق بينهن في كل مجال يتصل بالعطف أو يتعلق بالعاطفـة ، لأنه الرجل الذي لمس بعد طول الطواف بعالم المرأة أن لكلٍّ غاية ولها وسيلة . واستمع له وهو يحدثك حديث نفسه في أول قصيدة من ديوان « الشوق العائد » وعنوانها كما عرفت من بداية هذا الفصل « سؤال وجواب » :

تسائلني : وهل احببت مثلي ؟ وكم معشوقة لك او خليله ؟
فقلت لها وقد همت بكأسي الى شفتي راحتها النحيله
نسيت، وما أرى احببت يوماً كحبك، لا، ولم اعرف مثيله
فقالت لي جوابك لم يدع لي الى إظهار ما تخفيه حيله
وفي عينيك اسرار حيارى تكذب ما تحاول ان تقوله !
فقلت اجل ،عرفت هوى الغواني لكل غاية ولها وسيله !
وعدت كما ترين صريع كأس انا الظمآن لم يطفىء غليله
فقالت كيف تضعف قلت ويحي وكيف اطاع شمشون دليله ؟
فقالت ما حياتك قلت حلم من الاشواق اوثر ان اطيله
حياتي قصة بدأت بكأس لها غنيت ، وامرأة جميله

قصيدة اخرى من قصائده الاعترافية .. لقد عرف المرأة من كل جنس ولون ، ومع ذلك فهو ظمآن إلى الجسد فاذا سئل عن السر هناك اجاب بانه مرارة الحرمان ، وإذا سئل عن السر هنا أجاب بانه الضعف امام فتنة الغواية وأسر الجمال وسحر الاغراء ؛ وكل انثى تلقاه بهذه الاسلحة مجتمعة فهي دليلة التي تتحكم في مصير شمشون ، وهو صادق في الجواب الاول كما هو صادق في الجواب الأخير ، لأنه كان عاشق لذة باسم الرجولة وعاشق جمال باسم الفن ، ولقد تعرضنا للصلة بين المعنيين في نفسه فيما سبق من حديث .. واعجب بعد ذلك لمثل هذا الرجل الذي كم عبّ من نهر اللذات وكأنه لا يعرف الري ، حين يعفّ وهو في غمرة الظمأ المتصل وفورة الحسّ المشبوب ، عن كل امرأة يدرك أنها « تحفة » ثمينة يجب أن تحفظ في « معرض » الشعور وتصان ، وليست بتلك « السلعة » الرخيصة التي تباع في الاسواق ولا ضير عليها من الهوان .

ألا ما أكثر الوجوه الانثوية التي كان يلقاها أو يسعى إلى لقائها وبين جنبيه رغبة تحتدم ؛ رغبة تريد أن تمتص من ثدي الحياة كل قطرة من عصير اللذة وكل دفقة من رحيق الجمال ، وحول المرأة وهي النبع الرئيسي كم حامت الرغبة المحتـــدمة كفراشة تشغل عن مسّ النار باشراق النور ! والكأس ... والكأس كانت دائماً تحتل مكانها من المائـدة كلما ارتفع صوت الجوع من الاعماق النهمة ليشبع الجسد ، وكأنما كانت الكأس هي « فاتحة الشهية » كلما صُفّت على المائدة ألوان الطعام ، إنك لا تكاد تجد حديثاً عن المرأة في شعر علي طه الاخير دون ان تجد بين طياته ذلك الهيام بنشوة الكأس ، وكذلك كان واقعه النفسي وهو يمزج بين النشوتين في واقع الحياة .. هيـام بالمرأة وهيام بالخمر وهيام بالطبيعة ، وكأنـــه وهو الذي كم عشق الموسيقى في حياته ، كان يحس معنى النغم في لفتـة الجسد وفورة الحبب وجمال الوجود .

هذا هو علي طه وهذا هو مكان المرأة في حياته .. ترى هل كان يستطيع ان «يبغضها» بعد كل هذا الذي قلناه؟ سؤال.. وافتح الصفحة الثامنة والثمانين من ملحمة « الارواح والاشباح » لتستمع إلى « الشاعر » وهو يقدم اليك الجواب :

أأبغض حواء وهي التي عرفت الحنان لها والرضى ؟
وباع بها آدم خلده ولو لم يكن لتمنى القضا ؟
ورثت هواها فرمت الحياة وحبب لي العالم المبغضا
اراها على الارض طيف النعيم وحلم الفراديس فيما مضى

★

وكانت حياتي محض اتباع فصارت طرائف من فنها
وكان شبابي صمت القفار ورجع الهواتف من جنها
فعادت ليالي الصبا والهوى ارق المقاطع في لحنها
وافرغت بؤسي في حضنها واترعت كأسي من دنها

★

قضى الله ان تغوي الخالدين وتغري بالمجد عشاقها
لقيت على بابها الفاتحين وغار الفتوح وابواقها
وكل مدل عصي القياد دعته الصبابة فاشتاقها
سلا مجده الضخم في قبلة تذل وتسعد من ذاقها

إن الجواب هنا يقول إن حواء قد حببت اليه الحيـــاة ؛ وحسبك أنها قد ملأت دنياه أنساً بعد وحشه، وأملاً بعد يأس، ونوراً بعد ظلمة ، وإيماناً بعد شك ، وبسمة مشرقة تهز بصفائها آفاق النفس والفن بعد دمعة محرقة تلفح بوهجها شعاب القلب ومسارب العاطفة .

القاهرة

انور المعداوي

تصوير...

لأحمد سليمان الأحمد

بونس ايرس

يُطيلُ المساءْ
ونحنُ على لا لقاءْ
ولا موعِد
يُعَطِّرُ جُرْحَ غَدِي
ولا الدوحَةُ الغافيَهْ
تَهَدَّلُ أغصانُها الحانيه
على شاعِرَيْنْ
أتدرينَ أينْ؟!

*

هنالكَ.. في الاخضر المرتدي
رؤى الشَّذْوِ والأَلقِ المُجْهَد
هُنالكَ حَيثُ المُنى
شُعاعٌ تَماوَجَ... ما ألْيَنا
وحيثُ الخَيالْ
جَناحٌ يرودُ المُحالْ
يطوفُ بأمنيةٍ لا تُنالْ
ويخشَعُ يسألها في ابتهال

*

هُنالكَ حيثُ الجَمالْ
أساطيرُ تُرْوَى
على رَقَصَاتِ ظِلالْ
تَلَوَّى
هُنالكَ حيثُ القَمَرْ
على الكتفِ الأخضرِ
استلَذَّ اتكاءَتَهُ والسَّمَرْ
مع العَبَقِ المُسْكِرِ
ودَوْحَتُنا الحالمَهْ
وهذا السكونْ!!
سوى هَمْسةٍ غائمَهْ
فتندفعُ الحائماتُ الظنونْ
وتنفتح المثقلاتُ الجفونْ
لِتَسترقَ النظرةَ العارمَهْ
ويُنصِتُ حتى الشذا
ليقبس لوناً جديدَ الأمَلْ
فكيفَ إذا
حكَتْ عن هوانا القُبَلْ

*

ويَثْقُلُ خَطْوُ السَّحَرْ
على دَرْبِهِ المُوحِشِ
ولا نلتقي يا ذِكَرْ
ولا نَنْتَشي
ولا نحنُ حُلْمُ الصَّبَاحْ
بأجْفَانِهِ اغْرَوْرَقا
ولا مَقعدٌ في حواشي الزَّهَرْ
تهيَّأ يلقى النَّدَى بالأقاحْ!
فما أطيب المُلتَقى...

*

وأهتِفُ باسمِكِ.. هل تسمعينْ
نداءَ الوحيد، البعيد، الغريبْ
نداء على اللَّهْفِ ضَمَّ اللحونْ
وصاغَ الحروفَ وجيبْ

*

.. وأطوي بحُلْمي اليكِ المدى
مدىً أبْعَدا!...
فأنتِ بغرفتِكِ الهادئَهْ
سُهومٌ مَديدْ
يُعيدُ أماسيَّنا الهانئَهْ
ويرسُمُ أشواقَنا الظامئَهْ
وضَمَّتيَ الدافئَهْ
ويمضي يُصوِّرُ..أو يستعيدْ
وتمضينَ حالمةً في السَّنَى
تَلُمِّينَ ما استَرْسَلا
فإن لاحَ طيفُ ابتسامٍ على
لمَاكِ فَذاكَ أنا...!

*

لبسْتُ إليكِ شُفُوفَ الحلُمْ
لأنفُذَ من أسْرِ هذي الحدودْ
أقامَ البِعادُ أساطينَها
وأخْلَقَ من حُلُمي المُنْتَقِمْ
عهُوداً حسَاناً كتلكَ العهودْ
تُريقينَ أنتِ تَلاوِيْنَها

الانسان

القيمة الاجتماعية العليا

بقلم رئيف خوري

وبعد ، فماذا تشاء يا قارئي ؟ إني ممن ادركتهم حرفة التعليم . لا اقولها شكوى ولكن اقولها اعتذاراً اليك عما سأشغلك به من الاوليات المعلومة والبسائط المفهومة .

خطر لي بالأمس ان اوضّح لنفسي تلك الخصائص التي تميز الانسان قوةً وفعلاً ، كما يقول الفلاسفة ، او ممكناً وواقعاً كما نقول نحن . فوجدت ان لا بد ، إذاً ، من النظر في الانسان من ثلاثة أوجه : اولاً — من حيث هو حيوان ، وثانياً — من حيث هو جماعة ، وثالثاً — من حيث هو فرد .

فاما من حيث هو حيوان ، فالانسان لا يزيد على انه كائن يلذّ ويألم ، ويفر من الألم ويلتمس اللذة ، ويطلب المأكل والمشرب ، وينصرف الى عمل النسل ، ويصارع من اجل البقاء او يحتال لذلك احتيالاً .

واما من حيث هو جماعة ، فانه لا يعدو ان يكون جزءاً من مجتمع قد توثقت الوشائج بين وجوده ووجود ذلك المجتمع وما يلحق به من ارض هي الوطن ومن قومية ودولة .

واما من حيث هو فرد ، فالانسان يستقل بشخصية خاصة . ولتلك الشخصية صفة الاستمرار ، لا تنقطع كشخصية الحيوان ، عند حد الهنيهة الحاضرة ولكنها تتصل بالماضي وتمتد الى المستقبل .

ولها صفة الفكر ايضاً . الفكر الذي به ادرك الانسان انه كائن مُلاحَمٌ بالطبيعة الا انه مُغايرٌ لها ، والطبيعة إن لم تكن له عدواً فانها لبست باكثر احتفالاً به منها ببعوضة او دودة . فلزمه ، من هنا ، ان يتعلم ما يضبُط حركاتها ومظاهرها من نواميس ، ثم لزمه ان لا يكتفي بتعلم نواميسها بل ان يثور عليها ويفتح الاقفال عن اسرارها ويأخذ ، من طريق الآلات والصناعات ، بأعنّة قواها ويُصرّفها في خدمته .

على ان هذا الفكر الذي هو صفة الانسان لا يمارس افعاله فيما بين الانسان والطبيعة فقط ، وإنما يفعل كذلك فيما يخص الانسان نفسه . فالانسان هو الكائن الوحيد الذي يتخذ من ذاته موضوعاً لفكره ، فيفكر بما يعمل ، ثم يفكر باعماله أخيرٌ هي أم شر ، جمالٌ ام قبح ؟ ثم يفكر فوق ذلك بنوع فكره أحقٌ هو أم باطل ، خطأ أم صواب ؟ وبعبارة اخرى ان الشخصية الانسانية وحدها قابلة للاخلاق والحقائق ، والسلوك الانساني وحده مطيق لأن يُقوَّم بميزان من الاخلاق والحقائق ، إذ لم يُسمع مثلاً — الا في الخرافات — بان تورّع ذئب عن افتراس طفل او ساورته رحمة أو أحس بان ذلك ظلم ، او قيل عنه انه خطيء وندم .

وما دامت الشخصية الانسانية وحدها تقبل الاخلاق والحقائق ، وما دام السلوك الانساني وحده يطيق ان يقوّم بميزان من الاخلاق والحقائق ، فالانسان ، إذاً ، مستطيع كما كان يقول المعتزلة او حرٌ الارادة كما نقول نحن ، قد أعطي ان يختار في افعاله وفقاً لدافع او رادع من فكر أو عقل أو ضمير . فهو ليس كالنار حتمٌ عليها ان تحرق ، ولا كالحيوان اعماله عبارة عن رد فعل لغريزة ، ولا كالآلة تدور كما تدار .

ومتى أعطي الانسان الاستطاعة والاختيار بات مكلفاً مسؤولاً ، ونما فيه هذا الشعور الذي نسميه حس الواجب ، وهذا الميل الذي نسميه ذوق الجمال ، وهذا الطموح الذي نسميه طلب الأصلح والارقى وندعو ثمرته التطور والتقدم .

لكننا ، بعد هذا كله ، نتيه عن الصواب اذا تصورنا ان نظرنا في الانسان يستقيم ونحن ناظرون اليه من ثلاثة أوجه كل وجه منها على انفراد . كلا ، لا يصح نظرٌ الى الانسان ، ما لم نتناوله على حقيقته كائناً واحداً ، « مادة » الانسان الحيوان

فيه هي مادة الانسان جماعةً ، ومادة الانسان فرداً ، والمادة القابلة لأن تستقلّ بشخصية خاصةتتجلى فيها الامتيازات التي قدمنا ذكرها .

« ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » ، قال الناصري ، وهو إنما يريد ان يعلو بالانسان فوق الحيوان . على ان قوله لا يعني قط ان الانسان يحيا بلا خبز . وجميع الذين شاؤوا ان يحرموا الانسان خبزاً يحيا به انما تركوا الكائن البشري حيواناً تستبد به شهوة المعدة وغريزة حفظ الرمق . ولذلك لم تكن الاستهانة يوماً بلقمة الانسان رَفْعاً له فوق الماديات ، كما يُزعم ، وسمواً به الى قمم الروح ، وإنما كانت في الواقع شدّاً له الى الدرك الاسفل من البهيمية ، الموقوف همها على امساك الحياة .

و « الانسان مدني بالطبع » و « سياسي بالطبع » ، هكذا قال الفلاسفة منذ أقدم الازمنة . فلا تتم إنسانية الانسان الا في مجتمع ، مجتمعٍ صالح . ولا سبيل لانسانٍ وحده الى استكمال انسانيته . بل ربما لم يكن قد استقل انسان بوجوده إلا في القصص مثل « حي بن يقظان » لابن طفيل ، و « روبنسون كروزو » لدانيال ديفو . وما دام المجتمع تلحق به قوميات ودُوَل ، فينتج من كون الانسان مدنياً بالطبع ، وسياسياً بالطبع ، أن له الحق في قوميته التي اعطاه إياها التاريخ ، وله الحق في ان تكون دولته القومية مستقلة تامة السيادة ، وبالتالي وطنُه مستقلاً تامّ السيادة، وله الحق في ان تعيش دولته ووطنه بمساواة وسلام مع باقي الدول والاوطان ، وله الحق في ان يصون خصائصه القوميّة من كل تذويب قسري لها في بوتقةقومية تدّعي لذاتها الافضلية إما بحجة الاستعمار سافراً او بحجة الدربة والحنكة في القيادة .

والانسان ايضاً فرد ، وله ذاته التي يرجع اليها ويخلو بها . وحين تمحق فرديته وذاتيته تمحق شخصيته وكل ما هي قابلة له من الامتيازات الانسانية . وان مجتمعاً لا يجعل لأعضائه ابواباً للتعبير عن فرديتهم، ولا يتيح لهم ان يعيشوا أوقاتاً من حياتهم فيما بينهم وبين انفسهم ، ولا يترك لهم سُبُلًا للاختيار والتغيير بين باب وآخر من ابواب التعبير عن فرديتهم ، لا يكون مجتمعاً بل نظاماً قطعانياً يراد فرضه على البشر، ولا عبرة بكل الاسمنت الذي يرتفع فيه مبانيَ شاهقة وكل الحديد الذي يصنع فيه آلاتٍ ضخمة .

وبعد ، ألم أعتذر اليك سلفاً يا قارئي عما سأشغلك به من هذه الاوليات المعلومة والبسائط المفهومة ؟ بقي ان تستطيع معي صبراً حتى نرى أين ينتهي بنا هذا كله .

عهدنا بالانسان انه هو القيمة العليا في الوجود . وفي عصر كعصرنا ينصرف فيه الفكر شطر المجتمع ، يجب علينا ان نزيد ان الانسان هو القيمة الاجتماعية العليا في الوجود . ومذ كان الانسان جماعة – كما اسلفنا – فحقّ للفكر ان ينصرف هذا الانصراف كله شطر المجتمع ، وان يرى في الاصلاح الاجتماعي والثورة الاجتماعية ، مفتاحاً لحلّ المشاكل ، لكن شرط ان لا ينسى ان حلها إنما هو ضروري ومَنشود لأنه يخدم الانسان . يخدمه من جميع اوجهه: من حيث هو جماعة لها الحق في قوميتها وفي استقلال دولتها ووطنها ، ومن حيث هو في الوقت نفسه فرد يستقل بشخصية خاصة ، ومن حيث هو كذلك شريك الحيوان في بعض حاجات لا انفكاك لها عن وجوده . وإنما نصر على ان المراد بحل المشاكل إنما هو خدمة الانسان، لأن هنا خطراً أن يتوهم متوهم ان حل المشاكل إنما يكون لخدمة النظريات وان الحركات الاجتماعية إنما هي تجارب بالشعوب كتجارب الأطباء بالأرانب ، لبرهان ان هذا الحزب أو ذاك على حق ، وأن هذا النظام أو ذاك هو الأفضل .

أجل ، ان الانسان هو القيمة الاجتماعية العليا ، هو الغاية القصوى ، لا النظريات ولا الانظمة ، فان هذه تشتق قيمتها من الانسان ، وليس يشتق الانسان قيمته منها .

وقيمة النظريات والانظمة هي بمقدار ما تخدم الانسان من جميع أوجهه في آن واحد، فلا تخدمه من وجه على حساب آخر .

*

والى هذا المقياس يجب ان تُردّ النظريات والانظمة دائماً ، لكي لا تُهرّب المفاسد والمظالم وراء ما تنشره على العيون من سُحُبٍ موّارة بزيّف الأضواء والألوان ، ولكي لا تعمي الحقائق بما تثيره في النفوس المعطشة من نشوة الأوهام . وان من النظريات والانظمة ما يثير نشوات وهمية دونها عمل الأفيون !

رئيف خوري

علمتني مهنتي

بقلم الدكتور جورج حنا

•

لا أظن ان احداً من الناس له خبرة بالمجتمع الذي يعيش فيه اكثر من الطبيب . فهو في مخالطته الكبار والصغار ، في دخوله الى قصور الاغنياء واكواخ الفقراء ، في وقوفه على شكاوى الناس واسرارهم ، في الثقة التي يضعها الناس به ، اقرب من اي كان الى معرفة حاجات الشعب واحوال المجتمع ، في حسناته وسيئاته .

يخرج الطبيب من الجامعة ، وقد كادت تذوب تلافيف دماغه في الدرس ، واستظهار اسماء العقاقير ، وجرعاتها المطلسمة ، وهو منهوك الاعصاب ، من سويعات الامتحانات الرهيبة ، وغطرسة الفحّاص والمحكمين ، الذين يغرهم ان لقرارهم قوة الابرام والنقض ، بمقدرات المتقدمين الى محكمتهم ، الراجفين امام جبروتهم ، حتى اذا خرج الطالب من هذه الدعكة ، قابضاً بيديه على « الفرمان » المرتقب ، افتر ثغره عن بسمة الظفر ، وكان لقاءٌ بينه وبين الاحلام ، تروح به وتجيء ، في عالمٍ من الأمل ، لا يدري اين يستقر وكيف يستقرّ .

وفي غمرة من الغبطة والاعتزاز بما حصل عليه ، ومن القلق على مصيرٍ مخبأ له وراء الايام ، تمرّ عليه الاسابيع والشهور ، يعدّها ويعدّدها ، وهو قابع في زاوية عيادته ، محاطاً باساطين تعرّف اليهم إبّان دراسته ، يجاوره « باستور » شاخصاً الى مجهر ، دفع الطبيب الجديد ثمنه الف ليرة من مال ابيه ، ويتباحث مع « لستر » و « بافلوف » و « كوخ » و « اوسلر » و « فيدال » بآراءٍ مدرجة في الكتب المرصوفة على أدراج مكتبته ، والتي دفع ثمنها الف ليرة اخرى من توفيرات امّه ، ويقلّب في آلات لمّاعة ، رهنَ بيت العائلة لشرائها ، ويدخن اللفافة تلو اللفافة ، بانتظار من يقرع عليه الباب ، ويكلفه بمعاينة ، تسلّيه في عزلته ، وتفسح له مجالاً لاخراج ما جمّعه في رأسه من المعارف . فاذا بالشمس تشرق وتغيب ، ثم تشرق ثانية وتغيب ، ثم تشرق خمسين مرة وتغيب ، وهو يشاهد شروقها وغروبها ، فلا الشروق يجلب له الزبائن ، ولا الغروب يفسح الهمّ عن صدره . واذا بصاحبنا الطبيب الجديد ، يشخص الى « الفرمان » المعلّق على الجدار ، ويسائل نفسه ، فيما اذا كان الفرمان هذا ، ما اخرجه سالماً من دعكة الجامعة وامتحاناتها ، الا ليلقيه مهشماً في دعكة الحياة .

ويخطىء من يعتقد ان الطبيب عند تسلمه « الفرمان » ، يصبح في وضع يحسد عليه . ان الفرمان هذا هو مجرّد شهادة ، بان حامله اجتاز الامتحانات بعلم الطب ، تخوله ممارسة الطبابة ، التي تتطلب معرفة اشياء لم تعلمه اياها المدرسة . فالطب شيء والطبابة هي هذا الشيء ، ويزاد عليه اشياء .

الطب علم من العلوم الطبيعية البيولوجية المادية ، ونظرياته مستمدّة من سنن الطبيعة والتفاعل البيولوجي الحياتي ، ولا مجال فيه للنظريات الفلسفية ، غير المستندة الى هذا التفاعل . اما الطبابة ، فهي فضلًا عن ذلك ، فن وحكمة ، ومراس وفلسفة نفسية ، وادراك عقلية المرضى وامزجتهم ، والاخذ باعتبارات البيئة والعادة ، والحالات المعيشية والاجتماعية . الطب علم والطبابة رسالة اكثر منها مهنة ، على الرغم من تسميتها كذلك .

بالطبع في النظام الحرّ ، كما يعرفه هذا النظام ، يتوجب على الطبيب ان يضمن لنفسه ولعائلته العيش . ومن حقه ايضاً ان يطمح الى العيش ، على مستوى يليق بمركزه العلمي والاجتماعي ، كما انه يتوجب على البيئة التي يعيش فيها ان تكافئه على خدماته لها ، ما دام النظام الحر يضع هذه المكافأة على عاتق من يفيدون من هذه الخدمات . فهو مضطر اذن الى ان يستوفي اجراً عن هذه الخدمات . وليس من الانصاف حرمانه منها ، بحجة انسانية الطبابة ، لا سيما عندما يتذرع بهذه الحجة ، من هم ابعد الناس عنها ، والذين جمعوا الاموال الطائلة عن غير طريقها المشروع . فأذا كان المفروض في الطبيب ألا يتاجر بمهنته ، ومثل هذا الطبيب اقل من القليل ، فالمفروض ايضاً ، ألا يتاجر المرضى الميسورون بالطبيب والانسانية معاً ، الى ان تستقرّ الانسانية على مفهومها الصحيح ، ولا يعود للدجل دخل في تفسيرها .

في السنة الاولى لمزاولتي الطبابة ، وكنت لم أزل بعد في ضيعتي ، دعيت يوماً لعيادة مريضة هي زوجة احد اغنياء الضيعة اشتهر بالبخل . ولما كان مضى علي اسبوع كامل لم اقبض فيه قرشاً واحداً ، اغتبطت بتلك الزيارة ، التي ستدخل الى جيبي اربعة « بشالك » وهي الاجرة المألوفة في ذلك الحين . كان

الفصل صيفاً ، وبيت المريضة في الطرف الاعلى من البلدة ، وبيتي في الطرف الاسفل . وكان الوقت ظهراً ، وعليّ ان اذهب ماشياً ، حاملاً حقيبتي بيدي . الزيارة لمريضة غنيّة ، وانا بحاجة الى البشالك الاربعة ، وبحاجة الى ان يعرفني ويستدعيني غير الفقراء . فما ان دخلت غرفة المريضة ، حتى بادرت الى فحصها فحصاً دقيقاً ، وبقيت اربعين دقيقة ، اقلبها ظهراً لبطن ، وبطناً لظهر ، واطوّف سماعتي على صدرها ، وفوق قلبها ، حتى اذا انتهيت من الفحص ، كان العرق يتصبب من جبيني ، ويختلط بعرق جسمي ، الذي انهكه المشي صعداً في قيظ الظهيرة . ثم وصفت لها العلاج ، وزودت امها بالتعليمات الضرورية ، واستأذنت بالرحيل متمنياً للمريضة الشفاء العاجل.

وفيما كنت اهم بالخروج من بوابة البيت ، تقدم مني الزوج ، ووضع في جيبي ، دون أي سؤال ، قطعتين من النقود ، أدركت من طقطقتها ، انها بشلكان . وعندما اعترضت على هذا الحسم غير المنتظر ، من رجل دخله اليومي يفوق دخلي السنوي ، وكنت باعتراضي على اكثر ما يكون من اللطف ، بادرني بموعظة مدارها ان الطب عمل انساني ، ولا يحسن بالطبيب ان يساوم باجرته ، بل يقبل ما تسمح به نفس المعطي . بسملت وحوقلت ، وسكتّ على مضض ، إذ اني لا اريد ان اخسر زبوناً غنياً ، ولو كان بخيلاً ، قد يؤثر كلامه عني في أوساط القرية .

وفي يوم آخر ، دلفت الى عيادتي امرأة ارملة في حوالى الاربعين من العمر ، وطلبت أن اعاينها معاينة دقيقة . ولم تنكر عليّ عدم ايمانها بالطب والاطباء ، لأنها لم تجد منهم بعد من يشفيها . ولكنها رغبت بان اعاينها من قبيل « ضرب الطينة بالحيط » . لم اهمل طريقة من طرق الفحص والتدقيق ، من قمة رأسها إلى اخمص قدميها . وعندما رجعت الى كرسيّ ، وعادت هي إلى مقعدها ، دون ان يفوتها ان تمر أمام المرآة المعلقة على الحائط ، بادرتني بالسؤال عما اذا كنت قد اكتشفت العلة . غير اني بعد الفحص الدقيق لم أجد في هذه المريضة مرضاً ، وصرّحت لها بان العلة التي تشكو منها غير موجودة ، وانها فريسة الخوف والوهم ، وان احسن دواء لها هو اللادواء ، وانها يجب ان تعود الى معيشتها العادية ، وتعمل على الترويح عن نفسها بالرياضة والهواء الطلق وما أشبه . فارتسمت على وجهها أثناء حديثي ، بسمة تنم عن شيء من السخرية ، معناها اني لا افهم كثيراً ، كغيري من الاطباء . وعندما علمت اني لن اكتب لها « روشتة » لم ترَ موجباً لدفع بدل المعاينة ، لأن المعاينة التي لا تسفر عن كتابة « روشتة » لا تستحق الاجرة . هكذا اجابتني عندما ذكرتها بالامر . البشلكان في رأيها ، هما ثمن «الروشتة» وليسا تعويضاً عن الساعة التي قضيتها بالحديث والمعاينة.

غلب عليّ اليأس ، وانا قابع في غرفتي ، بعد مغادرة المرأة الواهمة عيادتي . وزادت الوحشة في ضغط هذا الشعور على افكاري . زوج المريضة الاولى ، يقول إن تعويض الطبيب عطاء ، على قدر ما تسمح به نفس المعطي ، والمريضة الثانية ، ترى ان اجرة الطبيب لا تستحق الاداء ، إلا اذا كتب وصفة على ورقة . الأول يلقي عليّ دروساً في انسانية الطب ، والثانية تقتصّ مني لأني اخلصت لها وكنت اميناً لمهنتي . هنا بدأ يساورني شعور اليأس ممزوجاً بشعور الذلّ . أهكذا يطلّ علي العهد الذي نشدته ، وقضيت زهرة عمري بالسعي لبلوغه ؟ أتكون انسانية الطبابة ، سمّها رسالة او سمها مهنة ، رهناً بتفسير « الانسانيين المعلومين » ويضطر صاحبها الى مسايرتهم ومداهنتهم ، ولو كانت مسايرته ومداهنته من نوع الشعوذة ؟

إن معركة الطبيب مع الحياة ، معركة شاقة وقاسية. في كل مرحلة من مراحلها يجد نفسه امام المصاعب والاخطار والمشقات. في المرحلة الأولى ، كان همّه الدفاع عن نفسه ، وضمان بقائه وأسباب معيشته . يخوض المعركة ضعيفاً ، فيعذّب ويذلّ ، ويكبو الكبوة تلو الكبوة ، ويراوده شعور النقص ، حتى اذا جاءت المرحلة الثانية ، ولاحت له تباشير الغلبة ، واطمأن على نفسه ، انتفض انتفاضة الجبار ، واذا به يواجه عدوّه الشرير ، بل أعداءه وحلفاء اعدائه ، امراضاً وجراثيم ، ومجهّلين ومجوّعين واذا به وقد نهض من دعكة المرحلة الأولى ، رافعاً علم الانسانية غير الكاذبة ، يتطلع الى المجتمع فيجده يغصّ بجماعات البسطاء والفقراء والمهملين ، هذه الجماعات الكاسحة الساحقة ، فتثور ثائرته ، ولا بدّ للطبيب ان يثور ، واذا بالنقمة تنصب عليه من جماعة شريرة حاقدة ، وتتهمه بالجحود وهي الجاحدة ، وتقول فيه ما لم يقله مالك بالخمر ، وهي الغارقة في اوحال الرجس والاقذار .

عفوَ قرائي إذا وجدوا في قولي هذا تمجيداً للطبابة والأطباء ، ولا يجيئنني احدهم بسرد حوادث جرت على يد نفر من الاطباء ، لا تشرفهم ولا تشرف الطبابة والطب . فمن ينظر الى الطبابة من خلال طبيب ، يكفر بالرسالة ويتنكر لسمو انسانيتها ، شأنه

شأن من ينظر الى أية رسالة سامية، سواء كانت دينيــــة ام اجتماعيـــة ام تحررية ، من خلال تصرفات نفر من عمالها العابثين . الرسالات السامية ، والطبابة واحدة منها، لا تؤذيها في جوهرها، بؤرٌ « عفنة » تحوم حولها اقليـــة كالحة ، تأبى الخروج من العفن . هذه الأقلية لا بد من القضاء عليها عاجلاً أم آجلاً .

منذ العهد الابوقراطي الى الآن، لم يقوَ شذوذ بعض الاطباء على لطخ الطبابة او تلويثها او تقبيحها . حتى الطبيب الذي يمتهن الطب لكسب العيش او الاثراء ، حتى الطبيب الذي لا يعير اهتماماً لسموّ الرسالة ، ليس له مفرّ من اسداء الخدمة للمجتمع ، ولو كانت غايته منها الكسب والاثراء والدعاية . تصوّر ايها القارىء كيف كانت حالة هذا البلد ، الذي ندّعي بانه بـــلد الاشعاع ، لو تركت مبادرة الأعمال الصحية والاجتماعية فيـه للقائمين على امره ، ولو لم يقم من ابنائه افرادٌ مغامرون ، مهما كانت غايتهم من المغامرة ، ويأخذوا بايديهم ما امتنعت ، وما زالت تمتنع عن اخذه السلطات المسؤولة . وليس ادل على ذلك من هذا العدد الضخم من المؤسسات الطبية الخاصّة ، ومن هذا العدد الأكثر ضخامة من جمعيات البر والاحسان ، التي يطوف اعضاؤها على البيوت ، والمخازن ، والمعابد ، والمقاهي ، وأندية القمار لجمع القرش ، لـكي يعالجوا مريضاً ، او يطعموا فقيراً ، او يؤووا يتيماً . في قلب لبنان هذا ، كم ام تموت اثناء المخاض كل سنة ، لأنه ليس في بلد الاشعاع سلطة تهتم بها . وكم طفـل يموت قبل ان يفتح عينيه للنور ، واذا ما مات يعيش مريضاً او كسيحاً او مخبولاً ، لأن في هذا البلد بالذات ، لا قيمة للطفل عند المسؤولين . وكم من مريض نهشه المرض ، دون ان يجـد من يعتني به ، وكم من مسلول او موبوء ، ترك على قارعـــة الطريق ، لأن المستشفيات الرسمية ، في قلتها وضياع المسؤولية فيها ، لا تقبل مريضاً ، إلا اذا كان يحمل سمة مرور ممهورة من وزير او نائب او متنفذ ، ولأن المستشفيات الخاصـة ، لا هي قادرة على اخذه بالمجان ، ولا هو قادر على دفع تعويض لهـا . وكم من وباء انتشر في هذا البلد ، على الرغم من طبيعته الخلابة ، وهوائه العليل ، وشمسه اليانعة ، لأن المالكين سعداءَ فيـــه ، يكفرون بطبيعته وهوائه وشمسه ، فلا يقدرون هـذه المزايا ، ولا يأتون عملا للافادة منها .

هذه هي معركة الطبابة مع الحياة ، بل معركتهـــا ضد العابثين بقيم الحياة . باستطاعـــة الطبيب ان يشفي مريضاً او اكثر من مريض ، وباستطاعته ان ينقذ جريحاً او اكثر من جريح ، ولكن ليس باستطاعـة اطباء الدنيا كلهم ، ان يقطعوا دابر الأمراض والأوبئة ، وينقذوا حياة المصابـــين والمجاريح ، ما دام في الدنيا جماعات جشعة قهارة ، لا يهنأ لها العيش الا على بؤس الجماعات الساحقة ، ولا يطيب لها الرقص الا على جثث القتلى وقبور المشردين .

وطالما طلـــع علينا بعضهم ، بمشاريع للضمان الطبي الاجتماعي ، متجاهلين ان الضمان الطبي والاجتماعي لا يكفل سيره السير الحسن ، الا نظام قائم عـلى العدل الاجتماعي ، وحق الانسان في ان لا يكون مستعبداً في عمله وطريقـــة معيشته .

ان الضمان الطبي في بلدٍ ليس فيه ضمان اجـــتماعي حقيقي وعلمي ، بل كل ميزته انه يتيح للمريض فرصة المعالجة بالمجان ، دون ان يعمل شيئاً لـكي لا يمرض الأصحاء ، والضمان الاجتماعي الذي يقتصر على ضمان حق العامل في التعويض والبطالة ، دون ان يضمن عدم وجود بطالة وعدم قيام حاجة ، لا يكونان ضماناً طبياً او ضماناً اجتماعياً بالمعنى الصحيح .

قلت واعيد ان الطبابة رسالة اكثر مما هي مهنة . والطبيب الذي يحمل رسالته بشرف وينهض بواجباتها ومسؤولياتها ، ولا يحبس نفسه في قوقعةٍ لا يخرج منها ، ولا يهمل مشاكل المجتمع الذي يعيش فيه ، والوطن الذي يستظلّ علمه ، هـذا الطبيب لا يهمه ما يقوله عنه زيد او ما يتقوّله عمرو . ان رسالة الطبيب اوسع كثيراً من إجراء عملية جراحية ، او معاينة مريض ، او وصف علاج . انها رسالة علمية طبية اجتماعيـة ، وسياسية ايضاً بالمعنى الواسع للسياسة .

لا يتسع المجال في هذه الصفحات لكتابـة كل ما علّمتني مهنتي طوال ثلاثين عاماً . فهذا يحتاج الى كتاب ضخم قد اعنى بوضعه اذا فسح لي العمر مجالاً لذلك ، فأؤدي الى مجتمعي واجباً تفرضه الرسالة التي حُمّلتها ، او المهنة التي تعاطيتهـــا ، وعندئذ اطمئن الى اني قمت بقسط متواضع في خدمـة وطني وامتي .

جورج حنا

الكسيح ...

« بقية القصة المنشورة على الصفحة ٣٢ »

ولم ينقطع يوماً واحداً عن الذهاب الى مركز الشرطة والسؤال عن قضية ابيه . وكان ذلك يضطره الى إغلاق الدكان اغلب ساعات النهار . وحاولت ان اصرفه عن هذه الطريقة المضيعة للوقت ، فقلت له يوماً : لا بد ان تنصرف الى شغلك يا عباس وتترك المسألة تأخذ مجراها الطبيعي .

فنظر إليّ بدهشة واستنكار وقال : تريدني أعيف قضية أبويه وأدير بالي على شغلي ؟ ! ليش شراح أقبض من الشغل ؟ !

فقلت : كيف تعيش اذن ؟ ! أتأكل هواء ؟ !

فقال بلهجة احتقار : وشلّي بها العيشة الزفرة ؟ ! ابويه ابويه تاكل بي الدود والقاتل ماله يمشي بطوله .

فقلت : ولكنك ستموت جوعاً ان اهملت العمل بهذا الشكل ، فدكانك يكاد يكون خالياً من البضاعة .

فاجاب : اموت من الجوع المگبره..ليش آني دا أشوف للأكل طعم من يوم ما مات ابويه ؟

وصمت لحظة ثم قال وهو يحدق بانظاره في الفضاء البعيد : ما راح أگدر آكل اللگمة مثل ما ياكلوها الناس إلا يوم ما اشوف قاتل ابويه متعلك من رگبته ود يرفّس بالهوا.

وومض في عينيه بريق مخيف وصرّ على اسنانه كذئب يطبق فكيه على فريسته . وادركت منذ ذلك اليوم ان من العبث مناقشته في سلوكه تجاه هذه القضية . لكنه كان ينحدر في مهوى مخيف . فلم يقتصر الامر على إهماله العمل ، وعجزه عنه ، وفراغ دكانه من الفواكه إلا القليل الرديء ، بل امتد الخطر إلى صحته ، فاخذ يذوي يوماً بعد يوم، واستحال احمرار وجهه إلى اصفرار فاقع ،واسودت جفونه وبدا في عينيه الاجهاد والكلال . كنت ارقب حالته المريعة وقلبي يحزّه الألم ولساني عاجز عن نصحه . الى ان قال لي ذات يوم وهو مقطب الوجه قلق النظرات : البارحة مِنْ راجعت الشرطة طردوني .

فقلت باستنكار : عجيب !

فقال : والله . لمّنْ شافني مفوض التحقيق صاح بوجهي : ولك انت ما ابتلينا بيك وبأبوك ؟ ! متروح انت تدوّر على اللي گتله اذا تگدر .

فتمتمت بتأثر : يا نذل يا ابن النذل .

وصمت برهة صمتاً غريباً . وكانت عيناه تشعان ببريق من الحقد الهائل . ثم تمتم وهو يضغط على مخارج الالفاظ وانظاره مسمّرة في الارض : يگول لي روحانت دوّر على اللي گتل ابوك .. ليش الله عرف ينطيني رجلين سويت الأوادم حتى أراوي لهذا ربّه منو ؟ ! لو بيّه خير چان خلّيته لهذا متمتّع بدنياه يوم واحد ورا ابويه ؟ ! لكن مع الاسف الله صگّطني .. الموت احسن لي من ها الحياة .

وتحولت انظاره الى ساقيه الملتويتين اللتين التصق لحمهما بالعظم وتقلصت قدماهما فبدتا ككرتين صغيرتين . ونفث من صدره حسرة طويلة وكأنه نفث معهاجزءاً من قلبه !وأحسست بقشعريرة باردة تسري في ظهري ، وآمنت انه لن يتردد في تمزيق جسد قاتل ابيه باسنانه لو كان ذلك باستطاعته !

وقلت بعد صمت قصير : لا تيأس على كل حال ، فالمفوض طردك لانك ألححت عليه كثيراً بذهابك كل يوم .. وانا ارى ان تترك المسألة لهم فالشرطة مسؤولة عن القبض على القاتل ..

فقال بحدة : قابل يعني اجوزمن قاتل ابويه ؟ ! لعد الشرطة لويش خالّيها ؟ !

فقلت : ولكن يا عباس ، هذه ليست الطريقة الصحيحة للاسراع بمعاقبة القاتل ...

فقاطعني بحدة : لعد شسوّي ؟! أگدر آني ألزمه للقاتل وأخنگه بيديّ ؟! لو أگدر ما چان رحت كل يوم لها المناعيل الوالدين أتذلل لهم .

فقلت : انا لا اقصد ان تقتل القاتل بنفسك ، فعقاب المجرم من اختصاص الحكومة ، لكني ارى ان تقلل من ذهابك الى «المركز» . واجبك ان تشتغل لتعيّش امك وتعيّش نفسك ، ماذا تعمل إذا تبدد كل المبلغ الذي خلفه لك ابوك ؟

فسكت لحظة ثم قال بلهجة ساخرة : آني ادري لويش كل يوم تعيد عليّ لازم تترك المسألة بيد الشرطة ...آني ادري .. حتى انت متراجعهم فد يوم وتگلهم يكمشوه للقاتل .

فتملكني الحنق ، وقلت بخشونة وانا احاول السيطرة على اعصابي : انا لا اسمح لك ان تتكلم هكذا . لقد اديت واجبي ووضعت بين يديهم كل ما اعرفه عن الجريمة ، وبقي عليهم ان يحققوا فيها ، وهذا يحتاج الى وقت .

وصمتُ لحظة ثم قلت بلهجة غاضبة : ولكنك ما تحاول ان تفهم هذه الحقيقة ، وتريد منهم ان يشنقوا الشخص الذي تعتقد

انه القاتل في الحال ؟ وهذا هو منتهى الجهل .

ثم القيت عليه التحية بتأثر وانصرفت . وقلّ مروري بالسوق منذ ذلك اليوم، وكنت ارى دكانه مغلقاً اغلب الاحيان، وكثيراً ما حاولت ان ألقي عليه التحية ، لكنه كان يغض طرفه ووجهه يفصح عن الغضب والانزعاج . وتصرمت اسابيع عدة . وبينا كنت ماراً بالسوق ذات يوم ناداني عباس بصوت مرتبك، ولما دنوت منه طالعني وجهه النحيل وقد اشتد اصفراره وغارت عيناه ، وتمثلتُ صورته يوم كان ابوه حيـــاً ... شتـّان بين الصورتين ! كان الاضطراب الشديد واضحاً على وجهه ودلائل الذلة والمسكنة منبثقة من نظراته . قـــال لي بصوت مرتجف ذليل وشفتاه ترتعشان وعيناه تعبران عن ألم بالغ : خويه رؤوف سوّي لي چاره .. وين أروح .. وين أولـّي ؟

فقلت باهتمام : خيراً ؟!

فقال بلهجته المتألمة الذليلة : اليوم لمـّن راجعت الشرطـة طردوني وگالوا القضية انسدّت لعدم العثور على القاتل .

فهتفت باستنكار : عجيب !

فاستمر يقول بلهجة ذليلة جزعـة : خويه باصرني ... وين اروح .. إلمن اشتكي .. يعني آني چا واحد فقير يطردون بيّ ! چا أبويه ما عند ظهر تروح گتلته بالهوا ؟! اخويه رؤوف ... گتلة أبويه يصير تروح بالهوا ؟!

وتمتمت بتخاذل : قيمة الانسان ضائعة في هذا المجتمع !

وركنت الى الصمت وانا احس بنفسي تفور غيظاً وألماً ، وتفرست بوجه عباس المتدفق بكآبة عميقة الغور .. وبدا كأنه فقد أباه اليوم، او ان اباه بُعث الى الحياة ثم مات مرة اخرى ! ولم أدرِ ماذا اقول او افعـــل ، وكيف يمكن ان تحلّ تلك المشكلة : اذا حفظت القضية فستظل مغلقة الى ان يظهر دليل جديد يلقي ضوءاً على الجريمة ، وعدت أتمتم وكأنني احـــدث نفسي : قيمة الانسان ضائعة في هـذا المجتمع ... اذا حفظت القضية فستظل كذلك الى ان يظهر دليل جديد ... ولكن كيف يظهر الدليل بدون تحقيق ؟! لا قيمة للانسان هنا..

وسمعت عباس يقول بصوت يائس باكٍ : شلون لعد خويه ؟ گتلة أبويه تروح بالهوا ؟ خويه انت شلون تقبل ؟ شلون تروح گتلة أبويه ؟ خويه سوّي لي چاره..

واستولى علينا صمت كئيب . وفجأة انفجر عباس في بكاء عنيف ، وراح ينشج نشيجاً مراً وهو يردد : بويه قتلك راح بالهوا .. بويه قتلك راح بالهوا ..

وتصبب العرق البارد من جسدي ، وشعرت بخزي عظيم ، ثم قمت وانا مطرق الرأس وانصرفت في صمت وبـــين جنبيّ ثورة متأججة .

وفي اليوم التالي علمت ان عباس شنق نفسه .

بغداد　　　　　　　　شاكر خصباك

سين التسويف بين الفاخوري وسعيد عقل

جاء الاستاذ سعيد عقل مرة الى الاستاذ عمر فاخوري وقال له لماذا لا نحاول تجديد الصيغ والعبارات في اللغة العربيــة ، فندخل سين التسويف مثلاً عـلى غير الفعل ، فكما نقول سأكتب ، سأتعلم ، سأصبح طبيباً ، نقول ايضاً « سكاتب » « سمعلم » « سطبيب » بمعنى انه سيكون في يوم من الايام كاتباً او معلماً او طبيباً ...



وكان المرحوم الفاخوري آنـذاك مرشحاً لمنصب الوزير المفوض للبنان في موسكو فأجاب :

« عندما أصير « سوزير مفوض » اجيبك على سؤالك ... »

يعيش في الماضي !

من المعروف عن احد المشتغلين بدراسة التاريخ وتدريسه في بيروت ، انه شديــد الاقتصاد ، حريص عـلى التوفير . وكان احـــد اصدقائه يتحدث عنه قائلا: انه يعيش في الماضي اكثر « مما يعيش في الحاضر ».

فأجابه زميــل له ساخراً : —

يظهر ان الحياة في الماضي كانت اقل غلاء مما هي اليوم !..

حدثنا الصافي قال ...

يروي الاستاذ احمد الصافي النجفي انه زار مرة احـــد المهاجرين العائدين من اميركا ... وسأله : هل كنتم تدرسون في اميركا ام تتاجرون ؟ فأجابه قائلا : كنا « نتاجرون »...!

ناقد بالفطرة !

كنا في جلسة في منزل الدكتور نقولا زياده ، فحانت منا التفاتة الى طفله الصغير « رائد » وهو يمزق صفحة من مجلة « اهل النفط » ويقطعها إرباً إرباً بغضب وعناد ...

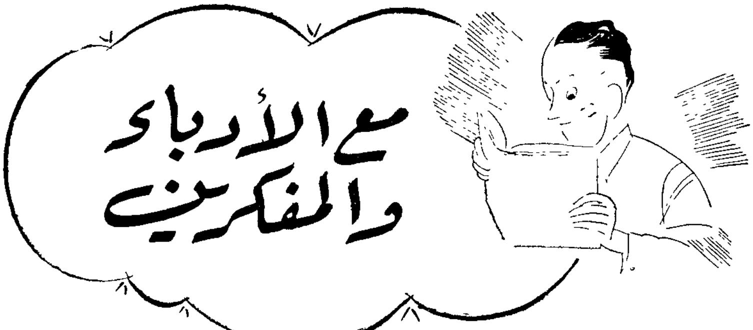
وأسرع الدكتور زياده إلى « رائد » فاذا به يجده قد مزق مقالاً لأحد « الدكاترة » الذين لا يتنازلون عن لقب دكتور ، مهما كلف الامر ..

فالتفت احدنا وقال للدكتور زياده : إن « رائد » سيكون ناقداً كبيراً ، ومتذوقاً ممتازاً من متذوقي الأدب !

ألقـاب !...

بعد مائدة الغداء التي اقامها في منزله الاستـاذ فؤاد حبيش للدكتور سليم حيدر وزير التربية الوطنيــة في لبنان ، جلس المدعوون يتحدثون عن غرائب الألقاب وما تبعثـه في نفوس بعض الناس من سوء تفاهم .. فقال الدكتور سليم حيدر : إن كثيراً من الناس يظنونه طبيباً وكان من اليسير عليه ان ينفي هذا الظن ، لو لم يعهد اليه اخيراً بمنصب وزير الصحة ..

وقال الشيخ خليل تقي الدين وزير لبنان في استوكهولم ، ان دعوة وصلته من الجالية الاسلامية في فنلندا لحضور حفـلة زفاف احد افرادها البارزين ، وجاء في مطلع الدعوة : حضرة الشيخ الجليل حجة الاسلام الاستاذ خليل تقي الدين ... » . ومن المعلوم ان لقب المشيخة الذي يحمله الاستاذ تقي الدين هو لقب لبناني تقليدي .

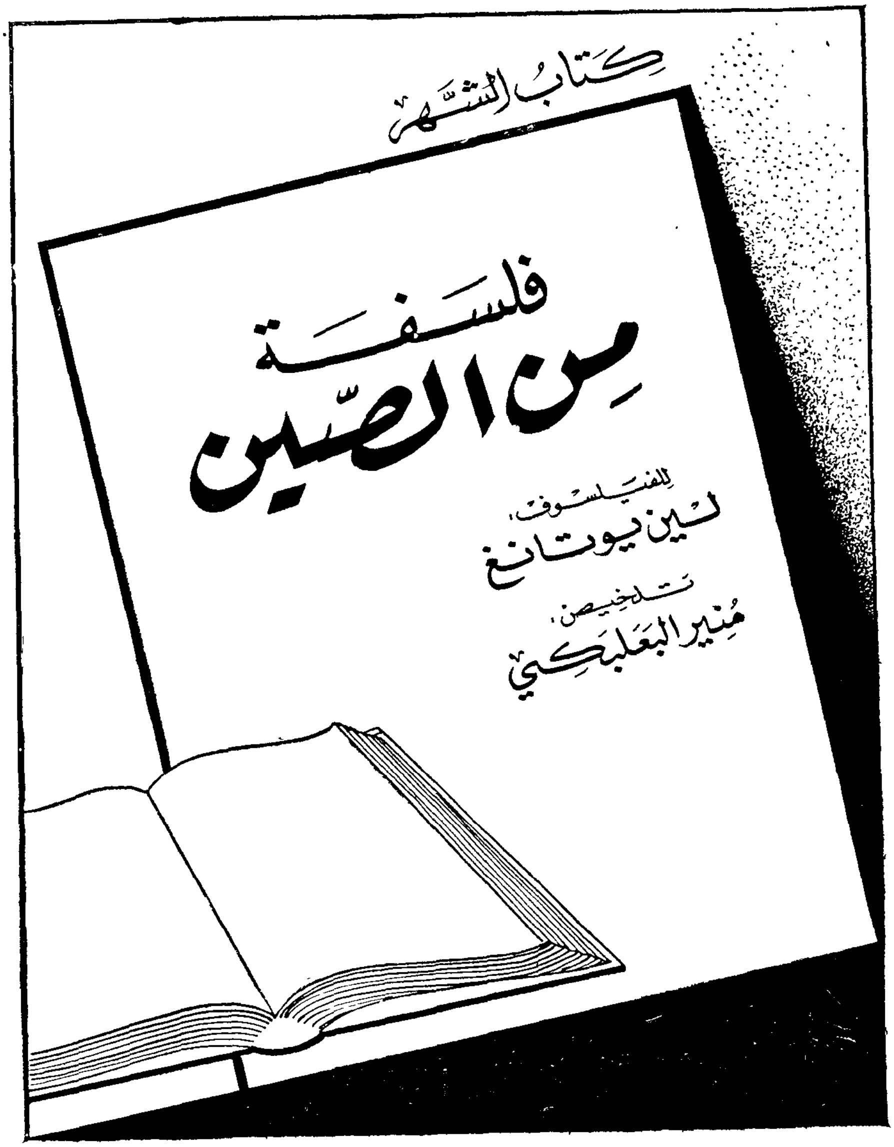


وعلق الشيـخ فؤاد حبيش قائلًا : إن كثيراً من الرسائـل التي تصله من شمالي افريقية ، تعنون اليه بمايلي: حضرة صاحب الفضيلة الشيخ فؤاد حبيش .. !

دفن الأديب !

كانت المناقشة محتدة في الاجتماع الذي عقدته جمعية اهـل القلم في لبنان ، لاقرار دستور الجمعية . وكان من رأي عـدد كبير من المؤسسين ان تزاد قيمة الاشتراك في الجمعية لكي تستطيــع ان تقوم بمهماتهـا في تشجيع الادباء وتكريمهم وإعانتهم . وشرح الاستاذ صلاح لبكي بعض نواحي المعونـة ومتى تكون ، فقال ان اديباً مات اخيراً ، فدفن على نحو لا يليق بانسان من الناس .. فلو كانت الجمعية موجودة لشيعتـه أكرم تشييع ودفنته أليق دفن ...

ولم يكد الاستاذ لبكي يصل الى هذا الموضوع من كلامـه حتى طلب الاستاذ رئيف خوري الكلام ، ثم قال : انني ارجو من الذين يودون الاشتراك في جمعية اهل القلم ان « يؤمّنوا » نفقات دفنهم قبل ان يصبحوا اعضاء في هذه الجمعية !..



اذا كان لين يوتانغ اعظم فلاسفة الصين المعاصرين ، فليس من ريب في ان كتابه هذا يُعتبر اعظم ما اخرج للناس في السنوات الاخيرة . وقد استقبله النقاد الغربيون ، لدن صدوره في اميركة ، بترحيب كبير ، واعتبروه من الكتب التي لا يجود الزمان بمثلها إلا مرةً في كل جيل ... قال ناقد « الايفننغ نيوز » في التعريف به : « إن في كل صفحة من صفحات هذا الكتاب لمتعةً بالغة » ؛ وقال ناقد « السكوتسمان » في وصفه : « إنه كتابٌ ساحرٌ ، وان الحكمة فيه لتتكافأ مع ما ينطوي عليه من فتنة وجاذبية ... »

ولم يخيب الجمهور ظن النقاد الذين تنبأوا له بسيرورة عظيمة ، فطبع الكتاب سبع عشرة طبعة في بضع سنين ، وكثيراً ما كان الشهر الواحد يستنفد الطبعة الواحدة من الاسواق ، فيَدفع الكتاب الى الطبع من جديد ...

وها هي ذي بين يديك ، الآن ، خلاصةٌ امينة ، جهد الامكان ، لهذا السفر النفيس ، ولست اشك في انك ستقع فيها على فلسفة خفيفة فيها مرحٌ وفيها تسامح ؛ فلسفة تدعو الى حب الحياة ، واحترام الجسد ، والارتباط بالارض دون السماء ؛ فلسفة قد لا تقرُ صاحبها على كثير من آرائه ، ولكنك لا تستطيع إلا ان تعجب بها لجدّتها وطرافتها ، ولما يضجّ في جنباتها من تحدٍّ مُزَلْزِل ، وسخرية لاذعة ...

م . ب

١. اليقظة

« أ » تصدير

سأقدّم الى القاريء، في هذا الكتاب، وجهة النظر الصينية في الحياة والأشياء، كما صاغتْها أسمى العقول الصينية، وكما عبّرت عنها في أدبها وحكمتها الشعبية. ذلك بأني أحسُّ أن هذه النظرة الى الحياة صحيحة في جوهرها. وما دُمنا متشابهين في ما دون الجلد فأنّ ما يحرّك القلبَ الانسانيّ ويستثيرهُ في بلدٍ ما، خليقٌ بأن يحرّكه ويستثيره في بلدان الارض جميعاً...

إنّ الفيلسوف الصيني فيلسوف يحلم واحدى عينيه غير مُغْمضة. إنه ينظر الى الحياة في محبةٍ وسخرية حلوة، ويمزج تهكّمه بتسامحٍ رفيق، ولا يكاد يفيق من حُلْم الحياة حتى يغلبه النعاس من جديد، شاعراً أنه في المنام اكثر حيويةً منه في اليقظة، ومن ثمّ فهو يخلع على حياته اليقظى رداء من عالم الأحلام. إنه يرى وإحدى عينيه موصدة والإخرى مفتوحة، إلى بُطلان كثير مما يجري حوله ومما يقوم هو به من نشاط، ولكنه يحتفظ بقدر من الواقعية يمكّنه من احتماله والاستمرار فيه. وهو نادراً ما تنقشع غشاوة الأحلام عن عينيه لأ نه لا يعرف الأوهام، ونادراً ما يصاب بخيبة الأمل لانه لا يعرف الآمال العريضة. بهذه الطريقة تتمتع روحه بالحرية والانعتاق.

والواقع أن المثل الاعلى للثقافة الصينية كان دائماً رجلاً يواجه الحياة بروحٍ من **الانفصال** (تاكووان takuan) مبنيّةٍ على أساسٍ من التحرّر الحكيم من أغلال السحر والفتنة. ومن هذا الانفصال، او المفارقة، ينشأ **كِبَرُ النفس** (كووانغواي K'uanghuai)، وهي سجية تمكّن صاحبها من ان يجوز طريق الحياة في سخرية متسامحة، ويتغلّب على صنوف الأغواء التي تحاول الشهرة والثروة والنجاح ان تخدعه بها، ويرتضي آخر الأمر ما كُتِبَ له. ومن هذا الانفصال ينشأ ايضاً حسُّ الحرية عنده، وحبُّهُ التشرُّدَ والبوهيمية، وعُجْبُهُ وعدمُ مبالاته. وبهذا الحسّ للحرية وعدم المبالاة فقط يستطيع المرء ان يتذوّق آخر الامر بهجة العيش الحادّة الكثيفة.

وبسببٍ من اختلاف العقل الصيني عن العقل الاوروبي احتلافاً عِرْقياً كبيراً وانعزاله عن العالم الثقافيّ الغربي انعزالاً شديداً يكون طبيعياً أن نقع عنده على أجوبةٍ جديدةٍ لمشكلات الحياة، وعلى طرائق جديدةٍ لفهمها، بل على طرحٍ جديد للمشكلات نفسها. فنحن نعرف بعض فضائل ذلك العقل وبعض مواطن الضعف فيه، كما تتجلى لنا على الاقلّ في الزمان الماضي. إنّ له لفناً مجيداً، وعلماً زهيداً، وإنّ له لصدقَ نظرٍ رائعاً، ومنطقاً صبيانياً، ولغواً نِسْوياً بارعاً حول الحياة، وليس له أيّما فلسفة مدرسية او سكولاستيكية. ومن الشائع المتفق عليه بين الناس ان العقل الصيني عقلٌ عمليٌّ جداً وعنيد. كما يعرف محبُّو الفنّ الصينيّ أنه عقلٌ مرهف الحساسية الى ابعد الحدود؛ ومن الناس من يعتبرهُ عقلاً شعرياً وفلسفياً قبل كل شيء. وعلى الاقل، فان الصينيين معروفون بأنهم يأخذون الأمور أخذاً فلسفياً، وهو معنىً أبعدُ من قولنا إنّ للصينيين فلسفةً عظيمة، أو ان عندهم نفراً من الفلاسفة العظام. ذلك ان ظهور بضعة فلاسفة في أمةٍ ما ليس شيئاً غير مألوف، ولكن أخْذَ امةٍ ما الامورَ أخذاً فلسفياً هو شيء مريع... ومهما يكن من أمر فان لأهل الصين فلسفة خفيفةً بهيجة. وخير صورة لمزاجهم الفلسفيّ إنما نقع عليها في فلسفة العيش الحكيمة المرحة التي نقصد الى تعريفك بها في هذا الكتاب.

« ب » النفسية الصينية

تمتاز النفسية الصينية بالحساسية المرهفة التي تكفل للصيني فهماً فنياً للحياة، وتفسّر توكيد اهل الصين ان هذه الحياة الارضية جميلة حلوة، كما تفسر بالتالي حبهم العارم لهذه الحياة. ليس هذا فحسب، بل إنها تدلّ على فهمٍ "فنيّ" للفلسفة ايضاً. وهي تفسر لنا حقيقةً لا ريب فيها وهي ان نظرة الفيلسوف الصيني الى الحياة هي في جوهرها نظرة الشاعر الى الحياة، وان الفلسفة في الصين تقترن بالشعر، لا بالعلم كما هي الحال في الغرب. والواقع أن هذه الحساسية العالية لملاذّ الحياة وآلامها وتقلُّب أحوالها وتغيُّر ألوانها هي الاساس الذي تنهض عليه الفلسفة الخفيفة. ذلك ان حسّ الانسان مأساةَ الحياة ناشيء عن ادراكه الانفعالي للمأساة التي ينطوي عليها ربيعٌ راحلٌ، وانَّ حنوَّهُ الرفيق على الحياة ناشيء عن حنوّه على الأزاهر الزاهية التي نوّرت بالأمس. إنما يأتي أولاً الحزنُ وحسُّ الهزيمة، ثم تعقبها اليقظة وقهقهة الفيلسوف الساخر القديم.

ويتحلى الصيني بقدر وافرٍ من الواقعية يحمله على تقبل الحياة كما هي، وعلى الايمان بان عصفوراً في اليد خيرٌ من عصفورين على الشجرة. وهذه الواقعية تقوّي وتكمّل، في آنٍ معاً، توكيد الفنان ان هذه الحياة ذات جمالٍ فانٍ، وهي تحول بين

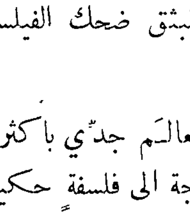
الفنان والشاعر وبين الفرار من وجه الحياة الى الابد ...

ولكن المهمة الرئيسية لروح الواقعية هذه هي إقصاء كل ما هو غير اساسي عن فلسفة الحياة، والتعلق بتلابيب الحياة كما هي، خشيةَ أن تحملها أجنحة الخيال الى عالمٍ تصوّري جميل ولكنه غير حقيقي. وبهذه الواقعية، وبضربٍ من الازدراء العميق للمنطق والفكر نفسه تصبح الفلسفة عند الصيني مسألة إحساسٍ مباشر وحميم بالحياة نفسها، فهو يأبى ان يسجن نفسه في أيما نظامٍ فلسفي صارم. إن التابع لمذهبٍ فلسفي ما، ليس غير طالبٍ من طلاب الفلسفة؛ ولكن الانسان تلميذ الحياة، بل لعله سيّدها.

«ج» العالم جدّي باكثر مما ينبغي

وأحسبُ، بوصفي صينياً، ان أيما حضارة لا يمكن ان توصف بالكمال ما لم تقم برجعةٍ واعيةٍ الى بساطة التفكير والعيش. ولستُ اطلق لفظ الحكيم على رجلٍ ما، ما لم يتقدم من حكمة المعرفة الى حكمة الخَبَل ويصبح فيلسوفاً ضاحكاً يحس مأساة الحياة اولاً، ويحس ملهاتها بعد ذلك. ذلك بأننا لن نستطيع ان نضحك إلا بعد ان نبكي. ومن الكآبة تنبثق اليقظة، ومن اليقظة ينبثق ضحك الفيلسوف، وتنبثق الرأفة واللطف والتسامح.

والذي أراه ان العالَم جدّي باكثر مما ينبغي، وهو بهذا الوصف في أمسّ الحاجة الى فلسفةٍ حكيمة مستبشرة. وعندي ان وظيفة الفلسفة الوحيدة هي ان تعلّمنا كيف نتخذ من الحياة موقفاً أهونَ وأبهجَ من ذلك الذي يتخذه رجال الاعمال العاديون. وليست هذه مجرد فكرة عابرة، ولكنها وجهةُ نظرٍ أساسيةٌ بالنسبة إليّ. فالحق ان العالم لن يصبح منزلاً يسوده السلام والعقل ما لم يُشْرِبِ الناسُ انفسَهُمْ هذه الروحَ المرحةَ الخفيفة. ان الانسان الحديث لينظر الى الحياة نظراً جدّياً مغالىً فيه، ولهذا السبب نرى العالم اليوم زاخراً بالمتاعب وضروب البلاء.



٢. أنواع من النظر الى الجنس البشري

هناك انواع من النظر الى الجنس البشري، هي وجهة النظر المسيحية التقليدية اللاهوتية، ووجهة النظر الاغريقية الوثنية، ووجهة النظر الصينية الطاوية – الكونفوشيوسية. وسنعرض لكلٍّ منها في ايجاز.

«أ» وجهة النظر المسيحية

تذهب النظرة المسيحية الى ان الانسان خُلق كاملاً، بريئاً، أحمق، سعيداً. وانه كان يعيشُ عاريَ الجسدِ في جنة عدن. ثم كانت المعرفة والحكمة و«خطيئة الانسان» التي ترجع اليها آلام البشر. ومقابل براءة الانسان وكماله الاصليّين أدخِلَ عنصرٌ جديد لتفسير نقصه الحاضر، وذلك هو الشيطان الذي يعمل من طريق الجسد، في حين تعمل طبيعة الانسان العليا من طريق الروح.

ثم جاء القول بالفداء، فأدّى ذلك الى اكتشاف وسيلة تُغْفَرُ بواسطتها الذنوب جميعاً، والاهتداء الى طريق ترجع بالانسان كرّةً اخرى الى الكمال. والواقع ان اشدّ مظاهر الفكر المسيحيّ غرابة فكرةُ الكمال. وإذ قد حصلَ ذلك إبان اضمحلال العوالم القديمة فقد نشأت نزعةٌ الى توكيد الحياة الآخرة، وحلت مسألة الخلاص محل مسألة السعادة او العيش البسيط نفسه. كان الاتجاه العام يهدف الى البحث عن وسيلة لنجاة الناس بأنفسهم من هذا العالم، وهو عالم كان يبدو غارقاً في الفساد والفوضى، مقدّراً عليه البوار والهلاك. ومن هنا تلك الاهمية الطاغية التي عُلِّقَتْ على مسألة الخلود.

وهناك في المسيحية ايضاً اعتقادٌ بفسادٍ شامل، وبأن الاستمتاع بهذه الحياة إثمٌ ورذيلة، وبأن كَوْنَ المرء منزعجاً غير مرفه يعني كونه فاضلاً، وبأن الانسان على الجملة لا يستطيع انقاذ نفسه الا بواسطة قوة كبرى خارجية.

«ب» وجهة النظر الاغريقية

وكان العالم الأغريقي الوثني عالماً مختلفاً في ذاته؛ ومن هنا جاء تصور الاغريق للأنسان مختلفاً كل الاختلاف أيضاً. وأكثر ما يلفت نظري في هذا المجال أن الأغريق جعلوا آلهتهم مثل الرجال – فهي تعشق وتكذب وتحبّ الطرد والقنص – في حين رغب المسيحيون في ان يجعلوا الرجال مثل الآلهة.

وكان الأغريق يؤمنون بالله ويعتقدون بان نصيب الانسان هو الفناء وبانه قد يتعرّض في بعض الأحيان لمصائر قاسية وحشية . حتى اذا تقبّلوا هذه المقدمة في رضاً وارتياح سعدوا سعادةً بالغة بما هم عليه . ذلك ان الأغريق أحبُّوا هذه الحياة وهذا الكون ، وعُنُوا بفهم الخير ، والحق ، والجمال ، الى جانب انهماكهم الكلي في فهم العالم الطبيعيّ فهماً علمياً ...

« ج » وجهة النظر الصينية

اما وجهة النظر الصينية فتقول إنّ الأنسان هو سيد الخليقة وتعتبرُ أنّ لهذا الأنسان – وهو لا يعدو ان يكون روحاً حلت في جسد – بعض العواطف والرغبات وفيضاً من «الطاقة الحيوية» أو « الطاقة العصبية » اذا شئت . وليست هذه ، في ذاتها ، صالحةً أو طالحة ، ولكنها مجرد شيء لا ينفصل عن الحياة الأنسانية السوية . فلجميع الرجال والنساء شهوات ورغبات طبيعية ، وآمالٌ نبيلةٌ ، وضميرٌ أيضاً . وهم يعرفون الشهوة الجنسية والجوع والخوف والغضبَ ، ويتعرّضون المرض والألم والعذاب والموت . وانما تقوم الثقافة على التوفيق بين ضروب التعبير عن هذه الشهوات والرغبات وإيقاع الانسجام في ما بينها . وتلك هي وجهة النظر الكونفوشيوسية التي تقول باننا اذا عشنا في انسجام مع الطبيعة البشرية التي أعطيناها استطعنا أن نصبح مساوين للسماء والأرض. أما البوذيون فينظرون الى رغبات الجسد الفانية نظرة المسيحيين في القرون الوسطى اليها ، أعني شراً يجب التخلص منه . وقد يتقبّل بعض الرجال والنساء

الشديدي الذكاء أو النزّاعين الى الاستغراق في التفكير وجهة النظر هذه فيصبحون رهباناً وراهبـات ، ولكن الحصافة الكونفوشيوسية تحرّم ذلك في الأعمّ الأغلب .

« د » الرباط الأرضي

إنّ الأنسان يريد أن يحيا ، ولكن حياته تلك يجب أن تكون فوق هذه الارض . ذلك باننا من الأرض، عليهاوُلدْنا وبها نحن مرتبطون . وليس ثمة مبررّ لانزعاجنـا من حقيقة كوننا ضيوفاً مؤقتين على هذا الكوكب . وحتى لو كانت الأرض سجناً مظلماً إذن لتعين علينا أن نتقبلها في صبرٍ وتجمّل. وإنه لمن الكفر بالنعمة أن لا نفعل ذلك عندما نُعْطَى ، بدلاً من ذلك السجن المظلم ، مثلَ هذه الأرض الجميلة لنعيش عليها جزءاً صالحاً من القرن. إننا نغالي في الطموح ، في بعض الأحيان فنزدري هذه الأرض المتواضعة ، السخية في آنٍ معاً . ومع ذلك فأن علينا أن نُكنّ عاطفةً من الودّ الصحيح لهذا المنزل المؤقت الذي تنزله أجسادنا وأرواحنا ، إذا ما كنّا نطمع في أن نحظى بالانسجام الروحيّ الحقّ .

وليس من ريب في أن أيما فلسفة عملية صالحة يجب أن تتخذ من الاعتراف بواقعية الجسد نقطة انطلاقٍ لها. ولقد تأخر كثيرٌ منا في التسليم بأننا حيوانات ، وهو تسليم لا مفرّ منه بعد أن أقيم الدليل على صحة النظرية الداروينية ، وبعد التقدّم العظيم الذي حققه علم الأحياء (البيولوجيا) والذي حققه علم الكيمياء الحيوية بخاصة . والحقّ ان غلوّنا في توكيد الروح كان مهلكاً إلى ابعد الحدود . فقد جعلنا في حرب مع غرائزنا الطبيعية ، وجعل من المتعذر علينا تكوين فكرةٍ كلية عن الطبيعة البشرية. وإنما نبع هذا الغلوّ أيضاً من معرفة ناقصة بعلم الأحياء ، وعلم النفس ، وبمقام الحواس والشهوات والغرائز على وجه التخصيص في حياتنا . إن الانسان ليتألف من جسدٍ وروح ، ومن واجب الفلسفة أن تعمل على أن يعيش العقل والجسد في انسجام وتناغم ، وأن تسعى الى التوفيق بينهما .

« ه » وجهة نظر بيولوجية

إن التقدم الذي طرأ على معرفتنا بوظائفنا الجسدية وعملياتنا العقلية خليقٌ بأن يساعدنا على تكوين نظرة أصح وأوضح عن أنفسنا ، وأن يُبعد عن كلمة « حيوان » بعض رائحتها البشعة القديمة . وقد يبدو ذلك غريباً ، ولكنه صحيحٌ من غير ريب. فالشيء المهم ليس هو القول إن عملياتنا الهضمية رفيعة أو وضيعة ، الشيء المهمّ هو مجرد فهم هذه العمليات ، وعندئذ تصبح بطريقةٍ بالغة الرفعة ، عريقة النبل . وهذا يصح في كل وظيفة بيولوجية من وظائف بدننا ، من العرق والتغوّط ، الى وظائف العصارة البنكرياسية والغدد الصمّ وغيرها . والواقع ان احداً لم يعد يحتقر الكليتين ولكنه يكتفي بأن يقوم بمحاولة لفهمها ، وأن احداً لم يعد ينظر الى السن المتسوسة بوصفها رمزاً عـلى فناء جسدنا النهائي ، ومذكراً بضرورة الاهتمام بالروح قبل كل شيء ، ولكنه يجتزيء بالسعي الى طبيب الاسنان ليفحصه ويسد خلله. ولا خلاف في ان الرجل الذي يغادر عيادة طبيب الاسنان خليق به أن يستبدل باحتقار اسنانه احتراماً متعاظماً لها ، إذ سيكون في ميسوره بعدُ ان يقضم التفاح ، ويعرق عظم الدجاج في متعةٍ بالغة ....

لقد لقننا العلم احتراماً متزايداً لاجسادنا من طريق تعميق إحساسنا بدقة تكوينها وإعجاز تنظيمها . فقد اخذنا نفهم ، في المحل الأول ، شيئاً عن نشأتنا الأولى ، ورأينا انفسنا متربعين على رأس شجرة الأنساب الخاصة بالمملكة الحيوانية بعد إذ كنا نعتقد اننا مخلوقون من صلصال من فخار . وقـد اخذ اعجابنا يتزايد ، في المحل الثاني ، بجمال الجسم البشري وغموضه المحير للعقول . والواقع ان ضروب النشاط التي تقوم بهـا الاجزاء الداخلية من جسدنا والتناغم القائم بينها لتضطرنا الى ان نقف ذاهلين أمام الصعوبة البالغة التي اقيم بها هذا التناغم ، والسهولة البالغة التي يتم بها على الرغم من ذلك ...

فكيف نزدري الجسد اذا كان يتكشف عن هذا الاعجاز كله ؟ وأياً ما كان ، فقد اعطتنا الطبيعة جسداً هو آلةٌ تغذي نفسها بنفسها ، وتعدّل نفسها بنفسها ، وتصلح نفسها بنفسها ، وتبدأ عملها بنفسها ، وتتوالد بنفسها ، وتعيش شأن ساعات اجدادنا الصالحات ثلاثة ارباع قرن... إنها آلةٌ مزّودةٌ ببصرٍ لاسلكي ، وبسمع لاسلكي ، وبجهاز من الاعصاب والانسجة الليمفاوية يفوق احدث أجهزة التلفون والتلغراف تعقيداً ...

وتتمتع هذه الآلة ، فوق ذلك كله ، بحسّ لاتساق الحياة ، وبحس للزمان ، لا يشمل الساعات والايام فحسب ، بل عشرات السنين أيضاً . فالجسم البشري يعدّل طفولته الخاصة وسن مراهقته ونضجه ، ويقف عن النمو حين ينبغي له ان يقف ، ويُطلع سن العقل في وقت لم يسبق لاحد منا ان حسب له حساباً . وهو يصنع ضروباً خاصة من الترياق ، ضد السموم ، وإنها لتنجحُ

نجاحاً باهراً في الجملة . وإنما يُنتج الجسم ذلك كله في صمت مطلق ، ومن غير تلك الجلبة التي تضج بها المصانع المعروفة ، لكي لا ينزعج فلاسفتنا الميتافيزيقيون ذوو الشعور الرقيق ، ولكي يفرغوا للتفكير في ارواحهم تفكيراً هادئاً ...!!

٣. تراثنا الحيواني

ولكن اذا كانت هذه النظرة البيولوجية تساعدنا على أن نقدّر جمال الحياة وحسن اتساقها حق قدرهما فانها تُظهر أيضاً مواطن قصورنا المضحكة . والواقع اننا حين نتلطف في تذكير انفسنا باننا أبناء الانسان النياندرتالي ، بل أبناء القرود التي على هيئة الانسان ، خليقٌ بنا أن نحقق القدرة على أن نضحك من آثامنا ومواطن قصورنا ، وعلى ان نكبر في الوقت نفسه براعتنا القردية ، وهذا ما ندعوه حسّ الملهاة الانسانية ...

« أ » على صورة القرود ...

في استطاعتنا ان ندرك الآن أننا خُلقنا على صورة القرد، لا على صورة الأله كما تقول النظرة التوراتية ، وأننا بعيدون عن الاله الذي هو عنوان الكمال بُعْدَ جماعة النمل عنا . إننا بارعون جداً ، وكثيراً ما يصيبنا الغرور بسبب من هذه البراعة ، لأن لنا عقلا مفكراً ، ولكن العالِمَ البيولوجي يخبرنا ان العقل ، ليس على اية حال ، غير تطوُّر متأخر جداً ، في ما يتصل بالتفكير الجلي ، واننا نملك الى جانب العقل مجموعةً من الغرائز الحيوانية او الوحشية التي تفوق العقل قوة والتي تفسّر سلوكنا الخاطيء بوصفنا افراداً وفي حياتنا الجماعية...

« ب » في كوننا غير مخلدين

إن ثمة نتائج خطيرة تَلْزَمُ عن ملكيتنا لهذا الجسد الفاني : أولها اننا غير مخلدين في الارض ، وثانيها ان لنا معدة ، وثالثها ان لنا عضلات ، وآخرها ان لنا عقلا طُلَعَةً كثير الفضول . وهذه الحقائق عميقة الاثر في الحضارة الانسانية . وهي ، لوضوحها البالغ ، قليلا ما تكون محل تدبرنا وتفكيرنا . ولكننا لن نفهم انفسنا وحضارتنا ما لم ننظر في هذه النتائج ونفهمها احسنَ الفهم .



وأحسبُ ان الديمقراطية كلها ، والشعر كله ، والفلسفة كلها إنما تنطلق من تلك الحقيقة التي تتلخص في ان كلّا منا ، امرءاً كنا ام شحاذين ، مقصورٌ على جسدٍ يبلغ طوله خمسة اقدام او ستة اقدام ، ويعيش عمراً يبلغ خمسين سنة او ستين سنة. وعلى الجملة فان هذا التدبير يبدو ملائماً الى ابعد الحدود ، فنحن لسنا شديدي الطول ولسنا شديدي القصر ، وان خمسين او ستين سنة لتبدو دهراً طويلا الى درجة مخيفة ؛ وهي مرتبةٌ بطريقةٍ تجعلنا نرى بُعَيْدَ ولادتنا بعض أجدادنا العجائز الذين لا يلبثون ان يقضوا نحبهم . حتى اذا ما اصبحنا نحن اجداداً شهدنا ولادة فوجٍ جديد من الاطفال الصغار . وهذا في ما يبدو يجعل الوضع على غاية الكمال ...

وديموقراطية الموت نادراً ما تكون محل نظرٍ وتقديرٍ ، من كثرة الناس المطلقة . والواقع انه لولا الموت لما عنت جزيرة القديسة هيلانة شيئاً بالنسبة الى نابوليون، ولستُ ادري ما الذي كان يمكن ان تشهده اوروبة من أحداث ، في مثل هذه الحال . ولولا الموت لما كانت ثمةَ سِيرٌ تبسط لنا اعمال الابطال او الفاتحين ؛ وحتى لو وُجدتِ هذه السير لكان واضعوها خليقاً بهم أن يقفوا ممن يترجمون لهم موقفاً اقلّ عطفاً وأحوج الى المشاركة الوجدانية ...

« ج » في كوننا ذوي معدة

ومن النتائج المهمة لكوننا حيواناتٍ أنّ لكل منا ذلك التجويف الذي لا قعرَ له ، والذي ندعوه المعدة . والواقع ان امتلاكنا معدةً تطلب الطعام ابداً قد ترك طابعه الخاص في التاريخ البشري . وفي فهمٍ كريمٍ للطبيعة الانسانية حَصَر كونفوشيوس رغبات الانسان الكبرى في شيئين اثنين : التغذية والتناسل ، او قل إنه حصرها، بتعبير اسهل ، في الطعام والشراب والنساء . والحق ان كثيراً من الناس مكروا بالغريزة الجنسية ، ولكننا لا نعرف قديساً استطاع ان يمكر بحاجته الى الطعام والشراب .

واهل الصين يرون الحياة جميلةً حين تمتليء معدهم وامعاؤهم امتلاءً حسناً . ومن هذه المعدة الحسنة الامتلاء تُشعُّ على وجه الصيني سعادة روحية حقاً . ذلك ان الصيني يعتمد على الغريزة ، وإن غريزته لتُعلمه بانه حين تكون معدته في أحسن

احوالها يكون كل شيء حسناً ...

وعندي ان السبب الذي من أجله عجز الصيني عن تطوير علمي النبات والحيوان هو ان العالِم الصيني لا يستطيع ان يحدّق الى سمكة ما من غير ان تستحوذ عليه الرغبة في التهامها ... والسبب الذي يحملني على عدم الثقة بالجراحين الصينيين اني اخاف ، اذا ما عهدت الى طبيب صيني في اجراء جراحة في كبدي لاستئصال حصاة المرارة ، ان ينسى الحصاة ويضع كبدي في مقلاةٍ من المقالي !...

وجديرٌ بالملاحظة ان غريزة الجوع هذه لم تَحْظَ بمثل ما احيطت به الغريزة الجنسية من ضروب التحريم الديني والاجتماعي، وانه لم تنبثق عنها – على وجه العموم – أيما مشكلة اخلاقية او مَنْقبيّة moral . والناس اقل تكلفاً للعفة في موضوع الطعام منهم في موضوع الجنس . ومن سعادة حظّ الجنس البشري ان في استطاعة الفلاسفة والشعراء والتجار واهل الفن ان يجتمعوا كلهم على طعام ، وان يقوموا بمهمة تغذية أنفسهم علانية من غير ان تحمرّ وجوههم لذلك ، على الرغم من ان العرف يفرض على الفرد ، في بعض القبائل المتوحشة ، ان لا يَطعَمَ شيئاً الا بعد ان يخلو الى نفسه ...

هذا من ناحية . ومن ناحية ثانية فان من سوء طالعنا الشديد ان الطبيعة لم تحبُنا بحوصلةٍ او كِرْش . ولوَ قد فعلت الطبيعة ذلك إذن لتغير المجتمع الانساني تغيراً جذرياً ، وإذن لعَمَرَ الارض جنسٌ بشري من نوع جديد . ذلك بان جنساً من البشر مزوّداً بحواصل او اكراش خليقٌ بأن تكون له طبيعة من اكثر الطبائع مسالمة وقناعة ورضاً ، شأن الدجاجة او الحمل . ونحن قمينٌ بنا عندئذ أن تصبح لنا مناقير تغير حسّنا للجمال ، وقد نجتزيء ببعض الاسنان القارضة . وقد نجد في الحَبّ والفاكهة غذاء كافياً ، وقد نرعى الكلأ في جانب الأكمة الاخضر . ولن نكون بحال من الاحوال هذه الكائنات الفظيعة المولعة بالحرب، شأننا اليوم ، لاننا سنكون في ذلك الوضع في غير ما حاجة للقتال من أجل طعامنا ، وفي نجوةٍ من ان نمزق باسناننا لحم اعدائنا المغلوبين .

والصلة بين الطعام والمزاج أوثق مما نظن بكثير . فجميع الحيوانات آكلة العشب مسالمة بطبيعتها على ما ترى في حال الحمل والحصان والبقرة والفيل والدّوري ، وجميع الحيوانات آكلة اللحم مقاتلةٌ بطبيعتها على ما ترى في حال الذئب والاسد والنمر والصقر . ولو قد كنا من آكلي العشب إذن لكانت طبيعتنا اكثر مسالمةً من غير ريب . ذلك بان الطبيعة لا تُحدث مزاجاً شرساً مخاصماً حيث لا تقوم الحاجة الى صراعٍ او قتال . فالديكة يقاتل بعضها بعضاً ، ولكنها لا تتقاتل على الطعام ، بل على الجنس اللطيف ...!

« د » في كوننا ذوي عقل

وقد تقول : لعل العقل البشري هو أنبل نتاج تمخّضت عنه الخليقة . وهو قول جدير بأن يسلِّم به سواد الناس ، وخاصة حين يشير الى عقل كعقل أديسون او البرت آينشتين . بيد ان العقل المتوسط فاتن اكثر منه نبيلاً . ولوَ قد كان العقل المتوسط نبيلاً إذن لكنا مخلوقاتٍ عقلانيةً rational مئة بالمئة ، مخلوقاتٍ لا تعرف الاثم ولا الضعف ولا الشذوذ ، وأجدِرْ بالعالم ان يصبح ، عندئذ ، تافهاً الى ابعد الحدود ...

اعتَبِرْ تطور العقل الانساني تجد أنه كان في الأصل عضواً مهمّته تحسس الخطر والحفاظُ على الحياة . أما أن هذا العقل قد انتهى آخر الأمر الى أن يَقْدُرَ المنطقَ والمعادلة الرياضية الصحيحة فذلك ما أعتبره مجرد مصادفة ، إذْ ليس من ريب في أنه لم يُخْلَق لهذا الغرض . لقد خُلِقَ ليستروح الطعام ، واذا كان قد استطاع بعد ذلك ان يستروح معادلةً رياضيةً مجردةً فزيادةٌ في الخير ...

ولعلك تعجب اذا قلت لك إني اكره أن أحيا الى زمنٍ نكون فيه كلنا مخلوقاتٍ عقلانيةً كاملةً . هل يعني هذا أني لا أثق بالتقدم العلمي ؟ لا . ولكنه يعني أني لا أثق بالقداسة . هل أنا من الذين لا يؤمنون كثيراً بسموّ العقل ؟ ربما كان الجواب نعم ، وربما كان لا . كل ما في الأمر أني رجلٌ أحبُّ الحياة ، وبسببٍ من حبي العميق للحياة أراني أستَريبُ كثيراً بالعقل . تخيل عالماً ليس فيه جرائم قتل تُنْشَر قصصها في الصحف ، عالماً يتمتع أفرادهُ جميعاً بقدر من الحكمة يمتنع معه اشتعال النار في بيت من البيوت ، وسقوط طائرة ما من طبقات الجوّ ؛ عالماً لا يهجر فيه زوجٌ زوجَهُ ، ولا يفرّ منه قسٌ مع فتاة الجوقة ، ولا يتخلى فيه ملك عن عرشه في سبيل الحبّ ، عالماً يتقدم كل فرد من أفراده لتنفيذ خطةٍ رسمها لنفسه منذ سنّ العاشرة ، بدقّةٍ منطقية ، وعزمٍ حديد . تخيل مثل هذا العالم وقل على عالمنا البشري السعيد السلام ! والواقع أن كل ما تنطوي عليه الحياة من إهاجة وغموض خليق بأن يزول في مثل

هذا العالم . بل لن يكون في مثل هذا العالم أدب ، لأنـه لن يكون ثمةَ إثم ، أو رذيلة ، أو ضعف بشريّ أو تغرضات أو مفاجآت . إنه أشبه ما يكون بميدان لسباق الخيل احتشد فيه خمسون الف متفرج كلٌّ واحدٍ منهم عـلى علم سابقٍ بالفرس الذي سيفوز بقصب السبق !



٤ . في كوننا بشراً

« أ » الكرامة الانسانية

« ولكن ألا تظن أن الأنسان هو اكثر الحيوانات إذهالاً وإدهاشاً ، اذا كنتَ تصر عَلي أننا حيوانات ؟» إني لأقرُّ ذلك وأثنّي عليه . فقد اخترع الأنسان حضارة ، وليس هذا بالشيء القليل . وقد يكون ثمة حيوانات أجمل من الأنسان وأحسن شكلاً وأنبل تكويناً ، كالفرس مثـلاً ؛ وحيوانات اقوى عضلاتٍ منه ، كالأسد ؛ او اكثر انقياداً ووفاءً ، كالكلب ؛ أو احدّ بصراً ، كالنسر ؛ او أقدر عـلى الضبط الذاتي والعمل الشاق ، كالنملة ... ومع ذلك فأن في القرد شيئاً يجعلني أوثرهُ على جميع هذه الحيوانات ، وإنّ في الأنسان شيئاً من فضول القرد وبراعته يجعلني أفضل أن اكون إنسانا . صحيح أن النمل أحسن تنظيماً من بني الأنسان ، ولكن هل عند جماعة النمل مكتبة أو متحف ؟ لا . وحالما تخترع النملة أو الفيل مرصداً عملاقاً ، أو تكتشف نجما جديداً ، أو تتنبأ بحدوث كسوف شمسي أراني مستعداً لأن أقرّ لأي منها بزعامة العالم . أجل ، في ميسورنا ان نفخر بانفسنا ، ولكن من الخير ان نعرف ما الذي ينبغي الافتخار به ، وبكلمة ثانية ، ان ندرك جوهر الكرامة الأنسانية .

والكرامة الانسانية إنما تتألف من خصائص أربـع ، هي الفضول المرح ، والأحلام ، وروح الدعابة الـتي تصحح هذه الأحلام ، والتقلب والتمرد .

« ب » في الفضول المرح : نشأة الحضارة الانسانية

كيف بدأ الماكر البشري ارتقاءه سلم المدنية ؟ ليس من

ريب في أن الجواب عن هذا السؤال ينبغي ان يُلتمس في فضول الأنسان المرح ، في محاولاته الأولى تلمّس الأشياء بيديه وتقليبه إياها ظهراً لبطن ابتغاء فحصها ودرسها، كما يقلب القرد في ساعات فراغه جفن قرد آخر أو شحمة أذنه بحثـاً عن القمل او لمجرد التقليب ليس غير . إذهب الى حديقة للحيوانات وراقب قردين يعالج كل منهما أذُن الآخر تجد في برديهما نواةً لعالم كاسحق نيوتن أو البرت آينشتين !..

وهـذا التصوير لنشاط اليد المتلمسة المكتشفة ليس كلامـاً مرسلاً على عواهنه . إنه حقيقة علمية. فأساس الحضارة الانسانية نفسه إنما بدأ عندما تحررت يدا الانسان، نتيجة اصطناعه وضعاً منتصباً ، وصيرورته ذا رجلين اثنتين . ومثل هـذا الفضول المرح يمكن أن نشاهده حتى في القطط حالما تتحرر قوائمها الأمامية من مهمة السير والنهوض بعبء الجسم .

ولأنسَ لحظة اني لست عالمـاً بيولوجياً ولأطلق لتأملاتي العنان حول نشأة الحضارة الانسانية من تحرر اليدين هـذا . فالحق ان اصطناع القامة المنتصبة وما عقبه من تحرر اليد كانت له نتائج بعيدة الأثر . فقد ادى ذلك إلى استعمال الادوات ، والى الحياء ، والى إخضاع المرأة الخ ...

من المعروف المشهور ان الحضارة الانسانية بدأت باكتشاف الأدوات ، وان هـذا الاكتشاف انبثق عن نشأة اليدين وتطورهما . ولكن ما قولك اذا زعمت لك ان نشوء الحياء الجنسي عند الانسان ، وهو ما تجهله الحيوانات جهلاً تاماً ، انما يرجع هو الآخر الى تلك القامة المنتصبة أيضاً؟ذلك لأن انتصاب القامة أدى الى أن تحتلّ بعض أجزاء الجسم الخلفية نقطة متوسطة من الجسد ، فأذا الذي وضعته الطبيعة في المؤخرة ينتهي الى ان يصبح في المقدمة . ورافق هذا الوضع الجديد ضروب أخرى من سوء التعديل أصابت المرأة بخاصة ، فهي تضعُ حملها قبل إبانه ، وهي تعاني آلاماً طمثية مبرحة . والحق ان عضلاتنا قد نشأت وتطورت ، من ناحية تشريحية ، وفق الوضع الخاص بذوات الأربع. فأنثى الخنزير مثلاً تحمل اجنتها في بطنها وهي معلقة على شكل افقي ، بسلسلتها الفقرية ، كما يتدلى الغسيل من الحبال المنصوبة بصورة توزع ثقله توزيعاً ملائماً . وليس من ريب في ان تكليف المرأة الحامل ان تقف منتصبة القامة اشبه ما يكون بأقامة الحبل عمودياً وتوقـّع بقاء الغسيل عـلى وضعه الأصلي ...

وادت هذه الحال الى اخضاع النساء . ولو قد كانت الأم البشرية قادرة على ان تمشي على أربع اذن لما اخضعت لسلطان زوجها بحال . والواقع ان قوتين اثنتين عملتا ههنا في آن معاً. فمن ناحية ، كان الرجال والنساء في ذلك الوقت كائنات متبطلة فضولية مرحة ، فاتخذت الغريزة الحبية ضروبـاً من التعبير جديدة . ذلك بأن التقبيل كان لا يزال غير سائغ ولا ناجح ، على ما نرى حين يقبل قردٌ قرداً بفكيه الغليظين ، المصفقين ، الناتئين . فأنشأت اليد حركات جديدة ارق وأنعم، هي التربيت والمداعبة والدغدغة والعناق ، وكلها ثمرات عارضة لمحاولة الرجل اقتناص القمل الساري على جسم المرأة ، ومحاولة المرأة اقتناص القمل السارح على جسم الرجل ... ولست اشك في ان الشعر الغنائي ما كان يمكن ان ينشأ لو كان اجدادنا الشُّعر * خالين من القمل وأضرابه ...

ومن ناحية ثانية فان الانثى البشرية الحامل انتهت الى ان تـُخْضَع ، الآن ، لفترة أطول من العجز الأليم . فهل يكون عجيباً بعد ذلك ان تلجأ الأم البشرية الى طرائق جديدة ، وان تتودد الى الرجل لاستدرار عطفه وحبه ، فاقدة بسبب من ذلك ما كانت تتمتع به من روح الاستقلال ؟

« ج » في الاحلام

يقولون ان الاستياء إلهي ، ولكني واثق على أية حال من أن الاستياء إنساني . والواقع ان القرد كان اول حيوان عبوس ، فأنا لم اشهـد في الحيوانات وجهاً كئيباً حقاً غير وجـه الشيمبانزي . وكثيراً ما خطر لي ان الشيمبانزي لا بد ان يكون فيلسوفاً ، لأن الحزن والتفكير ابنا عمومة ، وانا أقرأ في وجهه ما يؤذن بأنه يفكر ويقدّر ...

ولعل الفلسفة بدأت ، اول مـا بدأت ، مع روح الضجر والاستياء . ومن خصائص البشر ، على أية حال ، الحزن والغموض والتوق الدائب الى مثل أعلى . ذلك ان الانسان برغم عيشه في عالم واقعي ، نزّاع دائماً الى ان يحلم بعالم آخر . ولعل الفرق بين الانسان والقردة هو ان القردة يعتريها السأم ولا شيء وراء السأم ، في حين ان الانسان يجمع الى السـأم والضجر خيالاً . فنحن جميعـاً نرغب في الخروج من الجُحْر القديم ، ونحن جميعاً نود ان نكون غير ما نحن ، ونحن جميعـاً تراودنا احلام عريضة ...

* جمع «أشعر» ، والاشعر هو الكثير الشعر الطويل .

والامم تحلم ايضاً ، وان ذكريات احلامها لتعمر اجيالاً وقروناً . وبعض هذه الاحلام شريف ، وبعضها لئيم وضيع . فاحلام الفتح والتوسع على حساب الآخرين هي ابداً احلام رديئة ، في حين ان الحلم بعالم افضل وبالسلم والوئام شيء صالح . والناس يقاتلون دون احلامهم كما يقاتلون دون ممتلكاتهم المادية ، وهكذا تهبط الاحلام من عالم الرؤى وتلج عالمَ الحقيقة لتصبحَ قوة فعالة في حياتنا .

« د » في روح الدعابة والظرف

الذي أحسبه ان الناس لا يقدرون الدعابة والظرف حق قدرهما ، ولا يدركون اثرهما في تغيير وجه الحياة الثقافية كلها . . .

ومن اخطر الخطر ان يكون حكامنا غير قادرين على الابتسام ، لأن هؤلاء الحكام يسيطرون على السلاح كله . ولا نستطيع ان ندرك اهمية الدعابة في دنيا السياسة الا اذا تخيلنا عالماً يتولى مقاليده نفر من عباقرة الظرف والفكاهة . أرسل مثلاً خمسة او ستة من ابرع الرجال في هذا الميدان الى مؤتمر دولي وزوّدهم بصلاحيات مطلقة كصلاحيات الحاكمين بأمرهم ، تجدِ العالم قد نجا من خطر الحرب ورزاياها . دع برنارد شو يمثل ايرلندة ، وستيفان ليكوك يمثل كندا ، وألدوس هاكسلي يمثل انكلترة ، وروبرت بنتشلي يمثل الولايات المتحدة ، واختر لتمثيل ايطالية وفرنسة والروسيا والمانيا رجالاً من الطراز نفسه ، ثم ارسلهم جميعاً الى مؤتمر يعقد عشية حرب عالمية ، وانظر ما اذا كان في وسعهم ان يبدأوا حرباً جديدة ، مهما جهدوا في ذلك وأسرفوا في التماس الاسباب . وهل تستطيع ان تتخيل هذه العصبة من الديبلوماسيين الدوليين تشنّ حرباً او ترسم الخطة لحرب ؟ إن روح الدعابة والظرف تمنع ذلك وتأباه . . .

تلك في ما اعتقد الوظيفة الكيميائية التي تؤديها الدعابة : أنْ تغير طابع تفكيرنا وصفتَهُ العامة . وأحسبُ انها تمتد بعيداً الى جذور الثقافة نفسها وتمهد السبيل لبزوغ فجر عصر جديد تسود فيه الناسَ روحُ الاعتدال ، وتهيمن عليهم قوة الادراك ، والتفكير السهل ، والمزاج المطمئن ، والاستشراف outlook المثقف . وذلك بان العالم المثالي لن يكون عالماً عقلانياً ولا عالماً كاملاً باي معنىً من المعاني ، ولكنْ عالماً تُدْرَكُ فيه نواحي الضعف في يُسر وسهولة ، وتسوّى فيه المنازعات في دراية وتعقل .



٥ . عيد الحياة

« أ » غاية الحياة الاستمتاع الحق بها

يشمل الاستمتاع بالحياة أموراً كثيرة ، من مثل إبهاج ذواتنا ، وتمتعنا بالحياة العائلية ، والاشجار ، والازهار ، والسحب والأنهار ، والشلالات وغيرها من بدائع الطبيعة وعجائبها ، وتذوقنا للشعر ، والفن ، والتأمل ، والصداقة ، والحديث ، والمطالعة ، وهي كلها ضروب من تواصل الأرواح واتحادها . وبعض هذه الأمور واضح كل الوضوح من مثل الاستمتاع بالطعام ، وبحفلة بهيجة أو باجتماع عائلي ، وبعضها اقل وضوحاً كالاستمتاع بالشعر والفن والتأمل . ولقد وجدت من المتعذر عليّ أن اسمي هذين الصنفين من المُتَع باللذات المادية واللذات الروحية ، لأنني لا أؤمن بهذا التمييز ، من ناحية ، ولأنني لا أقضي العجبَ كلما حاولتُ أن اقوم بهذا التصنيف من ناحية ثانية . إذ كيف استطيع ان اعيّن ، حين أرى الى جماعة من الشبان والشابات والشيوخ والأطفال في نزهة مرحة ، أيَّ جزء من ملذاتهم هو ماديّ ، وايَّ جزء منها هو روحي ؟ إني لأرى طفلاً يتقلب على العشب ، وآخر ينضد عقوداً من الأقحوان ، وأرى الأم ممسكةً بشطيرة أو ساندويش ، والعم ينهش تفاحةً حمراءذات ماء ، والأب متمدداً على الثرى يتطلع إلى قطعان الغيم يسوقها حادي الريح ، والجد مستغرقاً في تدخين غليونه اللذيذ . ولعل امرءاً ما يدير بعض الاسطوانات على الحاكي ، وهكذا تنبعث من مكان بعيد وشوشات الموسيقى الحالمة ، وزمجرات الأمواج القصية . فأيّ هذه المباهج مادي وأيها روحي ؟ . . . إن تقسيم اللذات الى مادية وروحية مَدْعاة الى اللبْس ، وهو فيما أرى ناشيء عن فلسفة مغلوطة تحتاج الى تصحيح .

ولكنْ ما لنا ولهذا ، ولنحاول الآن ان نجيب عن هذا السؤال : ما هي الغاية من الحياة البشرية ؟ الواقع أني من القائلين بان الغاية من الحياة هي الاستمتاع الحقّ بها ، وأن المشكلة التي تواجه كل من يولد على ظهر هذه الأرض ليست مشكلة الهدف الذي يتعين عليه اتخاذه ، في هذه الحياة ، ثم العمل على بلوغ

ذلك الهدف ، ولكنها مجرد ما ينبغي ان يعمله بهذه الحياة التي مُنِحنَها لمدة من الزمن تتراوح ، في المتوسط، بين خمسين عاماً وستين عاماً ؟

« ب » السعادة الانسانية حسية

إن السعادة الانسانية كلها سعادة بيولوجية . وتلك حقيقة يؤيدها العلم تأييداً بالغاً . وخشية أن يساء فهمي أسارع فأضع هذا الحكم في صيغة أوضح فأقول : إن السعادة الانسانية كلها سعادة حسية . بل إني لاذهب الى ابعد من ذلك فأزعم أن السعادة تكاد تكون بالنسبة الي شخصياً مسألة هضم .. ذلك بانه اذا تحركت أمعاء المرء تحركا نظامياً كان سعيداً ، واذا لم تتحرك تحركا نظامياً كان أبعد الناس عن السعادة ... أليس كذلك ؟

ولنحاول أن ننفذ الى الوقائع فندرس في ما بيننا وبين أنفسنا حقيقة اللحظات السعيدة في حياتنا . والواقع أن السعادة كثيراً ما تكون ، في عالمنا هذا ، سلبية ً بمعنى أن انعـــدام الأسى او الغم او الألم الجسدي انعداماً كاملاً يضفي على المرء ثوب السعادة . فاللحظات السعيدة حقاً بالنسبة اليّ أنا ، مثلاً ، هي التالية : عندما أنهض صباحاً بعد ليل من النوم ملء الجفنين ، وأتنشق هواء الصباح فتتسع رئتاي ، وعندما اكون في حال مساعدَة على العمل ، وعندما أمسك بيدي غليوناً وأريـــح رجليّ على كرسيٍّ والتبغ يشتعل في تؤدة ويُسر ، او عندما استرخي بعد غداء كامل في كرسي ذي ذراعين وآخذ باطراف الحديث مع رفاق ليس فيهم شخص واحد أكرهه ...الخ

وكما يتعذر علي ان اقرر ما اذا كنت احب اولادي جسديا ام روحياً حين أسمع الى اصواتهم الثرثارة او حـين أنظر الى ارجلهم الممتلئة ، كذلك أراني عاجزاً عن التمييز ما بين مباهج العقل ومباهج الجسد . وهل ثمة إنسان يستطيع ان يحب امرأة ما روحياً من غير ان يحبها جسديا ؟ وهل من اليسير على الرجل ان يحلل ويصنف مفاتن المرأة التي يحبها ، وفيها أشياء من مثل الضحك ، والابتسام ، وطريقة تحريك الرأس ، واتخاذ موقف معين من الأمور ؟ وأيا ما كان فجميع الفتيات يشعرن بمزيد من السعادة حين يرفلن بأثواب قشيبة فاتنـة . وإن في احمر الشفاه واحمر الخدود لقدرة ً على تنشيط النفس والسمو بهـا ، قدرة ً حقيقية تستشعرها الفتاة نفسها وإن لم تخطر للروحانيين على بال . واذ كنا مركبين من هذا الجسد الفاني ، فقد لزمَ ان يكون التقسيم الذي يفصل جسدنا عن روحنا رقيق الحواشي الى حد بالغ ، وان يتعذر الوصول الى عالم الروح ، بانفعالاته الرفيعة وتقديره الأسمى للجمال ، الا من طريق حواسنا . فليس ثمـــة مَنْقبية او لا منقبية في حاسة اللمس وحاسة السمع وحاسة البصر . واغلب الظن ان فقداننا القدرة َ على الاستمتاع بمبـاهج الحياة الايجابية راجع في معظمه الى حَساسية حواسنا المتناقصة وعدم اصطناعنا لها اصطناعاً كاملاً .

منير البعلبكي

الآداب تستفتي

حول تشجيع الادباء الناشئين

وجهت «الآداب» الى عدد من اصحاب المجلات الادبية او المشرفين على تحريرها ، ممن شاركوا في نشر الحركة الادبية في العالم العربي ، وواجهوا مشاكل نشر الآثار الأدبية ، السؤال التالي :

« هل ترون من واجب اصحاب المجلات الأدبية ، ان يشجعوا الأدباء الناشئين بنشر آثارهم ، ولو لم تَحُزْ جميع شروط الجودة والكمال ؟ »

وقد تلقت «الآداب» الجواب من جميع الذين وجهت اليهم هذا السؤال باستثناء الزميل الاستاذ البير اديب صاحب « الأديب » الغراء .

أهمية المستوى

جواب الاستاذ عيسى الناعوري

صاحب « القلم الجديد » بعمان

الذي اعتقده ان مستوى المجلة الادبية الراقية ليس بالشيء الذي يمكن ان يتصرف به المحرر كما يشاء ، وإنما هو امانة مقدسة في عنقه ، تتعالى على كل مجاملة ، وكل اعتبار آخر يمكنه ان يهبط بشيء من هذا المستوى الفكري الراقي . والادباء الناشئون في حاجة الى تشجيع ، على ان لا يكون هذا التشجيع على حساب مستوى المجلة الفكري ، فاذا لم يحز انتاجهم شروط الجودة والكمال الى الحد الذي يتناسب مع المستوى الراقي للمجلة ، فلست أرى في تشجيعه اكثر من الاكتفاء منه بخلاصة فكرته، او ببعض فقراته التي فيها خلاصة الفكرة، في باب البريد الأدبي ، او في باب ينشأ خاصاً بالاقلام الناشئة — ولست في الواقع ممن يحبذون هذا الباب الأخير — على شرط ان لا يخصص له حيز كبير من المجلة .

ان الأديب الناشيء ، غير الناضج للكتابة القوية ، كالسابح الناشيء يستطيع دائماً ان يجد البركة الصغيرة الضحلة المياه ليتمرن فيها على السباحة قبل ان يصل الى البحر ليصارع امواجه. والمجلات الاجتماعية ذات الانتاج الادبي الضعيف ، هي التي يستطيع الناشيء الضعيف ان يمرن قلمه على صفحاتها ، ريثما يسلس قلمه للانتاج القوي . وهذا النوع من المجلات كثير في كل قطر عربي .

اما الناشيء الذي يستطيع تقديم انتاج ذي قيمة ادبية حقيقية ، فالمجلات الأدبية الراقية يجب ان لا تنظر الى اسمه المغمور ، بل الى انتاج قلمه الجدير بالنشر ، فتنشره لقيمته لا لمجرد التشجيع . ومثل هؤلاء الناشئين يجب افساح المجال لأقلامهم ، لأن المستقبل لهم ، فهم ورثة الجيل الأدبي الحاضر

تخصيص جزء للناشئين

جواب الاستاذ ذو النون ايوب

صاحب « المجلة » المحتجبة — بغداد

المجلات الأدبية ، كما اعلم ، على انواع ، منها التجاري الذي يرمي الى سعة الانتشار بارضاء القراء ، ومنها ما يرمي الى نشر الثقافة وترقية المستوى الادبي للمجتمع ، ومنها ما يستهدف اتجاهاً ادبيا خاصا لغرض مبدئي او سياسي... الى غير ذلك .

فاذا ما اطلقنا اسم المجلة الادبية على النوع الذي يستهدف رفع المستوى الفكري والادبي في المجتمع ، لا نرى من الجائز ان تكرس المجلة لتشجيع الناشئين من الكتاب بحيث يؤدي ذلك الى انحطاط مستواها الادبي ، ولكن هذا لا يعني بالطبع سد ابواب المجلة في وجه عشاق الادب وخصوصا ذوي النباهة والكفاءة منهم ، ولا بأس هنا من تخصيص جزء صغير منها بصورة دائمة لذوي المستقبل الطيب من النابهين من الكتاب الناشئين، ولو لم تحز آثارهم جميع شروط الجودة والكمال .

ضرورة تشجيع الناشئين

جواب الاستاذ فؤاد حبيش

صاحب « المكشوف » المحتجبة — بيروت

إن مشكلة تشجيع الادباء الناشئين بنشر آثارهم وإن قصرت عن بلوغ مرتبة الجودة — ولا اقول الكمال لانه ليس من عمل الانسان — لهي مشكلة قديمة عاناها اصحاب المجلات الادبية في كل مكان وزمان ، وكان لكل منهم رأي في تدبرها على الوجه الذي ارضى ضميره ، ووائم مزاجه ، وجارى نظرته الى اثر الفكر من حيث انه عامل اجتماعي له اهميته سواء أكان صاحبه موهوبا حقا يأتي بجديد أو يرتجى منه جديد ، أم خاملاً يجتر القديم اجتراراً ولا يشع به بيان ناصع أو عبارة بليغة .

أما انا شخصيا فقد كان لي مذهب في نشر ما كان يرد على مجلتي « المكشوف » من مقالات وقصائد ومباحث . وكان شعاري النظر الى ما يكتب لا إلى من يكتب . وكثيراً ما اتفق لي ان اهملت فصولاً مذيلة بتواقيع اعلام من كتابنا لضآلة محتواها وهزال فكرها ، واقبلت على نشر سواها لفتيان مغمورين، لا اعرف عنهم الا ان نتاجهم الذي بين يدي يموج بموهبة ، وتشع منه بارقة امل بان في نفس صاحبه شيئا يجب ان ينشط على قوله . بل كثيراً ما اتفق لي ان عمدت الى تصحيح كتابات بعضهم وضبطها ، على ما في هذا العمل من عناء ومشقة ، لاني شعرت بانها تنطوي على طريف في فكر ، او ذاتي في شعور ، أو جريء في نقد، أو عامر باخلاص ، أو مميز بشخصية .

وكنت وما زلت اقول : اذا لم يفسح للادباء الناشئين في مجال النشر ، فكيف يقدر لهم ان تظهر مواهبهم ، وينبه ذكرهم ، ويفيدوا مجتمعهم ، إذا كانوا على شيء من ذكاء النفس ؟

وليس يصعب على المضطلع بأعباء مجلة ادبية ان يكتشف في نتاج الاديب الناشيء عناصر الادب الصحيح .

وإني افترض في الاديب الناشيء انه يملك من نفاذ بصيرة. ورهافة حس واحتراس من السخر[1] ما يكفيه لنقد صنيعه الادبي ولو بقليل من الاخلاص نحو لفسه ، فيدرك ، في غير عناء : أجدير هذا الصنيع بالنشر أم هو بالطي أحق ؟

وثمة ناحية تجارية خالصة في القضية تختلف الآراء في شأنها . اما انا فقد كنت اؤثر ان اخسر عشرات المشتركين ينقطعون عن مطالعة مجلتي الأدبية

(1) sens du ridicule

لانها تشجع الناشئين ، وهم ما اقبلوا عليها إلا رغبة منهم في الافادة من كتابات فطاحل المفكرين وكبار الادباء ، على اكتشاف اديب اصيل واحد بين الناشئين يفتش عن منفذ يخرج منه الى النور ، وتكون مجلتي هذا المنفذ.

وبعد ، فاني لا احسب ان مجلةادبية تضيق ذرعاً بقصيدة او مقالة «يتحفها» بها ناشيء على تحرج قرائها وعنتهم .

ولست ارى مبرراً ، مهما تعددت الاسباب ، لقطع الطريق على الادباء الناشئين باهمال نتاجهم بحجة انهم ليسوا خليل مطران ، أو طه حسين ، أو بطرس البستاني مثلاً .

على ان محرر المجلة الادبية مطالب ، مع ذلك ، بان لا يدع آثار الناشئين تطغى على ما عداها ، لئلا تصبح مجلته ميداناً يتبارى فيه تلامذة المدارس، او «بريداً» يحمله بعضهم ما تفيض به قريحته من بث وشوق ولوعة إلى اميرة نائية... او حبيبة لا وجود لها إلا في مخيلته الجموح .

أخطار التشجيع

جواب الاستاذ صدر الدين شرف الدين صاحب « الساعة »

تسألوني عن ناشئة الادب ، أيبيح مبدأ تشجيعهم نشر آثارهم ام لا ؟

وابادر في الجواب فأذهب الى النفي ، لان مبدأ التشجيع هذا إنما يستقيم عندي إذا لم يصطدم بمناهج التربية ، ولم يخل بشيء من اصالة الادب في ذاته ولا في الطامح اليه ، ولا في قارئه . اما إذا استلزم التشجيع الخروج على شيء من هذا فالرأي الذي أراه ان نعدل به عن النشر إلى ظواهر اخرى من ظواهره المعروفة ، بداهة ان التشجيع في هذه الحال ينقلب — إذا تعمقنا الامر — إلى ضده بما يجر وراءه من الاغاليط والاخطاء الكامنة في اعماق هذا الوهم ، ومدعي صحة التشجيع في هذه المسألة كمن يهدم الهيكل وهو يزعم انه يوسع مسالكه ويسهل مهمة الدخول اليه .

وكي اكون اكثر وضوحاً اشير إلى ردود الفعل التي عاناها الادب اخيراً من اثر التسامح بالنشر تحت ستار التشجيع ، والفت النظر في هذا الصدد إلى ما شاع في الآثار الادبية من الابتذال والسطحية واللحن والفضول والفوضى ، حتى بات الاصيل المنظم المطبوع اندر من النادر في اكثر ما نقرأ .

ومرد هذا — كما يبدو — ان للنشر القدوة نفوذاً — ولا ريب — يقترن بثقة القاريء واعتداد الكاتب ، وكان من اثر هذا في جمهور يمتاز بالتقليد ، ويستوي لديه الغث والسمين ، ان اغتر الكاتب راضياً من الغنيمة بالاياب ، واحتذى القاريء نصوصاً هي عنده بحسناتها وعيوبها موضع الاعجاب ، ثم اصطلح الفريقان متكافلين متساندين على اسقاط كل اعتبار ، والتخاص من كل قيمة تاركين للفكر وللادب ربحاً كثيراً هو الاقبال على امر مفقود !

واي ربح اكثر ربحاً من اشتداد الطلب وندرة العرض ؟

على اني — حين اتشدد في النشر — لا ادعو إلى « ارستقراطية » ولا ابارك « برجية » ولكني اتمنى للاقلام أن تجيش في نطاق الحياة ، فتنشيء منها إدبها الحي وفكرها الصافي ، وعبقريتها المبدعة . ولن تنشيء هذا الادب الخالد غالباً إلا حين تنغمس بالمعرفة والمران وطول المعاناة .

وغني عن القول استثناء من استثنيتم ، فان الناشيء إذا توفرت فيه شروط الابداع والتجويد كان من حق القيمة المبكرة فيه ان تذاع آثاره مذيلة في اطر معطرة ، ولست ارى تشجيعاً هو التشجيع إلا في الأفلاء من هؤلاء العباقرة .

التشجيع واجب مقدس

جواب الاستاذ عادل الغضبان

رئيس تحرير مجلة « الكتاب » — مصر

ان الجواب عن سؤالك منشور على صفحات « الكتاب » في غير جزء من اجزائها ؛ فكم فيها من مقال وبحث وكم فيها من قصيدة ومقطوعة تنث عرف الشباب وتبث رسالة العلم والأدب والفن وأصحابها في رونق الربيع الباسم من اعمارهم .

وإني لعلى يقين ان نشر نفثات الشباب واجب مقدس ، فقد يكون احياناً نشر مقال واحد او قصيدة واحدة زنداً تقتدح به نار النبوغ والعبقرية فيذكو لهما ضرام ونور .

على انه اذا لم تتوافر شروط الجودة والكمال في آثار الادباء الناشئين فلست إخال يشق على من بيده امر النشر ان يتبين أقصور ذاك ام تقصير ولا يعز عليه ان يتيقن شأن الاديب الناشيء أطفيلي هو على موارد الشعر والنثر أم مطبوع أصيل ولكن تعثر في الورود فان بدا له قصوره وفضوله أغفله أو تجلت له الموهبة العاثرة أقال عثرتها وشق عنها الاسداف وأطلعها للقراء هلالا سوف يكون في يوم من الايام بدراً كاملاً على حد قول ابي تمام :

ان الهـلال اذا رأيت نموه ... أيقنت ان سيكون بدراً كاملا

إحراج..

جواب الاستاذ عبد الله المشنوق

صاحب « بيروت - المساء »

تسألني عن رأيي في مجلة «الآداب» هل تفتح أبوابها للناشئين من الادباء أم تقتصر على نتاج الادباء المعروفين . وفي سؤالك هذا احراج ، فكأنك تريد ان تثير علي نقمة الناشئين ، بعد ان فقدت عطف «الكبار» يوم حملت عليهم حملتي الشعواء في مقال «المجاعة الادبية » إذ جردت معظمهم من العمق وسجلت عليهم نزعتهم المادية التجارية .

اؤمن بان الأدب هو الجيد من المنظوم والمنثور مبنى ومعنى ، لا فرق عندي بين ان يكون كاتب هذا «الجيد» ناشئاً او «قزماً كبيراً» ، فانشروا في « الآداب » ما يتناسب ورسالتكم الأدبية الرفيعة ، ولا تجعلوا منها سوقاً خيرية.. للاحسان الى الناشئين على حساب الادب.. وباسم الأدب.. اتركوا هذا الاحسان لبعض محطات الاذاعة العربية التي تفرض على المستمعين انتاجاً لا يمت الى الأدب بصلة.. ولن يضير الأدب الرفيع هذا التشجيع لأنه ينقل على امواج الاثير.. ويذهب مع الريح ..

عصرنا اليوم عصر الانقلابات واني اتمنى ان تحمل «الآداب» رسالة الانقلاب الادبي في دنيا العرب !

النشاط الثقافي في العالم العربي

مصر

« أدب الثورة »

لمراسل « الآداب » الخاص بالقاهرة

تبدأ الحياة الفنية اليوم في مصر بوجه عام ، والحياة الادبية بوجه خاص ، مرحلة من الحرية لم تكن ميسرة لهما في ذلك العهد البائد الذي انتهى منذ قريب بانتهاء حكم الطغيان.. لقد تميز ذلك العهد البغيض بأنه كان كابوساً ثقيلاً جثم على الصدور فلا تتنفس،وعلى الأقلام فلا تكتب،وعلى الألسنة فلا تنطق؛ الا بما يتفق واتجاهاته ويسير وفق هواه ! وكان من نتيجة هذا كله ان تخلفت اكثر الاقلام الحرة عن تأدية رسالتها الادبية والاجتماعية ، ما دام الجو الذي يحيط بها لا يتيح لها أن تعبر كما تريد ، ولا يسمح لها بأن تتخطى الحواجز لتصل بحديثها الى قرارة النفوس والعقول... تخلفت اكثر الاقلام الحرة وبقيت في الميدان اقلام اخرى تناضل وتقاوم ؛ ولكنه النضال الذي تقف في وجهه الرقابة ، والمقاومة التي تصطدم في طريقها بسلاح المصادرة، حتى لقد أرغمت الآراء والافكار على ان تظل سجينة القوالب الرمزية ، تلك القوالب التي يضيع فيها الهدف المقصود وهو مغلف بطبقات من الضباب... من هنا لم تستطع هذه الاقلام ان تؤدي هي الاخرى رسالتها الادبية والاجتماعية . ومن هنا ايضاً تعرضت الفنون وتعرض الادب لمحنة قاسية ؛ كان من اسبابها الأصيلة هذا اللون الصارخ من ألوان القيود !!

ولقد وقف الدكتور طه حسين يوماً عند هذه الظاهرة وقفة متأنية ، وهو يتحدث عن محنة الادب على صفحات «الاهرام»... وقد قال فيما قال ان الرقابة الدائمة على اقلام الادباء هي مصدر هذا الركود الأدبي في مصر، لأن الادب لا يستطيع ان يحيا الا اذا تنفس بحرية ولا يستطيع ان يتنفس بحرية الا اذا اختفى من افقه شبح الرقيب ! وقف هذه الوقفة ثم استشهد بتعبير تاريخي ورد على لسان نابليون يوم ان اصيب الادب في عهده بمثل هذا الركود :وهو ان المسؤول عن موت الادب رجل واحد هو وزير الداخلية !!

كان هذا هو حال الادب في مصر بالأمس ، وكذلك كان حال الفنون بوجه عام... صودر كتاب «المعذبون في الارض» للدكتور طه حسين ، وصودر كتاب «احمد عرابي» للاستاذ عبدالرحمن الرافعي ، وصودرت قصة سينمائية عن حياة «مصطفى كامل» للوزير الحالي فتحي رضوان، وصودر ديوان «إصرار» للشاعر الشاب كمال عبدالحليم، وصودرت عشرات المقالات التي كانت تنشر في الصحف اليومية والاسبوعية ! وجاء العهد الجديد وجاءت معه الحرية للاقلام المصفدة والآراء السجينة، فانطلقت من وراء القضبان شتى الخواطر محمولة على جناح الشعر والمقالة تارة، وعلى جناح القصة والمسرحية تارة اخرى، وعلى جناح التصوير والموسيقى تارة ثالثة؛ ولأول مرة في تاريخ مصر الحديث يشعر الادباء والفنانون شعوراً حقيقياً بانهم فيما يعبرون احرار!!

مرحلة جديدة ينتقل فيها الأدب والفن من الظلام الى النور ؛ وفي ظل هذه النقلة المشرقة يتطلع الادب المصري الى الغد المرتقب ، ويتأهب لوثبات يساير بها ركب النهضة ويشارك في موكب التحرير...ومن بوادر هذا التأهب ما تشهده الأندية الادبية من نشاط فكري يدور حول هذا الهدف ويلتمس لتحقيقه شتى الوسائل والأسباب. ولقد حاضر الدكتور طه حسين في هذا المجال اعضاء «نادي القصة» منذ اسابيع، وطاف بحديثه المسهب حول اتجاه الادب في العهد الجديد كما ينبغي ان يحدد ورسالة الاديب المتصل بما حوله كما يجب ان تكون! وتبعاً لهذا كله فقد انتقل الحديث من هذه الزاوية الى زاوية اخرى جديدة، تركز فيها اهتمام المحاضر بمشكلتين خطيرتين هما: « حقوق المؤلفين» ومطالبة الحكومة باستصدار قانون يحافظ على هذه الحقوق؛ وتكوين جمعية للادباء كتلك التي تقوم في فرنسا وتشبه في جوهرها تكوين النقابات . اما المشكلة الاولى فقد وعد مندوب « القيادة العامة » الذي حضر الاجتماع بان يبذل كل ما في طوقه من جهود لاستصدار هذا القانون ، كما عهد الى الاستاذ توفيق الحكيم برئاسة لجنة يكون هدفها التغلب على المشكلة الثانية ، وذلك بوضع قانون لهذه الجمعية وتوجيه الدعوة للمشاركة في تكوينها الى اصحاب الأقلام !

ولقد تحدث الاستاذ الحكيم في هذا الموضوع وما دار بشأنه في « نادي القصة » الى الاستاذ انور المعداوي ، فكان من رأيه — أي الاستاذ المعداوي — ان تقتصر مثل هذه الدعوة على الادباء الذين يفهمون رسالة

النشاط الثقافي في العالم العربي

الادب على وجهها الصحيح ؛ اي على الادباء الحقيقيين لا الكتاب الصحفيين ! عندئذ تستطيع الجمعية مها قل عدد اعضائها تبعاً لهذا التحديد ، ان تنهض بواجبها وان تؤدي رسالة الادب الفنية والاجتماعية ، ما دامت تملك القدرة الواعية على رسم خط السير بعد تمييز معالم الطريق !!

عند هذا المعنى الأخير الذي اتجه اليه تعقيب الاستاذ المداوي على حديث الاستاذ الحكيم ، وقف الاستاذ سيد قطب وقفة اخرى متأنية في كلمة له بعنوان «أدب الثورة» وجهها الى الادباء عن طريق الإذاعة اللاسلكية ... قال الاستاذ قطب وهو في معرض الحديث عن هذا الادب :

« ونحن في حاجة الى ان نؤكد معنى آخر للثورة ولأدب الثورة ؛ في حاجة الى ان نقول للادباء : اذا اخترتم طريق الثورة فلا تجعلوا ذواتكم هي الصنم المعبود تدورون حوله وتتغنون باسمه وتحرقون له البخور وتنشدون من حوله الاناشيد ... ولكن اجعلوا هموم البشرية هي همومكم ، وآلام البشرية هي آلامكم ، وآمال البشرية هي آمالكم ... ثم انشدوا وقولوا ! نحن لا نطلب اليكم ان تضيعوا في الغمار . فالأديب انسان ممتاز في مشاعره نريد له ان يحتفظ لمشاعره بالامتياز ... ولا نريد ان تتملقوا رغبات الجماهير السطحية فأنتم قادة الجماهير ؛ ولا ننوي ان نفرض عليكم اتجاهات معينة ولا موضوعات معينة ولا تعبيرات معينة ... انما نريد فقط ان تغمسوا اقلامكم في ضمير الشعب ، وان تستمدوا افكاركم من جراحاته ... نريد ان تكونوا انتم هذا الضمير الذي يخفق ويرتعش ... نريد الانتفاضات والاهتزازات الصادقة الأصيلة ، العميقة في اغوار الضمير الانساني»

ولقد عاد الدكتور طه حسين مرة اخرى في محاضرة له بنادي « الاتحاد الثقافي » فتحدث طويلاً عن حرية الاديب وأثر هذه الحرية في انتاجه ... كما تحدث عن مسؤوليته إزاء المجتمع ومسؤولية القائمين بأمر هذا المجتمع ازاء كل اديب . ان من حق الاديب على الحكومة كما يرى الدكتور ان توفر له اسباب الحياة الكريمة ليتفرغ للانتاج ، وان تهيء له من وسائل الحرية ما يتيح له ان يعبر كما يريد ؛ وبهاتين المنحتين الطبيعيتين يستطيع الاديب ان يحتل مكانه في الطليعة من قيادة الجماهير ... اما عن هذه القيادة فان تبعتها الضخمة تفرض على الاديب ألا يتملق عواطف الناس وألا ينقاد لأهوائهم ، بل يحاول ما وسعته المحاولة ان يوجه تلك العواطف والاهواء توجيهاً فكرياً متسامياً في كل ناحية من نواحي الحياة ... ومعنى هذا كله ان على الاديب واجباً نحو المجتمع الذي يعيش فيه ، وهو ان يشارك في بنائه عن طريق القيادة الفكرية التي تحتم عليه ألا يهبط الى مستوى الجماهير بل يحاول رفع هذه الجماهير الى مستواه !!

هذه خلاصة موجزة لبعض ما جاء بحديث الدكتور عن مهمة الاديب في العهد الجديد ، وعلى ضوئها وضوء ما سبقها من تسجيل لشتى مظاهر النشاط الأدبي في مصر ، يمكنك ان تحدد اتجاه الحياة الادبية في هذه المرحلة الخطيرة من مراحل الانتقال .

سوريا

تطور الحركة الفنية

لمراسل الاداب الخاص بدمشق

أبرز مظاهر الحياة الفنية في سورية ، خلال الشهر الاخير ، تتمثل في

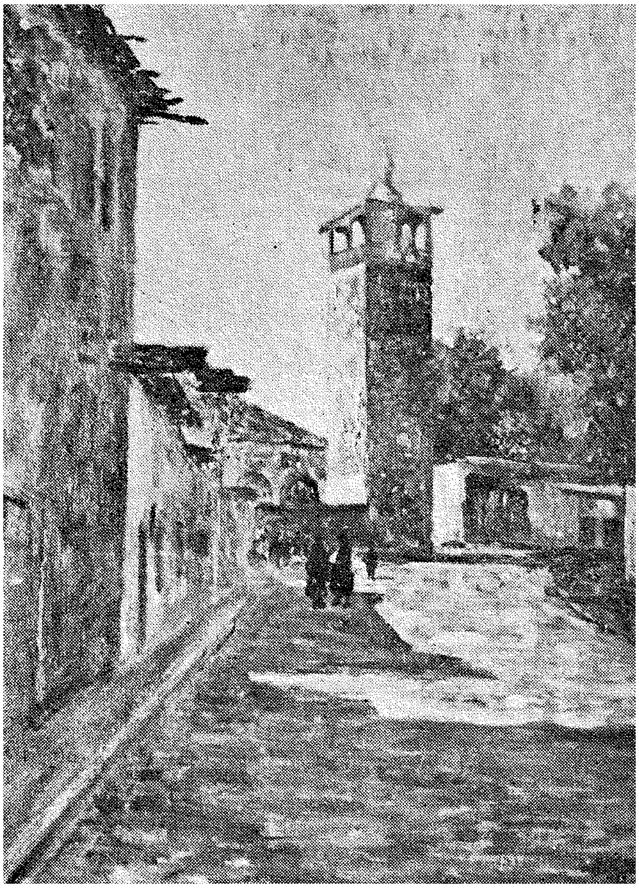
افتتاح المعرض الثالث للفنون الجميلة . والقراء قد لا يعرفون ان هذا المعرض معرض سنوي يقوم باشراف الحكومة وتتولى أمره وزارة المعارف ، وتفرد له جناحاً خاصاً في متحف دمشق ، وتأخذ مديرية الآثار العامة على عاتقها اقامته وتنظيمه في مثل هذه الفترة من كل عام .

وقد لجأت الحكومة الى ان يكون المعرض معرضاً سنوياً رسمياً لانها وجدت ان الحركة الفنية الوليدة في أشد الحاجة الى الرعاية من ناحية ، وإلى الاشراف والتنشيط من ناحية اخرى .. ولذلك أصدرت المرسوم التنظيمي برقم ١١٤٠ تبنت فيه فكرة المعرض السنوي ونظمت كل ما يتصل به ووفرت له جوائز مالية قيمة موزعة بين الرسامين والنحاتين .

وشهدت دمشق هذا المعرض مرتين في السنتين الماضيتين ١٩٥٠ و ١٩٥١ وكانت تلمح فيه ، في كل مرة ، بوادر تنبىء عن إبداع فني يأخذ طريقه الى الوجود والى النمو .. فلما كان هذا المعرض الثالث من هذا العام (تشرين الثاني ١٩٥١) كانت معه هذه الظلال الندية التي وجد فيها الجمهور البرد والسلام في هجير الحياة القاسية .

والواقع ان اقامة مثل هذه المعارض دفع للحياة الفنية في سورية وتشقيق للعبقريات الكامنة أو المستحيية ان تظهر وتسمو ، فلا يئدها الكبت ولا يقتلها

النشاط الثقافي في العالم العربي



الزبداني — للفنان نصير شورى

ان تفلت الفرص من بين أيديها .

★

ومن المؤكد ان هذه المعارض في سورية جاءت متأخرة بعض الشيء ، بل ان الحياة الفنية نفسها لم يكن لها الى عهد قريب كبير مجال .. والذين يذكرون ماضي هذه الحياة الفنية يستطيعون ان يوجزوا الطريق اليها في المراحل التالية :

في المرحلة الاولى لم يكن هنالك عناية أية عناية بالرسم ... وحتى في المدارس الثانوية لم يكن الرسم هذه المادة التي يأبه لها الطلاب أو تأبه لها الوزارة .. وفي هذه المرحلة كان يعمل ثلاثة من الرواد في سكون وصمت وفي جرأة وثقة ، وكانوا يصبون من ذوات نفوسهم في طلابهم يحببون اليهم هذه الاجواء الفنية ويقربونهم منها .. كان هنالك الاستاذ المرحوم عبدالوهاب ابوالسعود والاستاذ ميشيل كرشه والاستاذ جورج خوري.. وقد تعاقب هؤلاء الثلاثة على تدريس الرسم في المدرسة الثانوية الوحيدة آنذاك.. فكان الاستاذ ابو السعود يعنى بالزخارف العربيـة ويعنى بألوان الفنون الاخرى من الموسيقى والتمثيل ، وكان الاستاذ كرشه يعنى اكثر ما يعنى بالرسم متخلياً عن الزخارف العربية لزميله المرحوم الاستاذ ابو السعود ، وكان الاستاذ جورج خوري حديث الصلة باوربا فلم يجد في المدارس الرسمية مجالاً خصباً للعمل الفني فاستقلال .

وتلا هذه المرحلة التمهيدية الشاقة مرحلة ثانية قامت على عديد من الاساتذة الذين عادوا الى اوطانهم بعد غربة ومن الشبان الذين بدأوا نتاجهم آنذاك.. بعضهم عاد من دراسته في مصر (نصير شورى) أو في ايطاليا (رشاد قصيباتي) ، وبعضهم عاد من العراق بعد ان تولى التدريس فيها حيناً (سعيد تحسين) ، وبعض ثالث كان يشق طريقه آنذاك الى الحياة الفنيـة (ناظم جعفري ، أنور أرناءوط) .

وفي هذه المرحلة الثانية أخذت جهود هؤلاء العاملين تبدو وتتفتح ..كان عملهم فردياً وكان حديثهم عن عملهم أشبه بالهمس .. كانوا يدعون الى بيوتهم أصدقاءهم واخوانهم ، يطلعونهم على نتاجهم ويتحدثون معهم عن هذا النتاج.. كان كل غرضهم ان يجدوا التجاوب بين حواسهم الفنية وبين العدد القليل الذي يحيط بهم من أهل وأصدقاء .

ولا أزال أذكر دعوة كريمة وجهها الي أحد هؤلاء الفنانين ، وكنت حديث عهد بالحياة خارج نطاق المدرسة ، فعرض علي طائفة ضخمة من لوحاته وحدثني عن كل واحدة منها حديث الراضي وحديث الناقد .. وخرجت من عنده لأكتب في أوراقي الصغيرة ان هؤلاء الفنانين الرسامين يعانون من قسوة المجتمع أضعاف ما يعاني أصحاب الفن القولي. فقد كان للشعر والادب السياسي والادب الذاتي آنذاك مكانه في حياة جمهورنا المثقف . . أما الرسم والموسيقى فلم يكن لها من اهتمامه نصيب .



انقلاب — للفنان محمود حماد

النشاط الثقافي في العالم العربي

ومع المرحلة الثالثة بدأت حركة تجمع في .. فقد زاد عدد هؤلاء الفنيين منذ أخذت العناية بالرسم سبيلها الى المدارس ونشأت الحاجة الى الاستاذ، ووجد الفنيون متكأهم المادي ، ونشأ مع الاستاذ التلميذ.. والتقى جيل وجيل من الرسامين والفنانين في حلقات أو جماعات ، وافتتحت بعض المراسم هنا وهناك في بعض هذه الشوارع الجديدة في دمشق ، وأخذ أصحابها يعملون، يعملون في جد وفي تنافس يثير عندهم مواهبهم ويخصب نتاجهم .

وفشت هذه الحركة الفنية وامتدت متقدمة دائماً،وكان تقدمها بطيئاً ولكنه كان كذلك مستمراً ، وتتابعت البعثات الى القاهرة والى اوربا ، وتكتلت الجهود وتكاتفت الايدي حتى كانت هذه الحركة الفنية، هذاالوليدالذي اضطر الحكومة الى رعايته وتشجيعه .



سهرة في مقهى — للفنان صبحي شعيب

★

هذه النظرة السريعة الى ماضي الحركة الفنية في سورية ضرورية في تقويم المعرض الثالث للفنون الجميلة .. انها حركة قريبة العهد وهي لهذا قريبة الجذور .. ومع ذلك فقد استطاع الفنانون ، الرسامون منهم والنحاتون ، أن يضعوا بين أيدينا نتاجاً خصباً وأن يعرضوا أمام أعيننا أساليب متنوعة ، وان يطلعونا على تهويمات أرواحهم وخلجات عواطفهم تنساب على ريشهم او على أزاميلهم .. وأن يتقدموا خطوات فساحاً في سبيل التعبير القوي والالوان المنسجمة والاشكال المدروسة .. ولو ان واحداً من الذين كانوا يعيشون في سنة ١٩٣٦ مثلا ، قبل أن يشارك الوطنيون في حكم البلاد ، تنبأ بهذا المعرض الفني أن يكون على مثل هذا التنوع والتطلع لكان حديثه حديث خرافة ، ولكان تنبؤه موضع تندر... ولكن نمو الحياة الفنية أثر لشيئين اثنين : الحرية والتشجيع ، وعلى قدر ما تصيب منها يكون ازدهارها وألقها ؛ ولهذا مضت الحركة الفنية في السنوات التي تلت المعاهدة السورية الفرنسية . ومضت متسارعة حين جلا الاجنبي عن الوطن فتركت لابناء هذا الوطن ان يحسوا وجودهم وان يتعمقوا ذواتهم وان ينصتوا الى الروح الفنية التي كانت تناديهم من وراء حجاب من القرون الكثيفة ، وان يستجيبوا لها قدر ما تسمح تجربتهم وثقافتهم ودربتهم .

وهذا المعرض صورة جديدة من صور هذه الاستجابة وأثر من آثار هذه الحرية ، وهو يضم نخبة من نتاج فنانينا الذين شاركوا فيه في النحت وفي الرسم .

أما في الرسم فقد اشترك فيه هشام الزمريق ونبيه الزمريق ومحمد عيد يعقوبي وألفريد حتمل وممدوح القشلان وروبير ملكي ومروان قصاب باشي وعزة النويلاتي وميشيل كرشه وميشيل المير ومحمود حماد ونصير شورى ورشاد قصيباتي وانور علي الارناءوط وناظم الجعفري والسيدة موره لي من دمشق .. واشترك فيه من حلب فاتح المدرس ونوبار صباغيان وسامي برهان وألفريد بخاش ولؤي كيالي ، ومن حماه شريف الاورفلي ، ومن حمص صبحي شعيب ومن صلخد صالح السعدي .

وأما في النحت فقد اشترك فيه مالك بشور (صافيتا) ، وعدنان الرفاعي وخالد جلال ويعقوب ورده ومحمد وفا الدجاني من دمشق وألفريد بخاش من حلب .

ومن الظواهر التي تلفت المشاهد ان يشارك بعض سيداتنا في هذ االنشاط فتعرض السيدة موره لي من دمشق خمس لوحات جميلة .. وان يشارك كذلك بعض الاجانب الذين ينزلون سورية في هذا النشاط فيقدم فريتز بيرهكن (الماني) وشارل بوكلان بعض لوحاتها .

★

وليس يتسع لنا ان نتحدث هنا حديث النقد ولكننا لا نريد ان نغفل شيئين واضحين في اكثر اللوحات المعروضة .

أولهما ان اكثر فنانينا يقومون باعطاء هذه اللوحات بعض الاسماءالعجيبة.. والاصل في تسمية اللوحة ان تولد مع ميلاد اللوحة نفسها وان تكون تركيزاً كاملا لفكرتها وترجمة لهذه الفكرة بالحروف كما تكون اللوحة ترجمة لها بالالوان .

والثاني ان الذي يتأمل نتاجنا الفني يقع عنده ان هذا النتاج لم يتفاعل تفاعلا كاملا مع نفوس فنانينا.. ان بعضه قوي التعبير ولكنك مع ذلك تحس كأنما ينقصه ان يكون قد غمس في اعماق النفس ثم صدر عنها جزءاً منها .. انه في كثير من المرات صورة ولكنه ليس دائماً تعبيراً من الاغوار ، عن الاغوار ذاتها .

ولم يثر المعرض حتى اليوم جواً ناقداً صاخباً .. ولكن من المؤكد ان الحكام الذين سينظرون في امر توزيع الجوائز سيضطرون الى كثير من

النشاط الثقافي في العالم العربي

التأني وسيصادفون كثيراً من التردد .. هنالك لوحات تتقارب في الموضوع ؛ فقد تعاقب ثلاثة من الفنانين على رسم مشهد من قرية معلولا (تقع القرية في فج بين جبلين ضخمين متقاربين ويقوم عليها دير ضخم وتنبسط من امامها سهول وقرى وتجاورها ذرى وقمم) .. غير ان فنانينا ، بعد ذلك، تتوزعهم مذاهب واتجاهات لا هي أصيلة دائماً في نفوسهم ولا هم يتعمقونها ؛ وليس بينهم في جملتهم تفاوت كبير وليس هنالك تيار فني واضح .. ومن هنا كانت الصعوبة التي سيلقاها المحكمون .

العراق

« مهمة الادب وواجب الاديب »

لمراسل « الآداب » الخاص ببغداد

جرت خلال الآونة الاخيرة على صفحات جريدة «النبأ» مناقشة بين عدد من الادباء حول مهمة الادب وواجب الاديب . وقد ضرب الادباء فؤاد طرزي ومحمد جواد رضا ومجيد حميد النجار بسهم وافر في هذه المناقشة ؛ وقد كان الموضوع الرئيسي الذي اختلف حوله الادباء هو هل ان المجتمع هو مادة الادب ام ان الفرد هو الذي يصوغ ادبه صياغة داخلية ويرسله كجزء من ذاته وقطعة من نفسه ؟ وقد كتب فؤاد طرزي بان الحرية النفسية الذاتية للاديب شرط لازم من شروط الادب ، وهي التي تهيء له اختيار المواضيع التي تتواءم مع احساساته وذوقه ، ومن حقه ان تكون مواضيعه قضايا ومشاكل اجتماعية او ترانيم صوفية وابتهالات روحية . ولكن الحد الذي تلتقي فيه هو انها تعابير جميلة عن احساسات مخلصة صادقة .

وقد رد عليه محمد جواد رضا ومجيد حميد النجار فاتهماه بانه يريد ان يضع الاديب في برج عاجي ، وقالا بان المجتمع يجب ان يكون المصدر الذي يغترف منه الادباء عادة انتاجهم ، وانهم ان لم يفعلوا ذلك كانوا من الانانيين الانعزاليين . وذهبا الى اتهامه بانه ينكر تأثير الادباء باحوال وظروف مجتمعهم وبما تتطلبه هذه المجتمعات من واجبات تجاههم .

فرد عليهما فؤاد طرزي بانه لم ينكر تأثير الاديب بمجتمعه وبيئته ، وان الامر ليس أمر تأثير واستجابة بقدر ما هو تحديد لوظيفة الاديب ، وكما ان للمهندس والطبيب والمعلم وغيرهم وظيفة فكذلك للاديب وظيفة هي التعبير الجميل عن احساساته الصادقة ، سواء كانت احساسات بآلام مجتمعه او احساسات اخلاقية او تنغيات روحية .

ورد عليه محمد جواد رضا (دعبل) وحميد النجار مرة اخرى مؤكدين بانه لا بد للاديب الذي يتحسس باوضاع مجتمعه ويعيش فيه ان يغترف مادته منه ويستوحي من آلامه ومباهجه ويكون داعية من دعاته للمثل العليا الرفيعة .

● يكاد العراق يخلو من المجلات الادبية المحضة . فهناك مجلة «البعث العربي» وهي اقرب الى السياسة الخالصة منها الى الادب . وهناك مجلة [الاخوة الاسلامية] وهي مجلة دينية . ولكن الصحف اليومية قد ساهمت بعض المساهمة في سد هذا النقص . فأفردت جريدة [العالم العربي] صفحة اسبوعية للادب ، وكذلك فعلت جرائد [لواء الاستقلال ، والجبهة الشعبية ، والاتحاد الدستوري] . وتنوي جريدة [الاهالي] اصدار ملحق ادبي خاص كل اسبوعين .

● ظهرت اخيراً مجلة (الاسبوع) ، وهي صحيفة ادبية يصدرها السيد خالص اسبوع في صباح كل اثنين .

● ظهرت اخيراً في بغداد الكتب التالية :

١ – حفار القبور : وهي قصيدة شعرية طويلة للشاعر بدر شاكر السياب وقد نشر هذا الكتيب (دار الفن المعاصر) في بغداد .

٢ – كانت عذراء : وهي قصة في حوالى الخمسين صفحة للسيد فيصل الياسري ، وهذا الكتيب من (سلسلة أدب الحياة) التي ستصدر تباعاً .

٣ – على شاطيء الحياة : وهو مجموعة من العبارات القصيرة التي تصور شتى الافكار والعقائد في الحياة ، وقد ألفها السيد محمد الله مرتضى ونشرتها (دار منشورات البصري) .

٤ – خطرات : وهي مجموعات من الخطرات الفكرية في الادب والسياسة والاجتماع للاستاذ الدكتور محمد مهدي البصير .

٥ – الحمأ المسنون : وهي قصة شعرية تروي قصة الانسان منذ الخليقة ، وهي (للشاعر المجهول) .

٦ – سوط الاقطاع : وهي مجموعة صغيرة من الاقاصيص القصيرة لأحد الكتاب الناشئين .

النشاط الثقافي في الغرب

تنشر المجلة في هذا الباب ما يوافيها به مراسلوها في الغرب عن مظاهر النشاط الثقافي في ذلك الجزء من العالم. ولما كانت الاحداث الادبية التي وقعت في فرنسا في الشهرين الاخيرين تطغى على سائر الاحداث في سائر البلدان الغربية، فقد آثرنا ان نخص فرنسا بهذا الباب في هذا الشهر.

فرنسا

فرنسوا مورياك وجائزة نوبل

لمراسل «الآداب» الخاص بباريس : صباح محي الدين

قدمت في تشرين الثاني الفائت الاكاديمية الملكية السويدية جائزة « نوبل » للآداب الى الكاتب الفرنسي « فرنسوا مورياك » عضو الاكاديمية الفرنسية .



وهذه الجائزة ارفع ما يمكن ان يناله اديب في الوقت الحاضر، وهي الى جانب ما تعنيه من مجد أدبي، تنطوي على فائدة مادية تتمثل في ١٧١،١٣٤ كوروناً سويدياً ، اي اكثر من ١١٠،٠٠٠ ليرة لبنانية .

وقد اسست هذه الجائزة السنوية في ٢٧ ايلول ١٨٩٥ وفقاً لوصية « الفرد نوبل » ، وهي تتجزأ الى خمس جوائز للفروع التالية : الكيمياء ، الفيزياء ، الطب ، الادب ، السلام .

ويتلقى نائل الجائزة من يدي ملك السويد شهادة ومدالية من الذهب قطرها ٦٥ مليمتراً ، وجائزة مادية تتراوح اهميتها باختلاف السنين .

اما مؤسس هذه الجائزة فهو الفرد نوبل، الذي ولد في ستوكهلم عام ١٨٣٣ واكتشف الديناميت في عام ١٨٦٤. وكان نوبل محباً للسلام، فخطر بباله ان الامم المتمدنة ستكف عن الحروب يوم يصبح في امكان جيشين عدوين ان يهلك احدهما الآخر في اقل من ثانية . ولذا اكتشف الديناميت ، لكن الانفجار هدم اول معمل له ، فحرمت حكومة السويد صنع المنفجرات في بلادها . وباع نوبل امتياز اكتشافه الى الحكومة الايطالية، ومنذ ذلك الحين بدأ التسابق الى التسلح .

وهال «نوبل» ما شاهده من نتائج اكتشافه ، فأسس هذه الجائزة للسلام وخير الانسانية .

وقد وقع الاختيار على مورياك من بين عدد كبير من الكتاب من مختلف الجنسيات، وذلك « لتحليله الدقيق للنفس، ولما بثه من روح فنية في التعبير عن الحياة الانسانية في قالب القصة » حسب ما جاء بنص البرقية التي اعلمته بنيل الجائزة .

ويبلغ مورياك اليوم السابعة والستين من العمر ، وهو وليد بيت عريق في مقاطعة «بوردو» . توفي والده وهو بعد صبي صغير، فتعهدته والدته التي تعلق بها تعلقاً شديداً وعاش في كنفها حتى العشرين من عمره، ثم قصد مورياك الى باريس حيث اخذ يحيا حياة ابناء السراة من المتشبهين بالانكليز ، رواد البارات والصالونات .

ولكنه كان يخفي تحت رماد هذه المظاهر ناراً محرقة ، تعتلج في نفسه تحت ستار من البرود واللامبالاة ، فنشر ديواناً من اشعار الصبا باسم « اليدين المضمومتين Les Mains Jointes » ولاقى ديوانه لدى امير البيان في ذلك العهد « موريس باريس Maurice Barrès » ، حماساً كبيراً فكتب عنه مقالا ملأه مديحاً وتنبأ للشاعر الشاب بمستقبل باهر . ومنذ ذلك الحين نشأت بين الكاتب الناشيء وزعيم الفكر الفرنسي في اوائل القرن العشرين صداقة متينة، وجعل مورياك من «باريس» رائده واستاذه .

وقد جمعت (الأنا) بين الاثنين ـ، فيما تنضم عليه من اهواء وعقد ، وما تجتاحه من عواصف، وما ينطوي عليه من تناقض بينها وبين العالم الخارجي من جهة وبين عالم الدين والاله من جهة اخرى .

وفي هذا العراك ، بين الذات وبين العالم الخارجي ، بين لذات الجسد والحواس وبين الصوفية المحرقة ، سر فن مورياك .

فقد كتب اكثر من ثلاثين كتاباً جمعت بين الشعر والقصص والروايات والنقد الادبي ، ولكنها كلها تدور حول محور واحد هو مشكلة الانسان المصنوع من لحم ودم يتجاذبه حب الحياة والرغبة في خدمة الاله والحصول على نعمة الخلاص ، ويعترف مورياك بانه كاتب (ذاتي) لا يعنى بالعالم الخارجي الا بقدر ما يكون النطاق الذي تتحرك فيه اشخاص رواياته .

ويجب العودة الى طفولة مورياك كي نفهم جوه الروائي، ونتبين القوى التي تتنازع ابطاله وتسيرهم .

فهو القائل : «على الرغم من انني كنت بالغ الصغر فان الماضي كان ينفتح امام عيني كهوة تتحول فيها وقائع طفولتي، مهما بلغت من البساطة ، الى لذائذ مفقودة ...

«ان بني جنسي تتملكهم نزعة مظلمة تدفعهم الى ان يعبدوا من انفسهم ما هو ميت، وهم مثقلون بالذكريات والصور والاحاسيس ، كأنها جثث لم يحسن تحنيطها ...

« وفي طفولتي الاولى ، تملكتني حاجة الكتابة ، الحاجة الى ان اتخلص بواسطة الكتابة... ويبدو لي كأن باباً قد اغلق الى الابد في نفسي على ما كان سيصبح مادة كتاباتي ، حين لم اكن قد تجاوزت العشرين من عمري...»

فقد عاش مورياك طفولة تقلب فيها بين النشوة الحارة والرعب العظيم ، بين الحياة الوثنية التي كانت تضطرم بها غابات الصنوبر ، والشوق الصوفي الذي اورثته اياه والدته وملأت به نفسه قداديس الاحد وروائح البخور وموسيقى التراتيل .

فهو اذن طفل احرقه تموز بناره ، فانطلق يقبل جذوع الشجر ويناجي آلهة

الغابات في رغبة ولهفة ممزوجتين بخشية ورعب .

ونقل مورياك هذا النضال القائم في نفسه الى قصصه ، فخلق عالماً رجيما ، يجرم فيه الناس ويموتون في جو خانق من النهم والشبق والندم وخشية النار والشيطان .

فورياك يؤمن ان الانسان مها عاش ، يحمل في ذاته سماً لا يتخلص منه ابداً . ومهما كان نوع موت الناس ، فانهم كلهم يموتون مسمومين .

وهذا السم الناقع الذي يسدب في الروح والجسم ، هو ما يصفه موريالك باسلوب جعله في الطليعة من القصاصين الفرنسيين . وهو لا يخترع مطلقاً وانما يتذكر العالم الضيق المتزمت، عالم طفولته القلقة المنطوية على نفسها، والمقاطعة التي عاش فيها . وهو في هذه النزعة القصصية مدين الى حد كبير للكاتب مارسيل بروست Marcel Proust الذي جعل عنوان قصصه « في البحث عن العهد الضائع » . فورياك كبروست يجد في نفسه مادة قصصه كالعنكبوت تنسج بيتها مما تفرزه دون الاستعانة بأي عامل خارجي.

وفي كل قصة من قصص موريالك نجد ذات الاشخاص تقريباً او اشخاصاً ذوي طباع متماثلة . وقد فسر موريالك ذلك إذ قال : « ان عالمي ضيق وهو على قياسي . فان العالم الذي اكتشف في نفسي هو عالمي الصغير الذي عشت فيه في طفولتي ، وهو عالم محدد تحديداً ضيقاً .»

وموريالك يتخلى عن عالمه ألذي يضطرب بالعوامل الدينية ونوازع التلذذ الدنيوي وما يجمع بينها من سادية ومازوجية ، ليساهم في جريدة «الفيغارو» فيتكشف عن هجاء مر للشيوعية ومدافع عن القيم التقليدية – ويوغل في ذلك حتى الرجعية القبيحة – فهو يحبذ الحرب في الهند الصينية دون تمييز ، ويدافع عن سياسة فرنسا في افريقيا الشمالية وعن مصالح الفرنسيين المقيمين فيها ... ويرى في فرنسا ممثلة المدنية المسيحية التي تدافع عن الكنيسة امام هجمات البرابرة في آسيا ، وحركات التحرر في افريقيا ! [1]

ولست ممن يعتقدون بامكان فصل شخص الكاتب عما يكتب ، وسلوكه الشخصي والاجتماعي عن انتاجه الفكري . وليس في « فرانسوا موريالك» ما يثير الحب والعطف في هذا الميدان ، اذ تنقصه – وهو المسيحي كما يقول – اول ميزات المسيحي الحق، ألا وهي روح الاحسان والتسامح . ففيه نفس قضاة محاكم التفتيش الذين يؤمنون بالشيطان اكثر من ايمانهم بالله ، ويجدون رائحة الكبريت في كل عمل انساني ولا يشمون رائحة النعمة الا من بعيد جداً . فقد كتب لدى وفاة « اندره جيد » مقالاً لم يراع فيه حرمة الموت ، وأبان فيه عن حقده على «جيد» لأنه عاش غير مؤمن ومات غير مؤمن، وفي ذلك ما يطرح نظريات موريالك وأمثاله أرضاً ، اذ انهم لا يرون العيش ممكناً الا في حظيرة الايمان، او بمعنى ضيق ، في حظيرة ايمانهم هم، الذين لا يجدون من دونه خلاصاً لأحد ، مها صفت نيته وحسنت طويته .

الادب الافريقي بالفرنسية

بين افريقيا الشمالية وفرنسا نزاع على المفاهيم الاولية للحرية والاستقلال والادارة ، ولكنه نزاع سياسي لا يمنع ان تكون الثقافة الفرنسية قد اصبحت منهلاً يرده الافريقيون ، فيستفيدون منه وسائل للتعبير عن آمالهم وآرائهم ، وأسلحة يكافحون بها سلطان فرنسا في عقر دارها .

فقد شهدت باريس هذا الموسم عدداً من الروايات كتبها شبان افريقيون بلغة فرنسا ، ودافعوا فيها عن رغبات شعوبهم وطموحها الى التحرر من كل قيد اجنبي .

ولو ان هذه الروايات اقتصرت على الجدل السياسي لما كانت ذات قيمة كبيرة . ولكنها آثار ادبية – اول ما تكون – تقدم صورة حية تنبض دما وعرقا ، عن الشعب في افريقيا الشمالية ، وتصور كفاحه في حياته اليومية لكسب عيشه والتكيف بمتطلبات الحياة الحاضرة وما أتت به المدنية الحديثة من أشياء ومفاهيم جديدة .

ومن بين هذه الكتب روايتان تستلفتان النظر لاختلافهما في عرض العقدة القصصية وفي الاتجاه السياسي للرواية ، اذا صح هذا القول .

اولاهما « التل المنسي La Colline Oubliée » وقد ألفها كاتب افريقي اسمه مولود معماري وهي قصة قرية ضائعة في الجبال ، يصطدم فيها جيلان من القرويين البربر ، جيل الشبان الذين دخلوا المدارس وتعلموا اساليب الغرب في العمل والتفكير ، وجيل الشيوخ المقيمين على عهد القصص القديمة والحكم السائرة .

---

(١) كتب موريالك مقالا اثناء العدوان الايطالي على الحبشة قال فيه : « ان الحب والايمان !! يخلقان مساواة بين الطليان والاحباش ، اذ ليس من حب يفوق الجود بالروح ، ولا تختلف طرق الموت في سبيل الوطن والشفتان تلفظان اسم يسوع » !

النشاط الثقافي في الغرب

وتأتي الحرب في عام ١٩٣٩ ، فنجد الشبان الذين يشهدون هزيمة فرنسا عن قرب ، فيزول ايمانهم بها ويعودون الى عاداتهم القديمة والى تنبؤات الشيوخ الذين يرون في انكسار فرنسا انتقام العدالة الإلهية من الكفار .

وتشكل هذه الحوادث لحمة القصة ، اما سداها فهي مغامرات «مقران» وابن عمه «منح» و «عزه» زوجة «مدور» وغيرهم من الشخصيات التي جبلت من طين القرية ومائها .

واذا شئنا ان نستخلص معنى هذه القصة، رأينا انها تمثل الازمة التي يعانيها كل بلد شرقي تصل اليه أمواج المدنية الغربية ويحاول كل من سكانه ،كما يقول الكاتب ، « ان يجد الطريق التي تؤدي به الى غاية جديدة ».

واما رواية «البيت الكبير La Grande Maison » فمؤلفها محمد ديب وهي تختلف عن سابقتها في انها تسعى الى مرمى اجتماعي وتصور الحوادث والاشخاص من زاوية معينة موجهة .

ومكان الحوادث بيت كبير في مدينة [تلمسان] يعج بالفقراء من السكان، اصبح الجوع قطعة من اجسامهم وأنفسهم ، وقرينا مقيما يهددون من حدته بقبضة من الفاصولياء أو اللوبياء .

وتدور الرواية حول ارملة اسمها [عيني] واولادها الاربعة مريم وعويشة وعمر وجلال .

ويختبيء في هذا البيت الكبير شيوعي يطارده البوليس .

وفي هذه الاثناء تشتعل نار الحرب العالمية الاخيرة ، فتجتاح البيت الكبير وسكانه الفقراء عاصفة من الأمل . فهم يعتقدون ان هتلر سيحررهم من الفرنسيين واليهود وانه «طرز على نطاقه: لا إله الا الله محمد رسول الله»..

وهذا الكتاب أول جزء من ثلاثة أجزاء سيصور فيها الكاتب آثار الحرب في (البيت الكبير) وأهليه ، وعراكهم الدائم مع الجوع .

أما أسلوب الكاتب فشعري ، ينبض بالشفقة والحنان على أبناء جلدته الجياع ، الذين لم تملأ حسنات المدنية الحديثة بطونهم ، بل بالعكس ، زادتهم جوعا على جوع.

مؤتمر اليونسكو

عقدت اليونسكو (منظمة الامم المتحدة للعلم والثقافة والتربية) مؤتمرها العام السابع في باريس بين ١٠ تشرين الثاني و ١٠ كانون الاول وقد حضره ممثلو ٦٥ دولة من سائر انحاء العالم ؛ من بينها سوريا ولبنان ومصر والعراق والمملكة الاردنية وليبيا والمملكة السعودية .

وقد وافق هذا المؤتمر على ميزانية اليونسكو للعامين القادمين ١٩٥٣ و ١٩٥٤ ، كما عالج مسألة قبول ليبيا ونيبال NÉPAL واسبانيا في المنظمة . وقد قبلت الدولتان الاوليان دون نقاش ، أما اسبانيا فقد ثار حولها جدل حامي الوطيس وقبلت اخيراً باكثرية ٤٤ صوتاً مقابل ٤ أصوات و ٧ مستنكفين .

وقد وقع خلاف بين المؤتمر ومدير المنظمة العام الدكتور توريس بوديه على الميزانية، فقدم المدير استقالته وتبعه رئيس المجلس التنفيذي السيد كارنيرو وقد عين نائب المدير العام السيد تايلور مديراً عاماً بالوكالة حتى شهر نيسان ، حيث يعقد مؤتمر عام استثنائي لانتخاب مدير عام اصيل .

موسم الجوائز الأدبية

الخريف موسم الجوائز الأدبية في باريس ، وهي تكاد لا تعد ، ولكن اهمها جوائز غونكور Goncourt وفيمينا Fémina ورنودو Renaudot. وقد حازت النساء قصب السبق هذا العام ؛ إذ نالت السيدة « بياتريكس بك Béatrix Beck » جـائزة غونكور عن قصتها : لويس موران القس Louis Morin Prêtre ؛ والسيدة « دومينيك رولان Dominique Rollin » جائزة فيمينا عن قصتها : النسمة Le Souffle . اما جائزة رنودو فقد نالها الكاتب «جاك بيري Jaques Perry » عن قصته : حب لا شيء L'Amour de Rien ؛ وجائزة Interallié نالها « جان دوتور Jean Dutourd » عن كتابه : Au Bon Beurre .

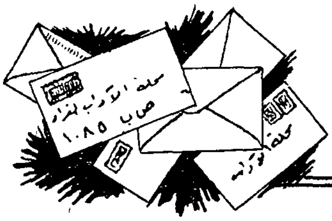
ومن بين الجوائز الاخرى جائزة القصة البوليسية وقد نالها « جورج ارنو George Arnaud » عن قصته : لا ترموا المفتش بالرصاص Ne tirez pas sur L'Inspecteur . وجائزة بول فاليري للشعر وقد نالها تلميذ في الطب عمره ٢٣ عاماً . وجائزة النقد الادبي وقد نالها « جورج بوليه Georges Poulet » عن كتابه المسافة الداخلية La Distance Intérieure .

بول ايلوار

توفي في ٢٠ تشرين الثاني الشاعر الفرنسي بول إيلوار عن ٥٧ عاماً .. وقد فقد الشعر الفرنسي بوفاة ايلوار احد وجوهه الغر ، ورائداً من رواد الحركة السريالية التي رفع لواءها (اندريه برتون) بعد الحرب العالمية الاولى. وقد ساهم ايلوار اثناء الحرب الأخيرة بقلمه في المقاومة ضد المحتل الالماني . ومن دواوينه (عاصمة الالم) ، و (حب الشعر) ، و (الحياة الآنية) ، و (الزهرة العامة) ،و (الجسم المشهود) التي يمجد فيها غرامه بامرأته(غالا)، التي تزوجت فيما بعد من الرسام السريالي (سالفادور دالي) .

وقد اتجه ايلوار بعد الحرب نحو الحزب الشيوعي حيث اخذ يعمل مع الشاعر (أراغون) في الجبهة الفكرية للحزب الشيوعي .


آلاف من الأيدى
العاملة وآلاف من
الرؤوس المفكرة تعمل ليل نهار لتخرج
من البترول أداة صالحة للمجتمع الجديد .
وها هى شل تقدم عصارة
الأفكار وجهد الأيدى العاملة
فى ذلك الزيت الجديد .
شل
X-١٠٠
زيت محرك السيارة



صندوق البريد

كتب رئيس تحرير « الآداب » الى عدد من الادباء والمفكرين في جميـــع اقطار العالم العربي يحدّثهم عن أهداف المجلة ، فتلقى رسائل تأييد وتشجيع . و « الآداب » اذ تنشر أهمّ ما ورد في بعض هذه الرسائل ترجو ان تكون عند حسن الظنّ وان تتمكن من تأدية رسالتها على الوجه الأكمل .

● جاء في رسالة بعث بها الاستاذ عبدالله عبد الدائم الاستـاذ في معهد المعلمين العالي بالجامعة السورية ما يلي :

« اخذت رسالتك في وقت كنت منصرفاً فيه الى قراءة كتاب Le Confort » Intellectuel « من تأليف Marcel Aymé (وانت تقدر قلمه كما اقدره) وكنت امتع الفكر باستجلاء كلمات قوية يتحدث فيها الكاتب عن أثر الاسلوب في إثارة القلق الاجتماعي ، وعما يسيل من القلم من قطرات تسيل منها دماء على حد تعبيرنا نحن العرب . انه يرى، وحق ما يرى ، ان الخطر الحقيقي الذي هدد الطبقة البورجوازية مثلاً لم يصدر عن ماركس بقدر ما صدر عن امثال « بودلير » و « دولاكروا » . فماركس وحده لم يكن ليقوى على اقناع الطبقة البورجوازية بالانتحار ، لأن المنطق العقلي وحده لم يكن في يوم من الايام قادراً على ان يجرف عاطفة ، ولأن الحجة يسهل قرعها بحجة مقابلة . اما الصورة الادبية العنيفة المترعة بالإشعاع ، والبيت من القصيد يطفح بالظل وباللحن المضطرب والرنين الفذ ؛ امـا السر الذي ينشره لفظ جليل او يشتم وراء اسلوب ناطق ، فكل تلك قوى حقيقية تعمل في النفس عمل الخمر ، وتدخل في الجسد نفسه عادات من التفكير والشعور لم تكن لتدخله عن طريق العقل والعقل وحده .

كنت أقرأ هذا وأرى فيه توكيداً لفكرة طالما آمنت بها ، تحدثنا عنها معاً في احد اجتماعاتنا في غرفتك الصغيرة بباريس ، اعني بهذه الفكرة الايمان بما سميته الادب الفعال ، وبان كل نهضة اجتماعية قومية لا بد ان يسبقها مهاد من الادب يفسح امامها الطريق ، وان قصة كقصة « الحكيم » لـ John Knittel مثلاً (او « كالرغيف » لتوفيق يوسف عواد ، كما ذكرت لي) تفعل في جمهورنا العربي ما لا تفعله الوف المحاضرات . ان الانقلاب الاجتماعي القومي الالماني لم يحدث قبل ان يصدح به كل نغم في الادب الالماني . وان انقلابنا المنتظر لن يكون قبل ان يرهص به الشعر والفن والادب . إن الفنان بحكم حساسيته المرهفة ، اسبق الى ادراك الاتجاهات الروحية التي سيتمخض عنها مجتمع ما ، فاذا لم تظهر بوادر هذه الاتجاهات في ما ينتج ، كان ذلك دليلاً قاطعاً على ان هذه الاتجاهات ما تزال غامضة سطحية ، وان جذورها في المجتمع غير راسخة بعد .

... آمل ان يكون شأن مجلتك ومجلتنا شأن تلك المجلات الالمانية التي احتضنت وربت عدداً كبيراً من الادباء الشباب ، والتي نجد صورة جميلة عنها في كتاب زفايغ Zweig الذي عنوانه (عالم الامس) Le Monde d'Hier . ولا اشك في ان الرسالة المثلى التي رسمتها للمجلة بالغة غايتها مادمت تغذيها بايمان برسالة الفكر غزير عندك ، وما دمت قادراً على التصوف في سبيل مثل هذه الرسالة . »

الفكر : مغامرات صوفية

وكتب الاستـــاذ محمود المسعدي الاستاذ في معهدي الدراسات العليا في باريس وتونس رسالة جاء فيها ما يلي :

« لست اعلم عناية أرهق ولا إصابة اتجاه اشق من العناية بالفكر — لأنه مغامرات (صوفية) كله — ومن الاتجاه في شعاب الادب — لأن جوهره خلق مستمر لا يعرف له السالك وجهاً قبل خلقه . ويقيني انك لم تضطلع بذلك كله الا في علم بثقل مؤونته وأهوال مخاوفه وكثرة مزالقه ، مفضلاً الاجتهـــاد و (الالتزام) على دعة الكسب وطمأنينة الربح . فالأدب — كما علمت — من دم الأديب ولحمه يقد ، ومن جوهر كيانه يعتصر ، وهو نزيف الروح تتساقط خلجات حية حتى تنفد الروح وتفنى الحياة وترتد الخلجات الى سكون الابد . وليس في هذا ما ينتسب الى الكسب او الربح في شيء ؛ وليس مرادي الكسب او الربح المادي المتعارف عند هواة الحطام من الدنيا ، وانما اعني الكسب والربح الوجودي بما فيه من ارتياح حسي ورضى عاطفي وسعادة لفظية وطمأنينة عدمية . فمن طلب ذلك ، فليتبوأ مقعده من (الجنة) — جنة السذج الوادعين وليترك لغيره من الادباء مجد (المغامرات الصوفية) الدامية ، وفخر السعي بقلبه وعقله وكامل وجدانه وكيانه الى صميم نار التجربة لمعنى (الانسانية) .

يأس ... فرجاء

وكتب الاستاذ انور المعداوي (مصر) :

« نظرت الى « الآداب » في ضوء كلماتك فراعني هذا البرنامج الضخم الذي أعددته وتلك الاهداف المثلى التي تسعى الى تحقيقها في ثقة واطمئنان . انني اهنئك منذ اليوم على هذه الروح الوثابة التي تتطلع الى آفاق كانت وما تزال أمل الخاطر وحديث الوجدان ! ولك ان تثق كل الثقة من انني سأكون الى جانبك دائماً بقلبي وقلمي حتى تتحقق تلك الامنية الغالية ، امنية البعث الفني لأدبنا الذي مات ... صدقني ، لقد كدت ان انفض يدي من هذا الأدب حين رأيته يحتضر على ايدي الفارغين وبين سطور المجلات الهزيلة ... واخيراً جاءت رسالتك وكأننا على ميعاد ... جاءت تحمل نفس الشروط والاهداف التي آليت على نفسي ان تكون هي الثمن الوحيد الذي اتقاضاه لأعود الى القلم ...

... ان موقفي من عرضك هو موقف الترحيب بدعوة مخلصة من صديق أثق بذوقه الادبي ، وأطمئن الى وعده الصادق ، وأؤمن بكفاحه في سبيل المثل العليا الفكرية ... »

فهرست

العدد الاول – ١ كانون الثاني ١٩٥٣